843
V86K
FE 15
MY 15 54
AP 20
NY 8
MR 22 '55
L. Feb 70

تقدمة الكتاب

الى أبي وأمي

اللذَين ربياني تربيةً مسيحية اوصلتني الى دعوة الكهنوت المقدّسة

الى آبائي الروحيين في الرهبانيّتَين العزيزَتين

الرهبانية اللبنانية التي في حضنها نشأت وبلبن روحياتها تغذّيت
والرهبانية اليسوعية التي في كليّتها تعلّمت وتثقّفت
وآباءها الافاضل استرشدت

أقدّم كتابي تقدمة شكرٍ وعرفان جميل

وبهم

اقدّمه الى آباء العيال الكاثوليكية في لبنان العزيز

راجياً

ان يعتبروا ، لدى قراءته ، ان الدعوة الكهنوتية

شرف وسيم

لهم ولابنائهم اذا خصّهم الله بهذه النعمة العظمى

المعرّب

مشموشة في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩٣٦

مقدمة الكتاب

طالعت « خطيئتها » بالفرنسية لمؤلفها جان ثيزار ، وبالعربية لمترجمها الفاضل الغيور الاب باسيل غانم اللبناني ، فوقفت من فصولها موقف الدهش والاعجاب ، وأحسست في سطورها الباكية ما لم أحسّ في غيرها من الروايات والقصص . فما تكاد عينا القارئ ترتفعان عن آخر لفظة من الفاظها ، حتى يأنس من نفسه الشوق الى مراجعتها ، والتشبّع من عواطفها الثائرة المتناحرة طوراً ، الوادعة المتعانقة تارةً ، وما يزال حتى يقرّ به الخيال تجاه سرير « المحتضر الشاب » يخاطب صديقه « الكاتب الفتى » بأرقّ واوجع ما تأوّه به تائب مسحوق على فراش الموت ! فيطوي الرواية قارئها ، وفي شفتيه ترحّمٌ على نفس بطلها التاعس ، وفي قلبه حرقةٌ على الشباب المفتون بين كلاليب الشهوات الحادّة ، ونصالها المسنونة ! وفي نفسه عبرٌ تهزّ كيانه هزّاً عنيفاً ، فتهيب به الى التوبة ان كان خاطئاً ، وتدفعه في سبيل البرّ دفعاً ان كان باراً ! حين انك تُلمّ بكثير من القصص ، فتسأل مؤلفيها او مترجميها عن غايتهم مما كتبوا ، فلا تظفر منهم بجواب ، او اذا ظفرت كان جوابهم تافهاً بارداً ، اشبه ببرودة اقلامهم المكدودة على الصفحات ، يتصبّب من بين شقوقها عرق الموتين : موت النفس وموت الجسد !

اننا لفي عصرٍ تمشّى الوباء في عروق آدابه ، وختم الفساد على قلوب فريق من شعرائه وكتّابه ، فنكاد لا نقرأ صحيفة الا وبين اعمدتها للرذيلة مسرح ، ولا نطالع مؤلّفاً الا وفي صفحاته للقارئ

الضعيف مغرٍ يستحثه ، تحت ظواهر الادب ، على الاسترسال في ما يقرأ ، فاذا به وقد جرع السمّ المدسوس من حيث لا يدري ! فيحاول تناول الدرياق من مؤلف آخر ، ضنًا بزهرة اخلاقه ان تيبس فتُداس ، واذا هو متناولٌ سمًا على سمّ ، واذا الموت في جوانب نفسه ينادي الموت !

يا للانسانية من ويلات القرن العشرين ! البغض لله وخدّامه يرعى القلوب ، ونفور الانسان من اخيه الانسان يعصف بالنفوس ، فالعامل يشزر الملّاك بعين يُلهبها الحسد ، والملّاك يتلفّت حواليه تلفّت الحذر ! وطريح الدهر يبحث عن كسرته بالسراج والفتيل ، فيكاد لا يهتدي اليها الا في سوق الفجر ، يبيع آدابه رخيصة ، وينحرُ اخلاقه على اقدام وثنِ الحاجة القاسي ، والغني المترف غائص غالباً من ليله في نوم عميق ، ومن نهاره في مرجٍ ينافس الجنون ، لا ينبض في صدره وترٌ حنان ، ولا تستفزّ همته مكرمة ! وقسطاس الانصاف يترجرج في ايدي الحكومات ترجرج المصباح في يد الاشلّ ، فلا تدري ماذا تُقرّ وماذا تنفي ، ومَن تجيب ومَن تخذل ! ان هذه البشرية الصاخبة المرتعشة ظمأى الى السلام ، والطريق المسلوك الى السلام كامنة في جانبَيه الضواري ، ملتفّة على منعرجاته ولياته الافاعي !

اننا لفي عصر امست الفضيلة فيه شذوذًا ، والرذيلة قاعدةً : فبات الحييُّ المتصوّن ضحكةً للوُقّح المتهتّكين ، والمتمسّك بحلقات الدين الذهبية منتقَدًا للمارقين ، والنازع الى دعوةٍ اكليريكية هدفًا لسهام الناقمين ، حتى في بعض الاحيان من والديه واقربائه وانسبائه ، واصدقائه ، ولاسيما اذا كان من اسرةٍ شريفة

مثرية ، ولو انصفوه وانصفوا نفوسهم ، لباهوا بولدهم كاهناً تقياً ، بل سلطاناً تعنو لحكمه سلاطين السماء والارض !

فكرةٌ حداني اليها المقام ، ونطق بهـا واقع الحال ، تنبيهاً لابناء بلادي الاعزاء وارباب عيالها الكرام ، لما في المطالعة العصريّة من اشراكٍ تنشب فيها قلوب الشبيبة الغاوية من الجنسَين ، وقـد التبست عليهم افكارهم فلا يفرقون بين الضارّ والنافع ، الجميل والقبيح ، ومـا هو الا ان يستحكم الفساد في النفوس وتتحجّر الوقاحـة في الوجوه ، فيُمسي الانسان ، لا مطمح لافكاره ، ولا هدف لانظاره ، الاّ المادّة ، وما كان ينبغي ان تكون الا موطئاً لقدَميه ، وما علّة الشقاء تتخبّط فيه الانسانية اليوم سوى انصراف الانسان الى الفاني واعراضه عن الباقي !

اليكِ ايتها العيال المسيحية أُهدي هذه الرواية الواقعيـة باسم مترجمها الفاضل فأقرئيها وأقرئيها اولادَكِ ، فانك لا ريب واجدةٌ فيها ما يُرضيكِ عن ابنائكِ ويُفرحكِ بهم ، اذا تخيّر الله احدهم خادماً لمذبحه الطاهر !

واني لاختم هذه الكلمة ، راغباً الى كل من تهزّه غيرةٌ على الاخلاق من أُدبائنا ، عالميّن واكليريكيّين ، ان يجرّدوا اقلامهم التزيهة لتحبير روايات أخلاقية بين مؤلّفٍ ومترجم يودعونها من قرائحهم النقية السيالة ، ضرباً على غرار المترجم ، مـا يقف سدّاً منيعاً في وجه تيار الخلاعة الجارف ، لطف الله بنا وهدانا الى مـا فيه مجده وخير نفوسنا !

صديق المترجم

ا . م .

843
V86kgA
c.1

خطيئتهما

تأليف الكاتب الفرنسي

جانه فيرار

عرّبها الاب الفاضل

انس باسيل غانم اللبناني

مدير مدرسة مشموشة

(نُشرت تباعًا في جريدة البشير)

المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

بيروت ١٩٣٦

Cat. 16 Feb. '53

المقدمة

لا يسعني انشاء مقدمة : غير اني ، وقد مالا تني الفرصة ، احتج على اوهام من يحسبون الدعوة الرهبانية او الكهنوتية كارثةً من كوارث الحياة ، في حين انهم يبتهجون بزواج اولادهم ولو في اقاصي المعمورة ، فهذا الاحتجاج أقدِمُ عليه تدفعني الحميّة ، مع الاقرار بعجزي ! وحسبي القول : طالعوا قصة جان ڤيزار «خطيئتهما» اشرعوا في مطالعتها ... فتروا في هذه المطالعة على ما قدمت جواباً

سولانج بودان
خوري كنيسة القديس اونوريوس ايلو
كاهن قانوني فخري
في باريس

لا عناء حيث الحب والله كانه ثم من عناء فهو محبة !

الجزء الاول

١

كان بول ڤيولي ، معلم الصف الثاني في مدرسة اوزانام ، وقد خلفت مدرسة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٤ ، وكان يشرح پوليوكت وقد التفّ تلاميذه حول منبره يصغون اليه كلّ الاصغاء ، فكنت تراهم جامدين ، مبهوتين ، شاخصين اليه واقلامهم في ايديهم ، وقد أمسكوا عن الكتابة ، واي شيء يكتبون ؟ ان المعلم الشاب ترك الشروح اللغوية والكلمات ومآتيها وخلّى النقد وطار عالياً الى ذلك العالم الادبي ، الذي لا تلجه النفوس الا خاشعةً متهيبةً ، لما ترى فيه من عظمة وجمال !

لقد قرأ هولاء التلاميذ پوليوكت ، قرأوها مراراً ولكنهم لم يشعروا قطّ بما شعروا به ، في هذا المساء ، من الاعجاب بها ! قرأوها مراراً ولكنهم لم يفهموا ما فهموه في هذا المساء ولم يحيطوا علماً بما حوت من عواطف الشهامة والبطولة والايمان المسيحي الحي !

من كان اجدر من بول ڤيولي بشرح هذه الرواية العجيبة والتعليق عليها ، ذلك العالمي القديس ، الذي لقّبه زملاؤه ومعارفه بهذا اللقب فاصابوا الهدف ، لانه لم يكتفِ بالذكاء والعلم حلية له ، بل اضاف الى علمه وذكائه فضائل جمّة وتقوى راهنة حملت كل

من عرفه على الاعجاب بنبوغه وقداسة حياته ، مع انه لم يمض على مزاولته فنّ التدريس اكثر من سنتين !

كان كلّما عرض له ان يتكلم عن عظائم الديانة المسيحية، تلك الديانة ، التي طبّق عليها مناهج حياته ، كان النور يشعشع من عينيه وسيماء الفرح والحماسة تتلألأ على وجهه ، فيتدفق تدفق السيل فصاحةً وبلاغةً ، والتلاميذ يسمعون له سماعاً عجيباً تأخذهم لهجته المعبّرة عن اعتقاده المكين بما يقول ويطيرون معه على اجنحة البهجة محلقاً في الاعالي . وكانت الحميّة تكهرب جوّ مدرسته في ذلك المساء ، فذاقت قلوب فتيانه فرحاً لا يوصف ، فرحاً كاملاً لا يُنسى ، اذ قُيّض لهم ان يروا سناء الخير ورونق الجمال . وشعروا انهم اخوة لانهم أخذوا يصبون بدافع روحي واحد الى الخير الاسمى ويحنّون الى الجمال الازلي

— لا يا فتياني ، لا تصدقوا سيئي الظنّ ، اولئك الذين لا يرون في العالم الاّ اسواداً فيصورون عصرنا بحالك الالوان ، وينعتونه باقبح النعوت . فليس القرن العشرون عصر الانانية القبيحة ولا عصرَ الخمول الديني العامّ : ففي عصرنا رجالٌ يحاكون پوليوكت، بثقافتهم ، رجال مستعدون دائماً للتضحية بكل عزيز غالٍ حفاظاً على ايمانهم ، وهم فخر ذريّتنا . واني اتمنى على الله ان تكونوا منهم يوماً . فلا يجوز لكم ، وانتم البقية المسيحية القليلة الباقية لنا ، قلت لا يجوز لكم ان تكتفوا بالفضيلة العاديّة . فالذرية الجديدة واهنة القوى أثقلت بها الشهوات نوازلها فعليكم ان تكونوا ملحاً يُصلح ما فسد من معاصريكم !!...

كان يتكلم ناظراً الى تلاميذه واحداً فواحداً ، وقد شُغف بهم فشعر انه ضارب بكلامه على وترٍ حساس في نفوسهم ربّما كان محركاً فيها سلسلة نغماتٍ جميلة !

ثم عطف قائلاً : « انتم الآن في الخامسة او السادسة عشرة من عمركم ، فلا يمضي القليل حتى تصبحوا رجالاً . فلا تندفعوا مع تيار الالعاب الرياضية وحدها ، ولا تتعشقوا ، كبعض الشبان ، القراءة المجونية ، الخطرة ، القاضية على النبالة ، الخانقة عواطف الاحترام لكل شيء شريف . انتم في عمر وَجبَ عليكم ان تشرعوا فيه بتسيير قطار حياتكم ، فسيّروه الى قمة الشرف ، سيّروه الى الخير ، كونوا جديرين بمن تقدّمكم على هذه المقاعد ، وهم الآن في باريس يؤلفون جماعةً جميلةً من الدارسين الكاثوليك ، ويعودون الينا عمّا قليل محامين واطباء ، تجّاراً ومهندسين ، مزارعين فنيّين بارعين ليخدموا وطنهم المحبوب بكل ما أوتوا من قوة . أما انتم أفلستم بخائضين ميدان الحياةِ اظهاراً لما انتم عليه من طول باع وقدرة ؟

ما كان تأثير كلام پول في قلوب تلاميذه ؟ أيّة حميّة هاجت في صدورهم ؟ واية عواطف اختلجت في قلوبهم ؟ ما الاحلام الجميلة الفتانة التي انبعثت من بين سطور كورنايل الشاعر القديم ؟ ؟

دقّت الساعة الرابعة وقرع الجرس فخرج التلاميذ صفوفاً وساروا في مماشي المدرسة حتى انتهوا الى الملعب . وهناك راحوا ينحنون الواحد تلو الآخر امام سلّةٍ قصبيّة ليأخذوا منها قطعةً من الخبز صغيرة يأكلونها متنزّهين ! وخرج النظّار الكهنة ينظمون

الالعاب والمعلمون الاكليريكيون يتحادثون متأبطين كتبهم مع زملائهم العوام والكرة الهوائية تضرب الارض وتعلو في الجو وتسقط على جماعات التلاميذ الفرحين ، وكان منظرهم بصخبهم وحميتهم ووجوههم الجميلة يحمل اضجر الناس واشرسهم على المجاهرة : بان النشء الفرنسي جميل فتان !!!

وفي تلك الغضون ، كان في زاوية الملعب المسقوف بعض طلبة الصف الثاني وقوفاً وامارات التأثير والحماسة بادية عليهم يتبادلون الاحاديث ويكاشفون بعضهم بعضاً بمقاصدهم

— قال سارته وهو اصغرهم سناً : « يا رفاق الا تشعرون مثلي بالتأثير الغريب الذي يمكن المعلم ان يطبعه في نفوس الشبيبة؟ قال لي يوماً معلمنا پول ڤيولي : ارى انك ستكون في مستقبلك معلماً ، وفي هذا المساء تحققت انه لم يكن مخطئاً فانا اريد ان ادرس مثله لافعل فعله في العقول والقلوب ، فسأدخل دار المعلمين »

— قال جان دي ماليسه متحمساً : « اما انا فسأدخل مدرسة سان سير العسكرية فاني قد عزمت على ان اخدم فرنسة . أو ليس الاستعداد للموت محاماةً عنها ، في سبيل اعلاء شأنها ، افضل خدمةٍ نخدمها اياها ؟ »

اجاب لاموت : « انا لست نسراً لاحلق في الاعالي ، وذلك لا يمنعني من ان اكون مفيداً لوطني . انا غني ولست بحاجةٍ الى العمل لاكسب قوتي ، فقد عاهدت النفس على دراسة الطبّ وسأذهب الى ارضي الواسعة في الجبل فأعنى بها واطبب فقراء الجوار مجاناً . »

فصرخ الجميع : « ليحيَ لاموت ساكن القصور ! »

— وانت يا ريشيار ؟ انت يا ميرامون ؟ الى اي الشواطىء تقلعان ؟ ؟

كان ريشيار وميرامون تلميذين خارجيين وصديقين لا يفترقان ، وكانا ساعتئذٍ متجهين نحو الباب تحني جسميهما اثقال الكتب والدفاتر . فالتفت ميرامون ورفع قبعته الجميلة وأجاب مبتسماً : « اين نذهب ؟ آه! يا للسؤال العجيب ! الى السوق ! يا رفاق! الى السوق ! »

قال هذا وتواريا وراء غرفة البواب . وما لبثت الابتسامة ان فارقت شفتي ميرامون وعاد الى رزانته وتفكيره ، ثم قال : ليس السوق جميلاً يا ريشيار !

وقد دخلا سوقاً بناياتها حقيرة وجدرانها مشققة وفي سقوفها نبت العشب وعليها تبدو علامات الفاقة والرذيلة . كان الهواء في تلك الساعة لطيفاً ، وفي ثقوب بلاط السوق كانت تلمع هنا وهناك بعضُ نقط من المياه ، وفي وسطها مجرى ماء يلعب فيه اولادٌ قذرون ، نصفُ عراةٍ ، وفي الجوّ اعمدةٌ من دخان تتلوى كالحيّات تقذفها مداخن المعامل العالية

كان الصديقان يمشيان جنباً الى جنب ، قاصدين الى المدينة . وكانا من حيث ظاهرهما يختلفان اختلافاً بيّناً . فلوسيان ريشيار ، وان اكبر عمراً من رفيقه هنري ميرامون ، كان يلوح بلباسه القصير وجسمه الضخم وساقيه العاريتين كولدٍ لا يرجى نموّه ، بينما كان هنري ميرامون آخذاً في النموّ وقد زاد رفيقه في الاشهر الثلاثة الاخيرة عدة سنتيمترات طولاً ، فظهر شاباً بطول قامته النحيفة

وثوبه القاتم ولاسيما بملامح الرجولة البادية في عينيه السوداوين الحادتين الساحرتين المنيرتين وجهه الجميل ذا اللون الاصفر الذهبي ! !

مشيا بعض دقائق ، صامتين ، ثم قال لوسيان : « كاشفنا الرفاق عما سيعملون في حياتهم ... ونحن ، يا هنري ، نحن ... ؟ »

فاجاب الفتى مبرامون بصوت خافت : « نحن ! نحن ! لم نطلعهم على ما نصبو اليه ! فغرضنا يسمو ما يطمحون اليه . هدفنا جميل جداً ، يا لوسيان . ما نحن الا ولدان ضعيفان خاطئان ، ومع ذلك فقد اختارنا الله له كاهنين »

فتنهد لوسيان وقال : « هدفنا جميل سام ولكني اخاف ... » ونظر الى حركة تعجب بدرت من صديقه ثم استطرد : « ولكني اخاف لاني اضعف من ان أثق بنفسي ثقتك بنفسك ، واعجز من ان يكون لي حماسة تشبه حماستك ، وما كنت لاجرؤ على التفكير بهذه الدعوة المقدسة والطموح اليها لو لم تكن قد اشركتني بروحك وامددتني بشيء من حميتك . انا اعرف الناس بنفسي ، يا هنري ، انا متوسط الذكاء . لم يعطني الله أن اعيش عيشة هادئة ، واتعاطى اشغال بيتي وادير املاكي واكثر وارداتي ومن ثم اتزوج ابنة غنية أطبق لميولي وأوفق لاخلاقي ، وهكذا لا اعرض بنفسي للمخاطر ، ولا يمضي عليّ سنوات حتى اصبح ملاكاً غنياً استحيط في اموري وراحتي ومحبة ذاتي . »

— وانك لتذم لنفسك ، يا لوسيان ! »

— اؤكد لك ، يا عزيزي ، ان الصواب ما قدمت ، وان

معرفتي هذه لنفسي وميولي ترعجني ولا أطيق حملها . بحثت كثيراً لاجد وسيلةً فضلى تعينني على مقاومة أميالي ففهمت ، وانا احدثك ، أنَّ خيرَ الوسائل ان اكرّس ذاتي لربّي وللنفوس . أُمي ، يا هنري ، قديسة ، لقد عرفت ان تتدارك امري وتُعنى بي فحفظت لي ايماناً حيّاً لم يلامسه ريب ولا شكٌّ . فوطّنت النفس على ان اخصّها بربي . فبينا تذهب انت الى ربك فرحاً تحملك رغبتك وحماستك ، اذهب ، انا ، اليه ، واحسرتاه ! خاضعاً لاحكام عقلي الباردة !

— أهذا كل ما يدعوك الى الخوف ؟

— اخاف ان اجبن ، يا هنري ، ليلة دخولي المدرسة الاكليريكية . انت وحدك عارف هذا ؟ لاني لم اسرّ به الى غيرك !

— أوَ لم تُعلم به امّك ؟

— كلّا ! او قل : قد افضيت اليها بسرّي ولكن تلميحاً وبكلام جدّ مبهم . . . وكان ذلك عشيّة احد ايّام الصوم بعدان حضرنا معاً عظة الكاتدرائية . قلت لها فوراً : ما تقولين ، يا امي ، لو صرت يوماً كاهناً ؟

— ما كان جوابها ؟

— تبسّمت لسؤالي وعدّته صبيانيّاً ثم قالت ، وقد ادركتُ عاطفتها المستورة تحت حجاب مزاحها : « ارى انك ستكون انقص جمالاً بثوب كاهن منك بثوب ضابط ! » ومع ذلك اعرف اني لا ازال احبّها وربّما زاد حبي لها عن ذي قبل لان محبتي ازدانت بعاطفة جديدة حلوة على قلب الامّ المسيحية ، عاطفة الاحترام !

– انها من خيرة النساء وفضليات الامهات ، يا لوسيان !

– ما كان افطنها ! فانها انقطعت عن ذكر هذا الموضوع الذي كانت تحسب له ولا شك الف حساب ! واني لعلى يقين من انها فعلت هذا خوفاً من ان اعرف ميلها ورغبةً منها في ان يتمّ الامر بين الله وبيني . على انه اي سهرٍ لم اشعر به في كل ساعة ! واية كتب جميلة مفيدة لم نقرأها معاً كل مساء ، وقد انتهيت من فروضي المدرسية : انت اعرف الناس بالطرق التي سلكتها لانجاحي في دروسي وتنبيه عقلي واحرازي الفوز على كسلي شيئاً فشيئاً . ونحن نعيش اليوم متفاهمين متحابّين اكثر من امس فما قبل ! لقد سمعت الولد مراتٍ ان الذي لم يعرف اباه ينقصه شيء في حياته ، اما انا فاني لم اشعر يوماً بكوني يتيماً ؟ لان امّي ، على حنانها ، قد جهدت نفسها في ان تقوم مقام ابي المتوفّى في قسوتها علي ، فافلحت !

– وكيف تجرؤ على ان لا تبوح لها بسرّك ؟ ! ألا يدور في خلدك ان تطير اليها وترتمي بين ذراعيها وتطلعها على رجائك ، وعلى شهامتك ؟ اي مجدٍ واية عظمة لمن دعاه الله اليه ! ألا تشعر مثلي ، يا لوسيان ، بان حياتنا كلها هناك ، وان طريقنا لصريحة بيّنة ؟

كان يقول هذا ويذهب برفيقه في طرقٍ بعيدة تقودهما الى البرّية لا الى المدينة

– تعالَ معي ولا ندخلنّ المدينة الآن ، فاني آنسُ من نفسي الحاجة الى محادثتك عما يتعب قلبي ويثقله !

لا بيوت حيث بلغا ، بل قامت على جانبي الطريق اسوار البساتين تتساقط من فوقها اوراق الاشجار كلما حرّكها الهواء

وتتدلى فروع الياسمين وعناقيد الازدرخت والاكاسيا الفواحة الاريج . وقفا ، واذا بالمدينة كلها ، تنتصب امامهما على سفوح القمم . وكان يعلو سطوحها غمامٌ كثيف من الدخان والغبار يضرب الى الزرقة ولا ينفذه سوى قبب الكنائس تناطح رؤوسها القبة الزرقاء .

قال هنري ميرامون : « هذه مدينتنا ! مدينتنا ! فيها عاش اجدادنا ، فيها تعبوا وتألموا ، مدينتنا ستصير يوماً حقلاً واسعاً لرسالتنا ! مدينتنا ربما سنجعلها باتعابنا وتضحياتنا اكثر جمالاً واوفر تعزية ! يقشعرّ بدني يا لوسيان عندما افتكر بان في هذه المنازل المتراصة ، تحت الغمام ، الوفاً من الناس يعيشون في الجهل ، بعيدين عن الحقيقة ، يتألمون ولا يتوقعون اجراً عن آلامهم في الحياة الابدية حتى ولا يسمعون كلمةً تعزيهم في هذه الدنيا

هاك ، يا لوسيان ، هدفنا وارض فتوحاتنا المستقبلة ! الا تشعر بانّ هؤلاء القوم سيكونون يوماً لنا ؟ ان الله سيهبنا نفوسهم مع القدرة على تنويرهم وخلاصهم ليكافئ تضحية شبابنا . ما هي لذّات الحياة ؟ ما هي افراحها ؟ ما هي عظمةُ السلطة اذا قوبلت بهذا الشرف الباذخ ؟ ! !

انما غرضنا ان نكون جنود المسيح البواسل ، رجالاً تريدنا البشرية المتألمة في قربها لتضمّد جراحها وتسكّن اوجاعها ونكون صلةً بينها وبين السماء .

كانت بلابلُ البساتين حولهما ترسل نغماتها الرخيمة ، نغماتها الشجيّة ، نغماتها الساحرة ، نغماتها المحزنة اللطيفة ، وهنري ولوسيان

يتماشيان متحاذيين وقلباهما ملتهبان، ينظران الى المدينة ويتأملان الحياة ... يشغل عقليهما موضوع واحد، ويلهب قلبيهما شوق واحدٌ من اشواق الشباب من شأنه ان يدور حول العالم دفعةً واحدةً ويحرقه كله بنار المحبة!

٢

كان في قلب المدرسة جماعةٌ من الطبقة الراقية ينتظرون الشروع في الرياح، وكان اهل التلاميذ وبعضُ قدماء الطلبة، اصدقاء المدرسة امس واليوم، يتمشون تحت اشجار البلوط والكستناء في ساحةٍ نُصب فيها مذبحٌ كبير ومُدَّ فوقه قماش احمر موشّى بالذهب، وجاء الخدم يضيئون عليه شموعاً كثيرة، وكانت الوان البيارق والاعلام تلمع من هنا وهناك تحت اقواس النصر الخضراء، وبعض الصغار الوسيمي الوجوه يركضون، وعلى رؤوسهم شعورٌ مستعارة وفي ظهورهم اجنحة زرقاء، ليأخذ كل محلّه، غيرَ مكترثين للرصانة المطلوبة منهم وهم ملائكة الحفلة، وكنت تسمع في مؤخر الملعب صوت مدير الحركة يلقي الاوامر

وماهي هنيهة حتى دخل مدعوون جدد فتهامس الناس: «السيد ميرامون، والسيدة عقيلته وابنتها»!

— ميرامون المحامي؟

— هو هو. رجل ذو منزلة ومن عيون رجالات الكاثوليك في المدينة، وقد كانت له اليد الطولى في ارجاع المدرسة، فهو صديقها الحميم. هاك مدير الدروس يقبل اليه ويصافحه!»

فأخذت عجوز نظارتيها المعلقتين بخيط الى وسطها ووضعتهما

على عينيها لتتبيّن المدعوّين ثم قالت: «ان عقيلة ميرامون لا تعرف قطان تتهندم وتتبرّج لان من كان في سمن جسمها وضخامته يضطر ان يعدل عن استعمال المساحيق ! امّا ابنتها فليس عليها من الجمال مسحة ، فهي كالزهرة في كمّها . » ثم حانت منها التفاتة فرأت سيدة ذات وجه صبيح ، لها شعر يحاكي لون الفضة . تقدّمت فصافحت عقيلة ميرامون فقالت وقد خفتَ صوتُها : « هاك سيدة لا سلطة للشيخوخة عليها ، هي عقيلة ريشيار ، عنوان اللطف والاناقة ، عليها ثياب سوداء تنمّ عن ذوق كامل . وانا متحيّرة كيف أنها لم تتزوّج ثانيةً وقد ترمّلت شابّةً ، رغم جمالها الجذّاب !

— رُزقت من رجلها ولداً فقنعت به وانكبّت على تربيته

انتحت عقيلة ريشيار مع صديقاتها من الملعب ابعد زاوية عن الناس . فقالت عقيلة ميرامون : « ان ابنتي لحزينة »

اجابت الابنة خجلةً : نعم وسبب حزني ، كما تعلمين يا سيدتي ، اني كنت وافقتك على حيلة تمكّننا من حمل بنات عمي مرجولي على حضور هذا الرياح البهج ! فلم اوفق ولا نجحت ارساليتي فجاهرنني بتبرّمهن بي . وقلن لي : « ان الحفلات الدينية لمزعجة وان اخي يضحكهن بارتدائه ثياب اولاد الخورس » وفضّلن الذهاب في السيارة الى سباق الخيل على المجيء معي

فتنهّدت عقيلة ميرامون وقالت : « ان هولاء البنات ليشغلن بالي . ماتت امّهن وهنّ صغيرات ولم يقوَ اخي ابوهنّ على ان يدرّبهن لانه لم يعرف من الحياة غير لذّاتها ولم يتقيّد بشريعة ولا حمل نفسه على امر حياته كلّها . الديانة تضجره لان اوامرها

رزينة فنشأت بناته على حبّ اللهو، وارسلهنّ يتخرّجن في المدارس العلمانية

فسألتها عقيلة ريشيار : اترينهنّ غالباً ؟

— لا ، فقد أخذت اتجنّبهن شيئاً فشيئاً، لاني لحظت ان ما كان لي ولابنتي مادلين من سطوة عليهن قد زال . واذا كنت لا استطيع ان اصنع اليهنّ وبهنّ الخير الذي اريد فلمَ اخالطهنّ وأصادقهنّ ؟ وقد وافقني زوجي على خطتي ، واننا نرغب كل الرغبة في ابعادهن عن اولادنا لئلا تفسد علينا عشرتهنّ تربيتنا لهم

— بالصواب تتصرّفين . فلقد سمعت الناس يصمون بنات اخيك الجميلات بخفّة الرأس !

— فلقد آثرن ان يعتنقن المبادئ العصريّة ويتبعن العادات المجونيّة ، وهن يجدن مادلين ابنتي الرصينة من عالم غير عالمهن . ومتى بلغ التباين في الآراء هذا المبلغ ، تعذّر التوفيق بينها !

فحدّقت عقيلة ريشيار الى الصبيّة وقالت : « كوني من العالم القديم ، كوني من عالم غير عالم بنات خالك ، يا عزيزتي . لو علمت ما يأخذ قلبك من البهجة ، وقد رأيت من نفسك الفتاة الحقيقية ، الفتاة البسيطة الحيية ، الفتاة التي كانت جداتنا يحلمن بها ، الفتاة التي تأبى تطرّف الرقص الاميركي وخلاعة الرقص الروسي ، الفتاة التي لا تطمح الا الى بقائها فرنسية ، اذن لفرحت برزانتك واغتبطت بحيائك !

ما انتهت السيدة من كلامها حتى قُرعت الاجراس تعلن خروج الموكب للزياح . وما عتم ان خرج حاملو البيارق والرايات فراحت

تلمع بين اغصان الاشجار، يتبعها اعضاء الجمعيات الرهبانية باثوابهم المختلفة الالوان . فكنت ترى على الرمل المفروش آثار اقدامهم وخطوطاً غريبة الهندسة ترسمها اطراف ثيابهم الصوفية الطويلة . وعلى المحامل تغطيها الاقمشة الشفافة ، كانت تلمع نقوش الذخائر والتماثيل المذهبة ، والحجارة الكريمة في قواعد الكاسات تحيط بها طاقات رمزية من الزنابق وسنابل القمح وغصون الكرمة . وهناك وراء صفوف الكهنة اللابسين القمصان البيضاء ، وفي وسط غيوم البخور ومطر اوراق الرياحين والورود كانت (الغفارة) ومن حولها حلل الكاهنين المساعدين الذهبية تلمع حمراء حول شعاع القربان الاقدس ، تحت المظلة الارجوانية تداعب اغصان الاشجار برياشها العالية

خفق قلبُ مادلين فأمسكت بذراع امها وقالت : انظريه ، يا أميمة ، فهو الثاني من الصف الايمن . هو هنري نفسه !

وكان هنري وفي كفيه قفازان ابيضان يسير على بضع خطوات من المظلة، وهو يرمي المبخرة رمياً متناسقاً متعادلاً ، يدل على لطفه ونشاطه . وكان شعره الاسود الاجعد بمثابة اكليل يحيط بوجهه الجميل الاصفر ، وقد طبعت عليه عظمة الموقف علامات المهابة والوقار، وكان في قميصه الاحمر ودرعه الابيض المزركش أشبه باولئك الصبية اللاويين الذين ما فتئ الفنانون الايطاليون يصورونهم مطرقين مفكرين !

فهامست عقيلة ريشيار صديقتها قالت :

ما أجمل ابنك ! يحق لك ان تباهي به . واني ارى

انه قد كبُر في هذه المدة الاخيرة . أتعلمين ان لوسيان خجولٌ ببقائه قصيراً ؟

أجابت عقيلة ميرامون ، وقد علت ثغرها ابتسامة الأمهات السعيدات : « ان ابنك سيطول بغتةً ، فلا تحسدي ابني على طوله فهو ضعيف البنية هزيلها . وهذا النموّ يتعبه ويقلقني . أما لوسيان فهو قوي العضلات، ممين الجسم، فانظري كتفَيه ! . . . »

مرّ لوسيان ريشيار في الصف بين جوق المرتلين فحانت منه التفاتة فرأى امّه فابتسم وحنى رأسه مسلّماً . فقالت عقيلة ريشيار وهي لا تزال ترافق ابنها بنظرها الدافق حناناً وعطفاً : يا لويز ، ان ابنك وابني كليهما جميلان

وزادت مادلين فقالت : وهما صديقان حميمان لا يفترقان ! هما « اوراست » و« پيلاد » جديدان

. . . .

انتهى الزياح وتفرق القوم مغتبطين بما رأوا وعاد اهل التلاميذ فملأوا الشارع الحزين روائح عطريّة والواناً تبعث الفرح في القلوب، فقال السيد ميرامون :

— سمعتكِ ، يا ابنتي ، تتكلمين عن « اوراست وپيلاد » . اشرحي الاحجيّة : فمن تسمين پيلاد ومن اوراست ؟

فتنبّه هنري وتحفّز للمدافعة . فقال :

« انهم يسخرون بنا . يا ابتِ ، اني استعين بكَ . اما انت ايتها السيدة ريشيار ، فساعديني . على ايّ شيء تؤاخذ ؟

— تؤاخذان على محبتكما المفرطة ، يا ولدي ، أما انا فلا

أرى في الامر شراً كبيراً . هذا ما تستطيعان ان تتقناه احسن اتقان في سنكما !

قالت هذا ومدّت يدها لتصافح السيّد ميرامون وعقيلته قبل ان تفارقهما وتأخذ الطريق المفضية الى بيتها القائم في وسط البستان وهي تسكنه منذ ترمّلها

— سنراك قريباً ، تعالَي غداً نصرف معاً بعد الظهر في النقر على المعزف والتوقيع على آلات الطرب والموسيقى مع مادلين

— سأجيء بكل سرور ، فالى الغد يا سيدتي

استأنفت عائلة ميرامون سيرها الى قلب المدينة ، وفيما كانت تجتاز شارع لامرتين ، اذا بسيّارة فخمة وقفت امامها بغتةً وقد تعالت من تحت سقفها المغطى بالغبار اصوات الهزء . وقد قال احدها :

آه ! تبًا لكم من متعبّدين قديسين ! هل صليتم لاجلنا ؟

وقال آخر : عِم صباحاً ، يا ابن الخورس !

وقال غيره : أتسمح لنا ، يا عمي العزيز بهنري ومادلين لننهي يومنا معهما مسرورين ؟

هو السيد مارجولي واولاده في رجوعهم من سباق الخيل

فتقدّم السيد ميرامون من ابن عمه الجالس مكان السائق وهزّ كتفه وقال : ما تريدون ان تفعلوا بولديّ ؟

اجاب مارجولي : لست ادري ، هذه فكرة « ليلى » ، ارى انهم يقصدون اللهو ، هذا المساء ، لقد دعا غاستون رفاقاً له : عزفٌ فرقصٌ فشربُ شاي . فادفع لهم هنري ومادلين . اما نحن الاهل فلسنا بمدعوين . والظاهر انهم راغبون عنا

قال السيد ميرامون : « ابشكم مزيد شكري . اما مادلين فلن تخرج الا مع امها ! كذلك هنري » . وما هو ان فاه بهذه الكلمات حتى لمح رأسين يبرزان من تحت سقف السيارة ، وشررُ الغضب يتطاير من أعينهما ، وقد صرخا بوجهه :

خذ ولديك ، خذهما ، يا اكره الاعمام !

— وانت يا عمة ، ما بالك لا تقولين شيئاً ؟ . . . أأنت ايضاً تحظرين الرقص ؟ !

— انني حانقة عليكنّ ، ما عشتُ ! !

فابتسم السيد مارجولي وهو يقول : ارأيتِ يا أختي ، انكما لم تنجوا من صواعق غضبهنّ ! قال هذا وحرّك مقودَ سيارته فانطلقت تعجّ بخالط عجيجها دمدمةُ بنات مارجولي وتذمرهنّ قائلات :

— يا للوالدَين القاسيَين الجلّادَين ! انكما يا ولدَي عمتنا لشهيدان بل لضحيتان للظلم . اننا لنرثي لكما ! !

اما الشهيدان الفتيان فراحا يضحكان حتى وصلا الى بيتهما في شارع غمبتا . ولما دخلا المائدة للعشاء نظر هنري فرأى على المائدة قرصاً من الحلوى شهيًّا للنظر طيّباً للمأكل ، فسال لعابه وقال :

« ان عذابك ، ايتها الآنسة الشريفة ، واستشهادك يقومان بان تموتي جوعاً وعطشاً امام هذا الكرز اللماع البراق وامام قطعة الشوكولاته هذه المحشوّة زبدةً شهيّة . »

جلست العيلة الى المائدة وراح الوالد يسكب الحساء ويقول : ان هولاء الاولاد واباهم يعميهم الطيش فآسف يا لويز ان يهيّ

اخوك لاولاده مستقبلاً مظلماً . ان ابنه غاستون ثمرة يابسة يعجب بنفسه وليس على شيء من الذكاء وحتى الآن لم يقوَ على نيل شهادة البكالوريا ، ويخيّل الى ابيه ان ذلك لا يمنعه من ان يصير تاجراً لا يُدرك له شأوٌ ، وفيما هو ينتظر الحصول على ما يبتغيه ، نراه في كل مكان الا في المعمل حيث اشغاله . ويلوح لي انْ ليس في امكانه الثبات في عمل ما ! فاي الاعمال اجادَ وايها افادَه ؟ اني لمتيقّنٌ من انه لم يُجد عملاً ولم يستفد من عمل !

اجتهدت عقيلة ميرامون في ان تحامي عن ابن اخيها فراح زوجها يطعن في البنات وما انفكّ حتى انتهى العشاء . فقام وهو يتكلم عن « ألفراده » تلك التي تتبجّح بكونها لا تحتاج الى احدٍ في اختيار عريس . وما هو ان انتهى من «الفراده» حتى أخذ يعرّض بليلى ، الابنة الطائشة ، المماحكة ، المعتدة بنفسها التي تحكم وتقطع في اقوالها بتلك الرزانة التي اكتسبتها من مدرستها العلمانيّة حيث تخرّجت ، وهي تزعم انها تعرف كل شيء . وهي جاهلة لما وجب عليها ان تعرف

فعارضت مادلين اباها بلطفها المعروف قالت : « ارجومنك يا ابتِ ان لا تنقم على ليلى لتلفّظها ببعض كلماتٍ شاذّة ، فهي فرحة ، نشيطة ، ذكيّة ، وهي حلوة العشرة ، محبوبة

— اني لا اجهل هذا يا بُنية ؟ فخالك واولاده كلهم لطفاء العشرة ، الا انهم يعيشون كمن لا ايمان له ولا شريعة . فاية ثقةٍ نثق بهم . قابليهم بالعيال الغنية في مقاطعتنا ، بعيالها العريقة في الشرف ، العيال التي رأيناها اليوم ، في الزياح . الى هناك جاء شبان وفتيات يحبون اللهو والمرح ، ومع ذلك فضّلوا حرمان انفسهم

من مشهد سباق الخيل ليأتوا فيقوموا بالواجب . هؤلاء هم الاقوياء ، هؤلاء هم الأُولى لا يزالون يقدرون حق التقدير الحشمة والاحترام للمبادئ الشريفة القويمة ، التي شرّفت اجدادنا وجعلتهم رجالاً . ومن بين هؤلاء الشبان سأختار زوجاً لمادلين عندما يحينُ وقتُ زواجها . وعندي ان الزوج الكاثوليكي الصادق الذي يعرف ان يكلّف نفسه المشقّات ليقوم بواجبات دينه لهو مكلّفٌ نفسه المشقّات حتماً اسعاداً لذويه . فان كان لك مثلُ هذا الزوج ، يا ابنتي ، كنتِ على يقينٍ من راحتك وسعادتك !

امّا انت ، يا هنري ، فيسرّني ان اعتقد بانك ستحافظ على تقاليدنا ومعتقداتنا ، ولهذا وضعتك في مدرسة حرّة تتخرّج فيها ، ليكون لك هدفٌ أعلى تصوّب اليه كل رغباتك واشواقك واعمالك ، هدفٌ أعلى كان مطمحي ومطمحَ جدّك . ولمّا كنت ولداً ذكيًا ، محبًا للدرس ، فكل طرق الحياة مفتوحة امامك ، على ان لي وصية اودعك اياها وهي ان لا تهجر صفوفنا وتترك المبادئ التي حامى عنها ذووك طمعاً في الوصول الى ما تبتغي من الحياة

وقف هنري والاصفرار يعلو محيّاه وقال : يا أبي . . . وأمي . . . قويّا يقينكما بي فلست ممن يعروه اقل ريب بالديانة الكاثوليكية ، بل انا من يذود عن حياضها بكل قواي وكل نبضةٍ من نبضات قلبي . وكان صوته يتقطّع وعيناه السوداوان الجميلتان تذرفان الدموع حرّى . ثم عطف قائلاً :

« انكما تحثانني على صيانة وديعة الايمان ، فانا راغب في ان أحافظ عليها في قلبي وان انميها في غيري . ولمَ لا أُسرّ اليكما ، هذا

المساء بسرّ طالما طويته عنكما منذ سنين وهو ما في قلبي من رغبة حارّة في أن اكون ذات يوم كاهناً للسيّد المسيح ! »

فانتفضت اخته مادلين دهشاً وصاحت بعاطفة احترام :

أكاهناً ستكون انت يا اخي ! ؟

وباسرع من لمح البصر تجلّى لها اخوها هنري في قميص وشّته يدُها يتلألأ على مذبح تزيّنه الورودُ والزنابقُ محتفلاً بقدّاسه الاول

وصُعقت الامّ وصاحت مذهولة : « انت يا ابني ، انت يا هنري استصير كاهناً ؟ ! »

وأسقط في يد الوالد فوجم وبانت على وجهه علاماتُ التناقض . فهو يريد ان يكون ابنه رجلاً شريفاً ، مسيحياً حقيقياً ، ولكن لم يدُر في خلده قط انه يريد ان يصير كاهناً وهو لم يُعنَ بتعليمه تلك العناية المثلى حتى يراه ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، دافناً نفسه في مدرسة اكليريكية . فاغتاظ ولكنه كظم غيظه وقال بصوتٍ هادىء :

« رغبتك في ان تكون كاهناً رغبةٌ شريفةٌ يا بني ، ولقد سبقك اليها كل الشباب المهذّب التقي . لكنها لم تلبث ان طفئت فيهم وخمدت »

اجاب هنري متحمّساً :

« ليس ما افضيت به اليك يا أبي رغبةٌ صبيانية وليدة الحماسة الوقتية ، بل هو امر طالما تأملته منذ شهور وقتلته درساً وتمحيصاً . ولقد عرفت ما تتطلب مني الحالة الاكليريكية من تضحيات ولم يفتني انني واجدٌ في التضحية الحرّة سعادةً لا ادرك كنهها ، ولكني

عطش اليها . ان الله يدعوني يا ابتِ ، واني لسامع صوته وسأليبه لا محالة . »

بيدَ ان السيد ميرامون أسكت الشاب المتحمس باشارةٍ قال : ان كان الله يدعوك ، فتيقّن انني لا امنعك ولا أقاومك . لقد سمعت كثيرين غيرَك يؤكدون دعوتهم ومقاصدهم ، ولم تمضِ سنوات ثلاث حتى عضّوا الانامل ندماً . امّا انا فقد شئتُ ان اكفيك سوء انقلابهم وشكّهم وأسفهم . ثق بابيك انه ان يأتي عملًا الا لخيرك . فاليك اوامري :

لا تكلّمني بعد ولا تكلّم احداً منّا عن ارتياحك الى الدعوة الكهنوتية . كمّل الآن دروسك ، وبعد نيلك شهادة البكالورية تشرع في درس الحقوق ، فاذا ما بلغتَ الحادية والعشرين من عمرك وأتيت تستأذنني في دخول المدرسة الاكليريكية ، فلن ابدي لك اي مقاومة بل ادعكَ وشأنكَ . لكني من الآن الى ذلك الزمان سأوصد أذنيَ عن كل ما يصدر عن قلب ولدٍ مثلك لم ينضج بعد

قال هذا وقد تجلّت في عينيه وعلى وجهه علامات القوة والسلطة التي تريد ان تُسمع فتطاع

فتقدّم هنري من ابيه وتوسل اليه قائلًا : « لا اريد ان ادخل المدرسة الاكليريكية عند بلوغي الحادية والعشرين ، بل بعد ان انجح في فحص البكالورية . »

اجاب الوالد آمراً : « أمّا ما قلتُ فلا مردّ له . فواجبي يقضي عليَّ ان أُبعدك عن مهاوي الشباب واحذّرك من ثورات قلبك . اما واجبك انت ، ولا اعرف أنَّ عليك واجباً غيره ، فان تطيعني »

واستطرد متظاهراً بالسكون : « لقد طال حديثنا ترافقه

الانفعالات المزعجة . فالى غرفتك يا بُني ، وعُد الى ما قلت لك وانت هادئ مستكن ، فترى أينا العاقل . ان احسن الدعوات وأثبتها ما كان اشبعُها درساً وتمحيصاً .»

نهض هنري فانحنى على صدر امه يقبلها قبلة المساء. فطوقته بذراعيها وضمته الى صدرها ضمة شوقٍ وقالت :

« اذن لقد سئمت مساكنتنا يا ولدي ؟ ألم تعد تحبنا يا هنري فهممتَ بهجرنا ، لتصير كاهناً ؟ أفي عزمكِ اذن ان تسومنا هذا العذاب الاليم ! ؟»

اجاب هنري وهو يحاول الافلات من ذراعي امه : « بل اردتُ ان اقلّدكما هذا الشرف الوسيم، ولكننا لم نهتدِ الى التفاهم! . . .»

وخرج فتبعته اخته مادلين يدفعها حبها لاخيها . خرجت تهوّن عليه وتعزّيه . اما امه فدنت من زوجها وقالت : «انني لمضطربة . وما كنت لاتوقع هذه اللطمة !»

— فكرة صبيانية !

— لم يعد هنري ولداً . وما هو بخفيف الرأس كسائر أترابه . لقد أمعن الفكر في ما قال وليس بحائد عن قصده ! !

— اتظنين والحالة هذه انه يدخل الدير بهذا العزم الفجائي ؟ هذا لن يكون ! ما جهلتُ الدعوة الاكليريكية ولا مقام الكاهن العالي، ورغم ذلك لستُ الآذن لوحيدي باعتناق الدعوة الكهنوتية . ابني هو فخرنا وكل رجائنا . ولقد تحلى بمواهب نادرة ، وسيكون في العالم غنياً . وحبّاله وتوفيراً لارثه وارث اخته حرمنانفوسنا الملاهي والنفقات الباهظة . فأرحناه من متاعب الحياة ومشاقها .

والمستقبل مبتسم له . أيعدل عن هذا كلّه ليذهب فيدفن نبوغه ونشاطه وشبابه في خورنية جبلية ؟ أتريدين ان يُسلخ عنا هذا الولد ؟ ؟

فاجهشت الام وقالت : كلّا ! . . . كلّا ! . . .

نهض السيد ميرامون وراح يتمشّى على سرعة في غرفتهِ . ثم انحبس فجأةً امام زوجته وقال : لقد أحطنا علماً بالخطر الذي دهمنا ، فعلينا ان نتدارك تخلّصاً منه . وعليه ارى ان نبعد هنري عن مقاصده شيئاً فشيئاً دون ان نضادّ افكاره مجابهةً

— لا اشك في صواب هذا الرأي ، ولكن ما الحيلة في بلوغه والعمل شاق ؟ !

— مَن اراد غايةً تذرّع بالوسائل المبلغة اليها : ألسنا لخيره نسعى ؟ هنري ، يا لويز ، مشبع بالتعاليم المدرسية ومبادئها . فعلينا ان نغرس في رأسه افكاراً وفي قلبه رغباتٍ تضادّها كأن نلقي بين يديه بعض كتبٍ تحبّب الى قلبه لذّات الحياة وافراحها الشريفة ، ونعرّفه ببعض شبان العصر ، ونقوده الى نزهات مغرية . فلعلّنا جانون عليه بعيشتنا البعيدة عن افراح العالم ولهو الحياة

صمت الوالد وأطرقت الام ، وكلاهما غارق في بحور افكاره يبحث عن طريقة جديدة يستعين بها على تقويم ما رآه معوجاً . وبينما كانا يجهدان النفس في استنباط وسيلةٍ ناجعة للوصول الى ما يقصدان ، كان الولد في غرفة مجاورة لغرفتهما يضطرم حامئاً جياشاً ربه ، كاشفاً له عن مقاصده مظهراً له أسفه . وقد فتح نافذة الغرفة وركع تجاه السماء المرصّعة بالنجوم اشعاراً بانه قرب اللامحدود الازلي

اتراه عارفاً بالمؤامرات تُحاك عليه في الظلمة افساداً لخطّته ؟ ام شاعراً بالصعوبات تعترضه وبالموانع تعرقل سيره ؟ فاخذ يقول في نفسه : « صَعْبٌ عليَّ يا رب الانتظار ستّ سنوات ! اخاف ان أجبن فاخونك فاجحدك . ما انا الّا ولدٌ هزيل ، ضعيف . خذني ، يا رب ، فقيّدني بخدمتك . انت عالم اني عازمٌ على ان اكون لك كيف تقلّبت الاحوال ! . . . هذا قلبي . ألم اخصّه كلّه بك ؟ ألستُ بصادقٍ في تمليكك اياه ؟ أيستطيع هذا القلب ان يتقيّد بغيرك وانا شاعر بانك مالكه في هذا المساء ؟ أيستطيع ان ينساك ؟ لن تريد هذا يا ربّ لن تريد . لسوف تُخضي لك بجملتي »

بكى هنري بكاء مرًّا وهو يتلو صلاته تحت السماء الصافية الاديم المشعشعة النجوم . من لا يرأف به وقد رآه فتيًّا ضعيفاً جذّاباً يصبو الى هدفٍ أعلى يصعب الوصول اليه ، ان لم نقل يستحيل ؟ انه لمندفعٌ اليه بكل قلبه ولكنه شاعر بضعف . مَن يأبى ان يسعفه على اجتياز تلك الطريق الخطرة ، تلك الطريق التي تبلّغه الجبل المقدس ، ساترًا على شفى الهاوية ؟

هناك ابوه وامّه . هل يعضدانه ؟

٣

كان لعيلة ميرامون ارض واسعة تسمّى « ساپينات » ، تبعد عن المدينة ثلاثة فراسخ فكانوا يأتونها ، كلَّ سنة بعد حفلة توزيع الجوائز فيقيمون في منزل لهم فيها . غير ان ملاهي السنين الماضية قد أُمحيت في هذا العام من بَيان العطلة ، اذ انقضى ذلك العهد الرغد ، حيث كان هنري ومادلين يلعبان طليقين في البستان ، ويضربان

في الجبل يرافقهما ابوهما، يجمعان الحصى والفراش، ويغسلان كلابهما ويُعنيان بزهورهما ونحلهما، ويصوّران ما طاب لهما، وعند الاصيل يأتيان بركةً بنيت لهما ليغتسلا فيها ويتداعبا . وسبب تلك الوحشة علّته عقيلة ميرامون بأنّ مادلين ناهزت التاسعة عشرة من عمرها، فاهتمّ ابواها باظهارها، فشُغلا عن تلك الملاهي بالزيارات وأقاما ملعباً للتنس، ودعوا عيلة مارجولي اسابيع متواليـة لتجعل من منزل الساپينات مسكناً عصريًا

ومن ثم انحصر ما كانوا يفعلونه هنـاك في الاكل والنزهـة والالعاب الرياضية وتلقي الزيارات وردّها . وقـد اقترحت بنات مارجولي اقتراحاً اصاب نجاحاً عجيباً عند العاطلين في تلك الاصقاع، وهو ان يُقام مهرجان في البرّية تكون الطبيعة مسرحاً له، يرقص فيه الشبان والفتيات ويتغازلون . فأبت مادلين الحيّة ان تمثل في ذلك المهرجان دورًا، فقابلتها بنات خالها باحتجاج وقلنَ :

اننا في حاجة الى ممثلةٍ سليمة النيّة فلا غنى لنا عنكِ . فمن لنا بفتاة تمثل دور غنامة بيضاء السريرة ذات عينين زرقاوين كعينيك وخدّين ناعمين كخدّيك وشعر براق كشعرك ؟ ان شعرك، وايمُ الحقّ، لفتّان يا مادلين . ولكنك لم تحسني صقله مرّةً . فغـداً نصقله لك ونجعّده، فتنكشف طلعتك عن جمال خلّاب

اما مادلين الخجولة، التي لم تعر قط جمالها انتباهاً من قبل ولم تنظر الى مرآة ولا فـكّرت في تبرّج، فقد انبعث في نفسها امر جديد . فرغبت في تحسين وجهها وهندام قدّها، ولم تلبث ان تعلّمت صقل الشعر وتجعيده ورضيت بدور الراعية، وحملت نفسها على استئصال

ما كان يقنع جمالها من أذيال الصبوة في جلستها ومشيتها وكلامها وسائر احوالها

كان ميعاد المهرجان في اليوم التالي ، فأتت امرأة ريشيار مع ابنها في القطار بعد الظهر . فلما شاهد هنري لوسيان ، مال به عن الانظار الى ابعد ناحيةٍ من البستان ، فافضى اليه بما يجول في خاطره . قال : « يا صديقي ، اني اقضي عطلةً حافلةً بالمشاغل والهموم . وثق ان ليس من المفرح ان يكون لك اختٌ بلغت سنَّ الزواج . نحن اليوم في العاشر من آب ، ولم افعل قط شيئاً ولا قمت بفرضٍ واحدٍ ، ولا أتيتُ امراً ذا بال خلا أني قرأت بعض الروايات . وكنت معتقداً حتى الآن انها تافهة ، فرأيت بعد قراءتي « دوده وبازان وليكتنبارجه » ، انني واهم . أقرأت كتاب « صديقي الصغير تروت » ؟ ان أمي واختي مادلين يبلغ ولعهما به مبلغ الجنون ! كل هذا عندي سواء . كل هذا حلوٌ ولكنه قشور إني لتمتني الحاجة الى مرآك يا صديقي المحبوب ومرشدي الحكيم . »

وانه لفي الحديث اذا بالبنات يخففنَ اليهما زمرةً فرحات ، فتأوه هنري قائلاً : هؤلاء اختي وبنات خالي لا يُرحنَني دقيقة !

وصلنَ اليه واخذنَ يوبخنه غاضبات ، قائلاتٍ : نجوت ! ! انسيت اننا عازمات على مراجعة الادوار مراجعة عامة ؟ لست بحافظٍ دورك ، واننا لنراهنك !

قال له لوسيان : ألك في الرواية دورٌ ؟

اجاب هنري شبه مستهزئٍ : انا فيها راعٍ ازمر !

فقالت الفرادة كبيرة بنات مارجولي : ذلك لان هيئته توافق

الدور . ألا ترى يا لوسيان ، ان هنري يزداد كل يوم جمالاً حتى اصبح ادونيس بقعتنا ؟ قالت هـذا وضربت بقفا يدها قبعة ابن عمتها، فتدحرجت على العشب واتزلت يدَيها في شعره الاسود وأمالت الى الحاضرين وجهه اللطيف، وقد سفعته الشمس والسموم، فادهشتهم هذه المفاجأة ، فنفر هنري وصاح : اليـكِ عني ! وحاول الافلات فأفلت بعد جهدٍ . فقهقهت الفرادة وتقدّمت اختها ليلى ذات الجمال الفذّ وقالت مستهزئةً : لا تمتيه يا الفرادة ، لقد ذوّبته حياء ! آه يا للولد المسكين ! لقد حظر عليه مرشده ان يأذن للفتيات برفع قبعته . قم ايها الحبيب ، فلُمّ قبعتك وأعطِ يدك ابنة خالك العاقلة ليلى لئلا تسقط في الطريق ، وهيّا بنا الى تمثيل الرواية

كثر اللغط والصياح في التمثيل على هنري لما ظهر من غضبه وتقطيبه وتمتمته . فصاحت بـه الفراده آمرةً : « لعموي لن نرضى بهذا » . وكانت تروح وتجيء امام المسرح وقبعتُها في قفا رأسها على شعرها المعقوص المجعّد ونظارتها ذات الزجاجة الواحدة على انفها ، وكتاب الرواية في يدها ، تنصح لهذا وتؤنب تلك وتأمر ذاك ، وفي ملامحها رزانة ابنة العشرين النائلة شهادة الدروس الثانوية ، والتي تفكر في الاستعداد لشهادة الآداب العالية

وكان حاضرًا التمرُّن على التمثيل صديق لبنات مـارجولي اسمه شارتير ، وكان عازباً طاعناً في السنّ يدّعي انتقاد الفنون ، وما كان الا بليدًا اجهل الجهال لفنّ الانتقـاد . فقال مداعباً لحيتـه الشقراء وقد وخطها الشيب : « بالصواب نطقت الآنسة الفرادة . تمثيلك يا فتى لا يرضي . ان ما تقول اكثره من نوع الغزل وانت

تتلوه في جمود . ويحك ! من اراد ان يتشبب بفتاة جميلة فلا يقف منها موقف تلميذ يتلو امثولته ! »

فصرخت ليلى وقد تقمصت بشكل جنية الربيع : « عاش ذو اللحية الشقراء ، فهو يحامي عني فما اطيب كلامه ! راجع الفقرة ، يا هنري ، واعتنِ بان تجيد تمثيلها ، والا حنقت عليك »

فهاج هائج هنري وضرب الارض بشبابته وقال : « ان كنت لا ارضيكنَّ فأبدلنني . العابكنَّ تقتلني ضجراً ؟ » قال هذا وترك المسرح الى زاوية منه غطّتها الاغصان المقطوعة فتبعته ابنة خاله . ودنت منه وقد انكمش جبينها الوضّاح وبرقت عيناها غضباً وصاحت :

« أفي نيتك ان تفسد علينا عملنا وتعكّر صفاءنا وتحرمنا المهرجان الذي هيأنا ؟ الآن عرفتك . كان الاخلق بنا ان نلهيك باطارٍ تدحرجه او خذروفٍ تديره من ان نعطيك دوراً تمثّله . فذلك آلف لطبعك بل انك لأعجز عن اللهو بغير هذه الالعاب الصبيانية »

فامتقع وجه هنري ونظر الى جنية الربيع المسدولة الشعر ، العارية العنق والذراعين ، وقد اكسبها ظل الاغصان الواقع على حليها اللماع وثيابها البيضاء جمالاً فتاناً ، وقال : « انا ؟ أطفلٌ انا ؟ لا لست طفلاً بعدُ ! ! »

فاجابت وقد أدارت رأسها الى الوراء ادارةً تشعر بالسلطان : « لا ما أنت الا طفل ! طفلٌ قلت ولا ازال . ما انت الا صبيٌّ . اتريد حجةً على ذلك ؟ دورك الذي لم تحفظه ولا اتقنت تمثيله ولا فهمته هو الحجة ! »

فاضطرب هنري واعترض بقوله : «لو اردت لمثّلت أحسن تمثيل .» وقبل ان يستدرك ما في نيّته ان يقول ، قامت اليه واخذت تدفعه امامها حتى بلغت بـه قلب المسرح وصاحت ضاحكةً : « لقـد عرف الراعي خطيئته وعاد ليمثّل دوره حقّ تمثيل . »

ثم راحت تعيد اشعارَ دورها . فجلس هنري على العشب يزمّر مجارياً صوتها بمدّاته ، ونبراته ، وليّاته ، ناظراً اليهـا نظرة المعجب الولهان ، فاجاد وابدع فصاحت الفراده : « احسنت هـذه المرّة ! احسنت جد الاحسان ! »

فتحنّست ليلى وقالت : « انك لتستحق قبلةً مني . » وارتمت على عنق ابن خالهـا وطبعت على خـدّيه الملتهبتين قبلتين حارّتين تعالت على اثرهما اصوات الحاضرين فقال احدهم : « انها لاجرة تزيد مئة ضعفٍ عما يستحقه العمل . » وصاح آخر : « هنيئاً لك يا هنري ! » وهتف غيره : « ليتنا كنّا رعاة ننفخ في القصب ايها الاخوان . » اما هنري . فقد خجل وازداد احمراراً ازاء هذا المشهد

وبعد ان انهى تمثيل دوره ، انسلّ من بين المقاعد وحاول ان يخلو بنفسه فأوقفته امه بطرف مظلّتها واخذت تداعبه

— عشت ، يا بنيّ ، لقد تعلّمتَ ان ترضي البنـات . ارى ليلى تتودّد اليك كثيراً ! أمن زمن طويل تتغازلان وتتحابان ؟؟!

فأفلت هنري منها وابتعد . اما لوسيان فقد تشوّشت افكاره مما رأى وسمع فأخذ خنشارة وراح يلتف ورقها ورقـةً ورقةً وهو مطرق يفكّر

فانحنت عقيلة ريشيار على عقيلة ميرامون وقالت : « هل فكّرتِ

بما قلتِ لابنك يا لويز؟ أهكذا تبعثين فيه روح المغازلة؟» فارتبكت ام هنري ثم تكلّفت الابتسامة وقالت : «ما هو الا ولد لا يفقه من هذه الامور ما يذكر . أتظنين ان لكلامي تأثيراً في حياته ؟ ! »

وكانت ليلى ، في تلك الساعة ، تشنف الآذان بصوتها الرخيم والحانها البديعة . فأعجب بها شارتير ولم يتمالك ان جاهر قائلاً : « هي بلبل غريد ، اجل ان صوتها لا يزال دقيقاً نحيفاً ولكن لن يمضي عليها اربع سنوات او خمس حتى تبلغ شأواً بعيداً في عالم الموسيقى والغناء وستدرّ لها حنجرتها مالاً وافراً . ومن عاش ذكرته . »

اجاب غاستون مارجولي : «لا تكثر من اطرائها لئلا تشجّعها ، فانت أعلم الناس بخفّة رأس اختي وقلّة حيائها ، فلسوف تمسي ثقيلة الظل ، سيئة العشرة . »

— امّا انت يا من لا يهتم الا لارتياد الاندية وركوب السيّارات واتقان الملابس ، افلست اشدّ غباوةً منها ؟ ان اختك لجميلة يا حبيبي بل هي ذات جمال فتّان ومناقب عالية وذكاء ثاقب ولطف ساحر ! . . . سل الحضور فرداً فرداً فلا تجد احداً من يعيبها او يندّد بها

نعم ان هذا لعينُ الصواب ، لان ليلى كانت مالكة على الناس قلوبهم . وقد فتحت فتحاً مبيناً اذ حملت لوسيان ريشيار على الاعجاب بها

وفي الغد قبل الظهر صمّم الشبان والفتيات على ان يضربوا في الغابات المجاورة ركضاً على الاقدام ترويحاً للنفس

وكان غاستون على رأسهم والفرادة وشارتير يمشيان خلف الجميع متحدثين وحديثهما يدور على منشإ الديانة المسيحية، وكانت الكلمة للفرادة، فراحت تعارض تعليم القديس بولس بتعليم القديس بطرس وتستشهد باقوال بول وكتابات علماء مدرسة تيبناغ، وكان صاحب اللحية الشقراء «باربروس» يصغي اليها ضجراً جاهداً في اللحاق برفاقه الملتفين حول ليلى تحدثهم عن الحياة المدرسية ومقدرة التلاميذ على اختراع الحيل

فما كان من لوسيان تلميذ مدرسة اوزانام وغزالها الحيّي، الا ان انبرى يقصّ اخباراً فكاهية مضحكة كان يلاحظها في زملائه، وكانت ليلى تضحك من نكاته حتى الجنون. فزاده نجاحه حماسةً وبلاغةً، فراح يتفنن في تصوير الاشخاص والاشياء والمشاهد، وكان مَن حوله يضحكون ويقهقهون. وقد تمّ له النجاح منذ علقَ يلهج لهجةً بريطانية بيّنة، مقلّداً في ذلك استاذه الاب ليثانثون، مدرس اللغة الانكليزية، وهو يحث تلاميذه على ان يتطهّروا من جميع خطاياهم في مدة الصوم ولكنه لسوء نطقه بالفرنسية يلفظ كلمة الصوم carême كما تلفظ كلمة crême ومعناها زبدة

فضحكت ليلى حتى أعيت، ثم قالت ويداها على خاصرتيها: ان صديقك لمزّاح، يا هنري، اما انت فلست على شيء من ذلك. ما كنت الا تلميذاً مكسالاً لا تعي شيئاً ولا تصنع شيئاً بل دأبك التثاؤب؟

اما انت، يا شارتير، فانك لمضحك احياناً، ولكنك لا تشقّ للوسيان غباراً. لقد ادركت سرّ صداقتك له يا هنري، فانكما

اذا اجتمعتما لا يخالط اجتماعكما ضجرٌ ! ألست مُصيبةً ؟ لقد جئت يا لوسيان تقضي يومين في ساپينات ؟ وقد آلينا على نفوسنا ان نبقيك فيها اسبوعين لا اكثر ولا اقل . فنحن في حاجةٍ الى هذا الوقت لنكمل بقربك تثقيفنا الهزلي فنتعلّم ان نلهج لهج الانكليز، وسنمثّل انا وانت ، الخميس القادم ، محاورةً غزلية مدارها على مغامرات جون بول في اسفاره تؤلفها انت وصديقك هنري ، واني لمتكلة عليك . . . امّا تحديد اقامتك عندنا فعلى مسؤوليتي

اجابها لوسيان : ان امي لمضطرة الى السفر غدًا

— أمن اللازم ان ترافقها ؟ لا ! سأحدث عمتي بهذا الشأن . ولسوف نستبقيك عندنا . عودوا بنا الآن الى الساپينات . اراني في حاجةٍ الى الراحة لئلا اظهر بمظهر الضنك على مسرح الطبيعة في هذا المساء حرصاً على شرفي ـ ولا اظنّ ان احدًا منكم يلومني يا سادة اذا ذكّرتم باني جنية الربيع

نجحت جنية الربيع نجاحاً باهرًا فلم ينقض احدٌ كلامها ، ورقصت فارقصت الجماعة كلها حول شجر السنديان والصنوبر ، تنادي هنري ، وتداعب غاستون ، وتسلّي لوسيان ، وتضحك اقتلهم هماً واشدّهم ضجرًا ، ولم يقطعوا الرقص الا ليلتهموا لقمة العصر . فتقدّمت امرأة ميرامون من لوسيان وكان لا يزال احمر الخدّين من حركات الرقص وقالت له :

« ألم تسئمك مجالستنا ، يا لوسيان » ؟

— كلّا ، يا سيدتي

— اذن فيجب ان تبقى ، ففي بقائك مسرة لهنري وليلى .

وقد تحدثتُ بذلك الى امّك وسنستبقيك اسبوعين ، كاملين ريثما ينتهي موسم القصف في القرية وقد شبعنا لهواً وطرباً

— وأمي ؟

— راضية بما تبته انت !

فاجتهد لوسيان في الاتصال بامّه . وما اخذ المدعوون بالانصراف حتى اختلى بامّه في ناحيةٍ قصيّة من البستان وسألها :

— أصحيح ، يا أُميمة ، ان في استطاعتي البقاء في الساپينات خمسة عشر يوماً بعدُ ؟ . . . فتفرست فيه امّه وقالت : سألتني ذلك عقيلة ميرامون . وانا أخيّرك . امسرورٌ انت هنا ؟

— كل السرور ، يا أُميمة !

— ربما أفرطت في اللهو ، يا بني ! ؟

فأطرق حزيناً ثم قال : ما برحت منذ يوم توزيع الجوائز اشتغل من الصبح الى الظهر ، بل لم اخرج الى النزهة الا قليلاً . ألا ترين اني في حاجة الى شيء من اللهو والراحة ؟ !

— بلى ، يا بنيّ ، هذا ما أفكر فيه . فاسمع ما اقترح عليك . ألا استعضت من بقائك هنا بسياحةٍ جميلة في جبال الپيرانه . لقد أُصبتُ بوجع في حنجرتي سحابة الشتاء . واشار عليّ الاطباء بان اقضي فصل الصيف في كورتاه (بقعة في جبال الپيرانه مشهورة بمياهها المعدنية والكبريتية) فلِمَ لا نستشير بآرائهم ؟ زد على ذلك ان هواء الجبل البليل ينعشك ويقوّيك

— أتطلُ ، يا أُميمة ، هذه البقعة على جبال الپيرانه العالية ، التي لا يطالها النظر من مدينة لورد ؟

— أجل ، يا بني ، هناك يأخذك العجب من علو جبال الفيكنجال وتتوغل جبل الجنوب وتمتع نظرك عن قمته بمشاهد خلابة ترتفع بالعقل الى العلاء وتريح النفس من اتعابها ، وتنسيك انك على ارض الشقاء وتتوغل في عالم التفكير تجاه مدارج الكاثارني العجيبة وثغر رولاند ؟ هناك يمكنك ان تتزحلق على الثلوج المتجمدة ، وتتنزه تحت الشلالات العالية على صهوات الخيول المطهمة

وبعدُ أفتدري أنك واجدٌ هناك رفاقاً لسلوك وسرورك ؟ وقد ارسلت اليّ عقيلة مالموسه كتاباً ، فهي واولادها في كورتاه منذ اسبوع وابنها مسرور هناك كلّ السرور ، وقد تعرّف ثمت بين السياح والمستحمين الكثيرين الى ثلاثة طلّاب من مدرسة اوزانام بينهم صديقك «سارته» . وهناك استاذك پول ڤيولي ، ذلك الاستاذ الذي تحترمه وتجلّه ، والاب كزافيه ، والاب كلثات المحبوب . وهؤلاء البواسل لا تقف في وجوههم عقبة مهما شقّت . وقد ركنت اليهم امرأة مالموسه وسلّمتهم ابنها ليتسلّق الجبال معهم ويضرب في الاودية ، واني لحاذيةٌ حذوها فورَ وصولنا

— هذا ما انزع اليه ، يا أُميمة ، اني احب السيد ڤيولي حباً جمّاً ويلذّ قلبي حديثُه . واستطب ان اقضي اوقاتي برفقته ا ورفيقي « سارته » لطيف العشرة ، مفتوح القلب . امّا الاب المحبوب البشوش الوجه كلثات فماذا اقول فيه؟ . . اني اؤكد لك ، يا أُماه ، ان كأس السرور هناك ستكون مترعة لنا ، وهذه الرحلة ستملأ قلبي غبطةً وسلاماً

— اذن سنعجّل سفرنا ؟ فما عليك إلاّ ان تضرب ميعاده

فحدّق لوسيان في وجه امّه ، كانه يتصفّح في عينيها كتاباً وقال بصوت خافتٍ :

أي امي ، أخطرت رحلتنا هذه ببالك قبل مجيئنا الى الساپينات ؟ ام انت خاشية عليّ هذه البيئة وقد رأيتِ أخطاراً تهدّد الآداب ، فعزمتِ على انقاذي ففكّرتِ في سياحتنا في جبال البيرانه تفادياً من ان تحزنيني

كان ما كان ، فاعترفت الام بنيتها لولدها وأمسكت يدَيه وقالت :

« أحرامٌ عليّ ان اوفّر لقرّة عيني لوسيان اللهوَ المفيد للجسد والنفس معاً ؟ قف تجاه ضميرك ، يا عزيزي ، تجاه ذوقك السليم وقل لي : أليس من شأن اللذات التي يترشّفونها هنا ، والملاهي التي يلهون بها ان تعدل بك عن الشغل والحياة الهادئة الرصينة ؟ أليس من شأنها ان تمزّق عن نفسك حلّة بهائها ، وتنقص من كمالك . . . ؟ أمخطئةٌ انا في حكمي يا عزيزي ؟ اجب بحقك . »

فما تمالك لوسيان ان ضمّ امّه الى صدره وقبّلها قبلة حرّى وقال :

« انك لمصيبة يا اماه فعجّلي بالسفر . لقد اسكرني الهواء الذي استنشقه هنا . ثم استطرد يقول ، وقد اسند رأسه الى كتف امه بثقة بنويّة : ان ابنك لوسيان لضعيف . ولولم تكوني بقربه تذودين عن حياض نفسه نزواتها وتحمينه وتحرصين عليه ، فماذا كان قد انتابه في حياته ؟ . . »

فانحنت امّه على جبينهِ ، وقد دانى شفتيها ، فقبّلته وهمست

بلهفة في اذنيه :

« اني سأظل حريصة على راحة هذا الابن طوال حياتي ! »

٤

انتهت العطلة المدرسية فعاد هنري الى مدرسته فرحاً ، وكان يحسّ بحاجة الى الاختلاء بنفسه ، وقد قضى شهرين ونصف الشهر مشتّت الافكار ، للمرّة الاولى ، تشغله ترّهات العالم الفاني عن مراجعة دروسه واتمام فروض العطلة . وقد شعر ، عدا ذلك ، في الايام الاولى ، ان النظام ثقيل والدرس متعب فسئمت نفسه المدرسة . ولولا لوسيان وحبّه الصادق له لباء بالفشل . فان هذا الصديق عزّاه وشجّعه وساعده على الخروج من ضائقته ، فأكبّ على الدروس شأنه في كل امرٍ يرغب فيه ، فأولع بالتردد الى الكنيسة اكثر من امس فما قبل ، وكان يتحدث غالباً الى مرشده ويتقدم من سرّي التوبة والقربان الاقدس . ولما كان عيد جميع القديسين اتفق ان بنات خاله صمّمن على نزهة بعيدة في السيارة ، فاستنهضنه الى مشاطرتهن افراح هذا العيد ، فأبى كلّ الاباء وصارحهنّ بكلام لا يخلو من الجفاء ، قال :

« ليست هذه الايام ايام لهو وطرب ، فاني قاصد ان اقضيها في الخلوة . » وثنى قائلاً : « ان التفكير في الموت لافضل عدّة للحياة . »

فطارت ليلى الى عمّتها مفرغةً في مسمعها كلمات هنري ، ثم عطفت قائلة : « ان اسهري على ابنك ، يا عمّتاه ، فهو لا يلبث ان يذهب الى دير الترابيست ويدفن فيه حياته . »

فاضطربت امّهُ واتت مدير المدرسة مفضيةً اليه بما كان يخالج

قلبها من ان الادارة الروحية في المدرسة توحي الى ابنها افكاراً تناقض غاية وضعها له في المدرسة، وانها ترى ابنها مدفوعاً الى العبادة اندفاعاً قوياً لا يبرّره حسن نيات المرشدين ، قالت :

— أجل اني لعارفة ، يا حضرة المدير ، انك لمحدثي عن تعليم بيّوس العاشر ... عن التناول المتواتر ، والتناول اليومي ... ولكنني لا اسلّم بهذا لولدٍ وفيرة نقائص سنّه، ولدٍ ضعيفٍ طيّاش. اني لعالمة علمَ اليقين انه يتقدم من مائدة الخلاص تقوده العادة ، على غير كفاءة من الاستعداد . فلو كان غير ابني لسلّمت ؟ أما هنري فليس بالقديس ، الذي تعهدون ... تلك ممارسات أأباها ، وانكر عليكم ان تعوّدوها ابني ، ولست منفردةً ، يا حضرة المدير ، بهذا التنبيه، بل كل ذي ذوق سليم يوافقني على رأيي وينعى عليكم هذا الاسترسال . والنتيجة التي تحصلون عليها في مذهبي هي انكم تربّون نفوساً خسيسة ، تعتبر الخطيئة العرضية شيئاً لا حرج فيه ولا يُكترث له . فانا اجزؤ على ان اعدّ هذه التربية فاسدةً ترمي الى خنق صوت الضمير ، ليس إلاّ ...

لقد تربيت ، يا حضرة المدير ، تربية الصلاح والتقوى ولكن ... على غير هذا النحو . انت اعلم الناس بزوجي ، فهو كاثوليكي صميم ، بل اشد الكاثوليك تمسّكاً وحماسةً واصدقهم جهاداً . ماذا اقول؟ ان زوجي يشاطرني الاسف على النهج الذي تنهجون في تربية ولدي . لقد وطّنا النفس يا حضرة المدير على ادخال ولدنا العالم، فدرّبوه اذن تدريباً يبلغه العالم لا الصومعة ...

فابتسم الكاهن الشيخ وقال : نحن نتعهد اولادنا بتربية

واحدة . فلماذا يلبث البعض آلف للطيش وأصبى الى العالم، والبعض الآخر ينزع نزوعاً شديداً الى امور الفضيلة والتقوى ، الا لان الله خص لنفسه بعض من اختصهم بحبه دون سواهم من المكتفين بان يكونوا له عبيداً ؟ اما نحن فما حيلتنا يا سيدتي ؟ أنستطيع ان نتصدى لهذا الاختيار السري ونقطع هذه الصلة الوثيقة بين الله والنفس ؟ وقصارى القول ، أنستطيع ان نحول بين الله والولد موصدين اذنيه دون صوته تعالى ؟ ؟

فضاقت عقيلة ميرامون بالجواب ذرعاً ، وتضاعفت همومها ، وخافت على ابنها تأثير لوسيان، فاخذت تقلل زياراتها لعقيلة ريشيار، ومن ذلك الحين جعل هنري يتصفح قصصاً غرامية حُرمت قراءتها على مادلين وقد وضعت على منضدته كأنها منسية

لم يمض من كانون الاول نصفه ، حتى ابرم بعض العيال ، بعد مباحثات ومؤتمرات كثيرة طويلة ، معاهدة مرماها ان يجتمع اعضاؤها ، كل احد ، تارة في هذا النادي وطوراً في ذاك يعلمون اولادهم فن الرقص لانهم يجهلونه ، فأجمعت الامهات فتيات وعجائز على ان هذه الفكرة هي الطف حادٍ الى الاجتماع . وسُرّ بهذا الرأي الشيخ العازب شارتير ، الملقب « ببربروس » او بذي اللحية الشقراء . فرضي ان يقاسم بنتي مارجولي الفرادة واختها ليلى تلقين الرقص العصري ، وقد حذقتاه وهما تتلقنان اصول القراءة . وكان يؤلم هنري ان يُحرم حضور صلاة المساء كلَّ احد ، فوعدوه بان يعوضوا منها بزياح يُحتفل به في ساعة متأخرة ، وألحوا عليه بقبول الدعوة بل امروه بذلك . فرأى ان لا بدَّ له من مجاملة

القوم لئلا ينسبوا اليه البَلَه . فرضي ولاسيما انه رأى جمًّا من رفاقه طلّاب مدرسة اوزانام يتواعدون على الملتقى في نادٍ يجتمع فيه متخرّجو المدارس الداخلية فتياناً وفتيات . فكان كل يوم احدٍ عيدًا عائليًا يُختم بحفلة شاي حافلةٍ . وكان هنري يختلف الى محفل الرقص . وما لبث ان اصبح بدرَه المنير ، فالتفّت حوله الصبايا معجباتٍ بجمال خلقه ولدونة جسمه ، ورحنَ يتنافسنَ في حبّه استمالةً له

لم يتعلم افراد تلك الجماعة فنّ الرقص فحسبُ ، بل تخطّوه الى البذخ والاناقة في الملبس : فالفتيات قصرنَ همهن على التبرّج استهواء للشبان ، وهؤلاء عمدوا الى حفّات الدراهم فكسروها ليشتروا قفازاتٍ حريرية ومناديل مزركشة يضعونها في جيوبهم الصغيرة المليا

وكان ما قُدّر ان يكون ! فتفشّى الهوى بين الشبان والفتيات تبعثه العشرة ويذكي ناره تحاكّ الاجسام في الرقص المختلط ، وانبرى كلٌّ يختار من بين الراقصات حبيبةً له توافق اميالَه . امّا الالعاب الرياضية والسياحات والاعمال الاجتماعية وكتاب اليونان واللاتين فكل هذه اصبحت لا تخطر لهم في بال . بل لم يكن حديثهم دائرًا الا على ولهٍ فتنهدٍ ، وحسدٍ فجفاء ، وهجرٍ فنسيانٍ ! وكانوا يصرفون ساعات الراحة في التبرّج والهندام وجمع اوراق الورود الذابلة وإجهاد الادمغة في نظم قصائد الشوق والحبّ والعتاب ، او في حفر احرفٍ مشتبكة على لحاء الاشجار بجانب قلب مرسوم نفذته حربة !

وعلق ثلاثة منهم ليلى مارجولي وباتوا يستطلعون هنري اخبار ابنة عمّته الفتّانة، فمار عليها وذهب الى لوسيان ريفيار فأفضى اليه بخواطره قال :

يقتلني يا لوسيان ان لا تبالي بي ليلى ، ويزيدني حنقاً أنّ هؤلاء الشبّان يتودد دون اليها ويستميتون في حبّها ويتشوّقون اخبارهـا ؟ ليتني لم اذهب الى هذا المقصف ! ! فما شأني والذهاب اليه ؟ خسرت وقتي وخنقت رغبتي في الدرس ! لو تدري ما أشقّ عليّ ان اخوض عباب الكتب ، وقد انفقتُ في مخاصرة الراقصـات الضاحكات وقت بعد الظهر كلّه . انك لاسعد الشبان واحسنهم حظّاً لانك ناجٍ من هذا الوباء.

— لقد استأذنت أمي في الذهاب الى هذا المرقص فنبّهتني الى خطره وما علّه ينتاب دروسي من ضرره ، ولاسيما انّي في سنـة الاستعداد لفحص البكالوريا ، فأيقنت ان الصواب والحقّ في جانبها فتنصّلت الى القوم من الحضور . ولمّا لم اكن ذكيّاً يا هنري وليس لي ما لك من السهولة في الدرس، ادركت اني بغير كدٍ وتعبٍ لن أصيب نجاحاً في امتحان البكالوريا . . .

اثّر كلام لوسيان في نفس هنري تأثيراً شديداً فذهب هـذا الى غرفته وجلس يحدّث نفسه : آه ! البكالوريا ! البكالوريا ! كل اترابي يكدون سعياً وراءها وانا ! وانا ؟ انا ايضاً أريد ان انكبّ على الدرس مهما كلّفني امره . لا والله ما اردت ولا رضيت ان يُخفق فحصي ! !

قال هذا وفتح كتبه ودفاتره وجلس الى منضـدة يقرأ على

ضوء قنديله . وان هي الا هنيهة حتى تدفقت عليه خيالات لا علاقة لها بخطباء اللاتين ولا بادباء القرن السابع عشر الذين يدرسهم ، وما عتمت ان افتتحت دماغه واستولت على مخيلته وافكاره ...

آه ما كان أثقل ليلى هذا الاحد ! مَن خاصرت ؟ غاستون هذا البليدَ ؟! أتراها تعشقه على حمقه وبلاهته ... ولكنه جميل أنيق ! .. ما الذي حمل والدتي على احياء يوم راقص في الشهر الآتي ذكرَ البلوغ مادلين التاسعة عشرة من عمرها ؟ وسيكون الرقص مقنعاً ! اما ليلى فقد رمتني بالعجز عن اختيار ثوب يزين جسمي الحقير . أصحيحٌ انني عاجزٌ ولا خبرة لي في مثل هذه الامور ؟

على اني سأتصفح تاريخ الازياء على ممرّ الاجيال ... فافضت به هذه الكلمة الى صفحة من كتاب المؤرخ الروماني تيت - ليف ، فحاول نقلها الى لغة فرنسيّة غاية في البلاغة وكان يتمتم :

« لا بدّ لي من ان اخوض بحر الفصاحة الذي خاضه هذا المؤلف . » لكنه ما كان يستطيع ان يضبط افكاره لان حفيفَ الثياب وانغامَ الرقص وقهقهة الضاحكين والهازئين ، كل ذلك كان حائلاً بين مسمعَيه ورنّة الجملة اللاتينيّة ، وبين ذوقه وائتلاف كلماتها ومعانيها . وكانت الفرادة تمرّ في مخيلته متهيّئة للظهور في مهرجان الشهر الآتي بصورة « كلامنس إيزور » ، آلهة الشعراء ، ووراءها غاستون بهيأة مغنّ فلورنتيني ، فمادلين بزي ملكة ايار ، فليلى الظريفة في المؤخرة وعلى جبهتها خصلة من الشعر المستعار على

الطراز الروسي وبين شفتيها لفافة ... وكان يقول في سره : اما انا فاي زي اتخذ ؟ ازي غلام امير ؟ ام زي مهرج ؟ ام زي ليسيدس ؟ لا ! كل هذا امسى تافهاً !

وما لبث ان ترك تيت-ليف وقد أشكل عليه، فعمد الى موضوع انشاء فرنسي ، فكتب في رأس صفحته البيضاء : كتاب من ساقار الى الامبراطور دايوس بعد استشهاد پوليوكت

جلس ورأسه بين يديه يتأمل هنيهة ، وما هو الا القليل حتى رمى القلم بغتة ، موقفاً هناك ساقار حتى الامبراطور ، وطار الى غرفة اخته وصاح :

مادلين ، مادلين ، دعي ما تطرزين وتوشين ؟ تيقني اني ألهمت فكرة جميلة ! أتعرفين باي زي اتزيا يوم عيدك ، في الشهر القادم ؟ بزي حوذي ! أجل ! بزي حوذي ! لم تتعجبين ؟ سأرتدي ثيابه وامثله تمثيلا دقيقاً حتى لا يقوى احد على معرفتي . فادخل المرقص كمجنون هائج ادفع الابواب عنوة ، ضارباً بسوطي ، واهجم على شارتير الخبيث العتيق وأعنته بطلب الحلوان «البخشيش» فيدب الهول في قلوب السيدات ، فيقبض علي الخدم ، فيصفر شارتير ، اذ لم يعرفني قط . اما انا فألحف في الطلب واعربد واضج فيستدعون الشرطة ... أترين ان دخولي سيكون نكتة العيد ؟ وكان يستطرد في قلبه : وسترى ليلى اني لست أشد بلهاً من غيري وان في قدرتي ان آتي بالعجائب الغرائب :

***

هوذا ابن ميرامون ، أمتن الصف الاول انشاء انشأ في هذا المساء.

موضوعاً ، فجاء كتابه : « من سيشار الى الامبراطور » احطّ من انشاء اضعف تلميذ

٥

انقضت ايام المرافع فانقطعت الاعياد والاجتماعات . وقد اقلقت السيد ميرامون منزلةُ ابنه في السباقات، فصمّم النية على ان لا يلهيه عن دروسه حتى الامتحان الاخير في السنة

امّا مادلين فسافرت مع عيلة مارجولي الى باريس لتقضي عند جدّتها من امّها ستة اسابيع، وخرج هنري من تلك البيئة التي كانت تفقده احسن مزاياه شيئاً فشيئاً وتخمد فيه حماسته

فبعد ان تحرّر عقله من ربقة الاباطيل واستعاد حياته المدرسية الصحيحة ، ألهبته الرغبة في ان يستعيض من الوقت الذي خسره وخصوصاً في التسلّط على نفسه وقسرها على العمل ، فانصبّ على كتبه يوغل في درسها

مضى فصل الربيع ، على غير العادة ، هادئاً لذيذاً ، فلازمَ هنري لوسيان ملازمة الظلّ ، فكانا كل مساء يجتمعان في البستان الزاهي باطباق الورود وعناقيد الازدرخت يدرسان ، وكلاهما منكبّ على صفحة واحدةٍ يتناوبان قراءة المؤلفين ، حتى اذا نفض النهار آخرَ شعاع وأشكلت على بصرهما السطور السوداء في الصفحة البيضاء ، أطبقا الكتاب وافترقا ، تاركين هناك قلبيهما يتناجيان في ضمير العتمة

آه ما اجمل القلوب في السادسة عشرة اذا لم يذبلها الريب وتفسدها الرذيلة ! فأيّة رغباتٍ كبيرة ونائبة تختلج بها قلوب سليمة

من جهة ، رصينة من جهة اخرى : قلوب تجرّدت عن إنانية الاولاد الفطريّة وهي مُفلتة من عراقيل الرجولة وطرقها المشعّبة ، فمنها يتدفّق ينبوع المحبة ، محاولاً ان يغمر العالم بعد ان يجري الى ابعد ما يستطاع من المدى !

وما كانت الشرور التي تنكّل بنا ، من فقر وخراب ومصاعب ومخاطر ، الا لتشجّع الفتيان وتبعث فيهم عواطف الشهامة . لهم الحياة دانية القطوف يجنونها فرحين كما يجنون ثمراً شهيّاً . وهم أبعد من ان يخافوا الموت بل يجابهونه مبتسمين ، على ان يكون طيّباً وجميلاً

نتناول نحن عظائم الحياة بالفلسفة ، ويتناولونها هم بالشعور فيدركونها احياناً بوثبةٍ من وثبات اعجابهم بها !

نقف نحن تجاه المجد موقف الاجلال ، ويقفون هم موقف الاستفزاز والاندفاع اليه . نطأطئ نحن الهام للعظمة ، ويصفّقون هم لها ويرقصون ويثبون اليها صعداً تسوقهم حمية الشباب

لله درّكم يا شبان السادسة عشرة ! اذا شئنا ان نُنزل نفوسكم الجميلة الرجراجة منزلة كل جميل ناقص ، فينبغي ان نتبرّأ من المرور بسنّكم . نحن نجهلكم ! وقد رأيناكم تلعبون لعب الاطفال احياناً . ولكنكم تنقلبون بين الدقيقة واختها من حالٍ الى حال ، فاذا بكم تخرجون من موقف اللعب الى موقف الجدّ ، مضحّين بكل عزيز نفيس في سبيل البلوغ الى البطولة . . .

كان هنري ولوسيان يردّدان تلك الاحاديث التي لا يمحوها النسيان ، احاديثهما في البستان ، فلا يكادان يذهبان فيها حتى

يقطع مجراهـا عليهما صوت الاجراس . فيهبّان تارةً الى الكنيسة فيسجدان تجاه المذبح مشرقاً بانواره ، زاهياً بازهاره ، محيّين ملكة شهر ايار ، مريم العـذراء ، وطوراً الى بيتهما يدوّنان في مفكراتهما مقاصد جديدة وعواطف حرّى

وهذا بعض ما كتبه هنري : إلهي ، ألا تفتح ذراعيك فتضمّ الى صدرك ولداً تاعساً ، هو من الضعف بحيث اذا اصطـدمت رجله بحصاةٍ نكب عن حبّك منقاداً لشهواته ! لا صحـة لجسمي ولا راحة لعقلي ولا سلام لقلبي الاّ بك ، يا الهي ! هـلّا جذبتني اليك جذبةً تلصقني بك فلا يبقى من قوّة على الارض تسلخني عنـك ! الهي اني لنابذ كلّ زائلٍ فانٍ ومتعلّق تعلّقاً وثيقاً بكل باقٍ ابدي! الهي ، كيف اجترأت أن أضعك في كفّتي ميزان وترّهاتِ الارض ولذّاتها وافراحها القصيرة وهي لا تسدّ رغبة من رغباتنا بل لا تترك في قلوبنا الا غصصاً ومرائر وآلاماً !

أأستطيع أن أُحبّ او اعشق غيرك او افتّش عن سعـادتي في غير قلبك ! الهي ، حبي اياك ورغبتي في اصطياد نفوسٍ كثيرة لك هما رائدا شبابي ، يُسدّدان خطواتي ويُفرحان قلبي

تذوّق الصديقان حلاوة اتعاب الرسالة وبَلَوا افراحهـا اثنين العنصرة المعروف بيوم المساعدات . أقبل العيد فاخذت كل جماعة تُرسل الى المدينة الاسقفية فرقـة من الاولاد ربيبي عنايتهـا ، والكهنة منظّمو العيـد ، مهتمّون في ايجـاد مساعدين من ذوي الارادة الصالحة ، يحافظون على النظام المنشود إبّان الحفلات الدينيّة صباحاً وفي اثناء الالعاب الرياضيـة بعد الظهر . فـافترص هنري

ولوسيان فرصة العيد وأقبلا فرحين متطوعين لهذه المحافظة . وانهما لواقفان ينتظران الاوامر منذ الفجر لينفذاها ، اذا بهما مسرعان الى المحطة لاستقبال الفرق المتدفقة من جميع انحاء المقاطعة ومساعدتها ، مؤتمرين باوامر الكهنة المتولين تنظيم الصفوف ، حتى اذا تمت الخرطا فيها ومشى الجميع يطوفون شوارع المدينة على أحسن نظام تخفق الاعلام فوق رؤوسهم ، وتتقدمهم فرق الموسيقى بابواقها وطبولها . وما كان اجمل صباح ايار يرفرف باشعته اللطيفة على قلوب الصبيان ، ممتدين خطاً طويلاً وهم عراة السوق والاذرع ، يمشون بخطى مثزنة شامخين تيهاً بعددهم ولباسهم وموسيقاهم العسكرية ، ولسان حالهم يقول :

« عيونكم ، عيونكم علينا ! انظاركم الى فرنسة الكاثوليكية الفتية ! » والناس ينظرون اليهم متسائلين عما تكون جماعات الصبيان هذه ، ويقابلون بين القبعات الزرقاء والقبعات البيضاء متعجبين بعددهم لا ينفك يزيد ، وبنظامهم ومشيتهم ووقفتهم العسكرية والجماهير على اختلاف طبقاتهم يتزاحمون مدهوشين لاحقين بهم الى الكنيسة لحضور الذبيحة الالهية

كان صحن الكنيسة محفوظاً لموكب الاولاد ، فاحتله مئات الصبيان وعشرات الفتيات ، بينهم شبان الاندية الكاثوليكية ومختلف الجمعيات الخيرية والرياضية . وكانت انوار الشمس تتدفق من نوافذ الكاتدرائية القديمة ، فتنشر في قلبها وتخلع عليها من الجلال والبهاء حلة فضفاضة . فبدت كأنها جدة طاعنة في السن تحاول ان تستبدل شحوب الهرم بجمال الفتوة ، لتستقبل بالابتسام

حفيدها الشاب النشيط حاملاً اليها من امانيه كل جديد

كان هنري ولوسيان يضاعفان الجهد في تمكين المتأخرين من الجلوس وتوزيع اوراق الاناشيد وتسكين روع الجموع المتزاحمة المشرئبة الاعناق ، فحانت التفاتة من هنري فلمح اباه تاوح بجانبه لحية شارتير وقد جاء هذا للتسلية لا للصلاة . فمرّ الشاب بهما يزهو فخاراً وقال : « ألم أقل لكما ان صحن الكنيسة سيغصّ بنا على رحبه ؟ » وما هو الا ان دخل الاسقف باحتفال محفوفاً بالكهنة حتى صدحت الموسيقى ووقفت الوف الاولاد والشبان اجلالاً ، وكأني بعاطفة المحبة المسيحية كهربتهم فاندفعوا ينشدون انشاداً يهزهز اوتار القلوب :

« لا لا لن نسمح لهم ابداً
ان يأخذوا نفس اولاد فرنسة
لا لا لن نسمح لهم
أبداً ابداً ابداً »

فقال هنري : أأعجبكما هذا؟

اجاب شارتير : احسنوا ! لعمري ! وأبدعوا ! ! ثم استطرد : لقد ادهشتني زينة الكنيسة باضوائها الاصطناعية الخضراء واشعتها الزرقاء تتساقط من الزجاج على الاوجه الوردية . انك لتذهلني وانا مشفقٌ عليك من ان تُرهقَ نفسك يا عزيزي ، ألا ترى العرق يتصبّب من جبينك ؟ قدع الصغار يصطفّون . ولا يقلّ لوسيان عنك تعباً ستلقيان مغبته هذا المساء .

فتبسم هنري وقال : لا بأس بالتعب اذا كان مقدّساً رسولياً .

ألا يبدو لـك يا عزيزي شارتير ان هـذا التعب صورةٌ مصغّرة لاتعاب غدنا وحروبه ؟ قال هذا وانسلّ متغلغلاً بين الصفوف

فقال ذو اللحية الغبراء لوالد هنري : ان ابنك ناطق بالاحاجي . وكان المحامي ميرامون عارفاً بهذه الاحاجي، فوقف حزيناً مضطرباً وهو يقول في نفسه : تُرى كيف يفك الغدُ عقدتها ؟

٦

نحن في يوم من ايام حزيران المزعجة . الهواء ثقيـل والسماء مكتظّة بالغيوم والناس متوقّعون ثوران عاصفةٍ

عاد هنري من مدرسته متوعك المزاج فارتمى على كرسيّ وقال : « لم اقوَ اليوم على شيء . فالقلم كان يترجرج بين انامليّ . »

قالت امه بلهفة :

أمريض انت ؟

— لا يا أميمة ، ولكني منهوك القوى ويخيـل اليّ ان في رأسي فراغاً

فاضطربت الام ولم تتمالك ان قالت : ان ابني يجتهد اجتهاداً شديداً . لا يرقد حتى الهزيع الاخير من الليل ، وينهض باكراً ، وهذا ما لا قبل له على احتماله زمناً مديداً ! آه مـا أشهى لقلبي ان يقرب موعد الامتحان فيؤدّيه وينعتق من عناء الدرس ! ان اجهاد العقل لقاتل لاسيما لمن كان في السادسة عشرة، على ما يرافق هـذه السنّ من النموّ والضعف

— سكّني الروع يا أميمة، فليس من خوف على حياتي، وغاية ما اريد ان امتدّ قليلاً على هذا الكرسي فانسى تعبي واستريح

رقد هنري ، ولكنه لم يستطع الى النوم سبيلاً ، ولم يكد يُغمض عينيه حتى لمع البرق وقصف الرعد فدوت الجبال والاودية ، فخُيّل ان البيت تزعزع ثم انفجرت كوى السماء وتدفقت سيولها تدفقاً عنيفاً ، فأنّى لهنري ان يذوق طعم الراحة ؟ فمدّ يده على وَنَىً وتناول عن منضدته جريدةً ليطّلع على حوادث العالم الجديدة فوقع بصره فيها على قصة شهوية بذيئة من تلك التي يتعمّد نشرها بعض الصحف ، ارضاء لفئةٍ من القراء لا يلذّها الاّ التمرّغ في اوحال الدنس ومزابل العار والفضائح

غضب الفتى فور قراءته تلك الجمل الخلاعية المنبهة للشهوات ، فقلب الصفحة ليرى اي جريدة تتجرأ على ان تنشر مثل هذه الافكار المثيرة ، داسّةً سمّ الخلاعة في العقول والقلوب ، فتفسد على الشبيبة نقاوة افكارها وطهارة قلوبها . فدُهش وصاح :

كيف ترضى يا ابتاه ان تفسح في منزلك لمثل هذه الوريقة المشهورة بمجونها ؟ كيف ترضى ان تساعد اصحابها وهم يجارون ميول الناس وغرائزهم الحيوانية الخسيسة ؟ كيف ؟ ألا تخاف ان تقع عين اختي مادلين على هذه الموبقات ؟

اجاب الوالد : مادلين في باريس يا بُني ، وهذه الوريقة تعالج قضيةً أحدثت ضجة كبيرة حول دعوى حيكت خيوطها في بروكسل ، عاصمة البلجيك ، وقد اشتريتها أسوةً بزملائي المحامين للاستفادة . وبعدُ فمَن دعاك الى قراءتها ؟ دَعها مكانها !

دقّت ساعة العشاء فقاموا الى المائدة . ثم ذهب هنري بعد الاكل الى مخدعه واستلقى على سريره متألماً . وفيما النعاس يراود جفنيه

خطرت في مخيلته مشاهد الخلاعة التي اقتضبها من الجريدة ، فحاول محوها من ذهنه ، ولكنها قهرته وتسلطت على دماغه مستأثرةً به كما لو كانت مطبوعةً في قلبه باحرفٍ من نار ، وما لبث ان دفعه الفضول الى مراجعة السطور السابقة ليعرف الخاتمة الرائعة . ثم قام يصلي ويوبّخ نفسه غاضباً ، ولفّ على معصمه سبحة ذات صليب فضي ، كأنه يحاول قيد نفسه للسيدة العذراء الطاهرة بسلسلة لا تنقطع ، فأرقَ ولم يذق وسنا الاّ عند الصباح . فنام وكان نومه متقطعاً . ثم استيقظ موجع الرأس مضطرب النفس ، ونهض وارتدى ملابسه مستعدًّا للذهاب الى المدرسة بهمة خامدة

وقصدَ على عادته الى غرفة الطعام لتناول الافطار ، وفيما كان يشرب كأساً من الشوكولاتة رأى الى جانبه على كرسي وريقة المساء ، وقد طُويت بحيث ظهر منها عنوان ضخم الحروف ، مملّق جذّاب ، فقرأه واقفاً مكانه . ولم يأتِ حركة قبل الاتيان عليه . ظانًّا انه عنوان تلك المقالة الشهوية التي حَرَمته الراحة والنوم في الليل السابق ، رغم انه لم يقرأ منها الا بضعة اسطر . فانحنى على غير روّية ، لا تلامس يده الصفحة ، وقرأ سطور المقاطع الاولى حتى آخر الطيّة . وهنا عاد بغتةً الى نفسه وقد صاح : واتعساه ! لقد غُلبت على امري واذلّتني التجربة . بيد اني ساحاربها ، ومن العبث ان يحاول المحتال خدعي ! لا ، لا ، لن اقرأ بعد الآن شيئاً

وازدلف الى دفاتره وكتبه فتأبطها مقاومةً لتلك الرغبة الوثّابة التي كانت تدفعه الى ان يقلب صفحة الجريدة للاطلاع على التتمة ...

وفيما كان يسير في شارع لامارتين في طريقه الى المدرسة تبعه كثيرون من رفاقه ، فاخجله قربهم منه . ثم دنا منه لوسيان ضاحكاً ومدّ اليه يده ليصافحه فحوّل نظره عنه خشيةَ ان يقرأ لوسيان في عينَيه تلك الصور المخجلة التي انطبعت في دماغه تلك الليلة فدنّسته

قضى نهاره ينهشه العذاب وتملّقه التجربة وتتموّج في مخيّلته مشاهد تلك القصة البذيئة . فأدهشه انطباعُها في ذاكرته بدقائقها وتفاصيلها ولم يقرأها الا مرّة وعلى عجلة!

لما كان المساء عاد الى البيت فنشبت الحرب في نفسه يذكيها رجوعه الى جريدة المساء الفائت، واقفاً منها بين كاره وراغب

فقال في نفسه : هذا حدثٌ ثم يمضي . ما تلك بتجربة بل فكر عابر . لا أرى لي مخرجاً منه الا في ان آتي على تتمة هذه القصة الملعونة فألقي عبئي واستريح . فتريّث حتى عرف ان اهله ناموا وأطفأوا الاضواء وسكنت كل حركةٍ في البيت ، فقام ومشى منسلّاً كاللصّ الى غرفة الاكل فلم يجد الورَيقة المنشودة . فثبت له ان امّه وضعتها في المكتبة مع سائر الجرائد والمجلّات ، وكانت المكتبة محاذية لغرفة والدَيه فدخلها . وفيما كان يبحث في الظلمة عن مفتاح الكهرباء اصطدمت يده بكرسيّ فقلبته ونجم عن انقلابه صوت انشغل له بال امه فصاحت : « هنري ! أأنت هنا ؟ علامَ سهرك يا بُنيّ وقد مالَ الليل . سر الى سريرك واستروح ! » فاجاب :

« انا في حاجة يا أُميمة الى كتاب من مولفات بوسويت . »

اقترف هذه الكذبة غير آبهٍ لها، وما زال حتى وقع على مطلبه،

فعاد به الى غرفته وهو على ما عرفت ليس من مولفات بوسويت ، فلم تمس يده المرتجفة كتاباً من كتب بوسويت ، ولا مع بوسويت قضى ليله وقلبه يخفق بين ضلوعه

لم تنتهِ القصّة بل كانت من نوع القصص التي تُنشر تباعاً في بعض الجرائد تشويقاً لقرّائها الى معرفة ما يؤول اليه ابطالها في التتمات التالية . فشغفت نفس الفتى بهذه البضاعة الرائجة . ولعلّه مال في اليوم التالي الى كبح امياله ، غير ان الجريدة الشريرة كانت تدخل البيت كلّ يوم ذاهبةً في مهنتها . اما هو فكان يقصد ان يهرب من عامل الفساد فالموت ، محاولاً التملّص مما يقلقه ويخاتله ، متحرّرًا من الشرّ مرةً اخرى

لكن واحرّ قلبنا عليك ايها الشاب ! اننا نحبّ نفسك الكريمة . نعم كريمةٌ نفسك ولكنها ضعيفة ايضاً . فلمن النصر في هذا العراك ؟ أللظلمة ام للنور ؟ أتخرج من هذه الحرب طاهر الذيل ام تنشب في الشرك فتخسر عفافك وتتمرغ في حمأة الدنس كثيرٌ سواك يدفعك اليها ابوك الاحمق مسيئاً اليك والى نفسه الى الابد ، كما يتمرغ فيها ؟ هذا ما سنرى الجواب عليه في الصفحات التوالي

٧

أدّى لوسيان فحصه في اوائل تموز فنجح نجاحاً باهرًا ، اما هنري فقد أصاب نجاحاً في الفحص الكتابي واخفق في الشفهي ، فامتعض آل ميرامون وخجلوا . لكنهم تمحلوا الاعذار لولدهم

فقالت امه لصديقتها ام لوسيان : ان ابني كان جدّ تعبٍ في هذه الايام الاخيرة ، فكان قليل الاكل متقطع النوم وقد فقد

الكثير من حميته ونشاطه . كل هذا مسبب عن التعب وقد بتنا في حاجة ماسة الى العطلة ترويحاً لنفسه من اوجاعه ، وتشديداً لاعصابه المرتخية على ان هزاله واصفراره يخيفانني

فقالت ام لوسيان : ألا سلّمته اليّ . فاني لباذلة له ما ابذله لولدي ، وجاهدة في ان اريه مشاهد جديدة ، وفرحه بالجديد انفع له من اتباع مشورة الاطباء والتقيد باوامرهم . سوف اسافر به مع لوسيان الى ساڤوى فسويسرة فايطالية . وقد طالما فكرنا في هذه النزهة ولكننا كنا ننتظر الفحص ! . . .

فدهشت عقيلة ميرامون وقالت : ايطالية ؟ ألى رومية تقودين ابنك ؟ اما حسبك ما هو عليه من التقوى ؟ . . . أبودك اذن ان تطرحيه للوساوس الدينية غنيمةً باردة ؟

— طلب مني هذه النزهة وقد فهمت ارادته ، فلبيت رغبته ، لاني عالمة ان ابني قاطع الآن من حياته أحفل مرحلةٍ بالرغائب والاحلام . . . أتعلمين يا لويز ما اسرّ اليّ ليلة فحصه ، ليلة كنت اداعبه ويداعبني ، واذكره بالماضي وما قاسيناه ، واحدثه عن المستقبل وآمالي فيه ؟ ! !

— لِمَ تبكينَ ؟ ايتعبك ولدك يا صديقتي ؟

— ان لوسيان يا لويز سيصير كاهناً ؟

— كاهناً ! ألك رضىً بذلك ؟

اجابت السيدة ريشيار بصوتٍ هادئ : أتذكرين يا لويز امانيتا وقت كنا بنات ، يومَ كنت اتمنى ان يكون لي اثنا عشر ولداً وقد اخترت اذ ذاك لكلٍّ منهم مستقبلاً : لهذا ان يكون

ضابطاً وذاك فلّاحاً والثالث طبيباً والرابع ملّاحاً وقد خصّصت الله بالولد البكر ؟

— اذكر ذلك ولكنه من احلام الصبا

— لما صرت امرأةً سعيدة وأحسست اني موشكة ان اكون اماً أمعنت في وعد الصبا هذا فكنت اذهب كل مساء الى الكنيسة في زيارة خاصة لقبر الرسول العظيم الذي بشّر بالايمان في ولايتنا القديمة وكان اول اساقفتها . وكنت أسأله ان يبارك الجنين الذي احمل ويستمدّ له من الله خُلقاً مستقيماً حرًّا وقلباً شريفاً نقيًّا ثم يختاره لخدمة النفوس ، خدمة يسوع المسيح . أليس من الواجب علينا ان نقدّم لله بواكيرنا ؟ . أجل قدمت بكري لله قبل ان اضعه . . .

فامتعضت عقيلة ميرامون وقالت : استجاب الله طلبك . فكان التعس يترقبك . سقط زوجك عن صهوة فرسه فمات ولمّا يبلغ الربيع الثامن والعشرين بعد وذوت زهرة حياتك في ميعة شبابك

— كان في قدرة الله ان يسلبني كلّ شيء فأشفق عليّ وابقى لي ولدًا !

— ولدٌ وحيد ! وأنت تسلّمين بانفصاله عنك . أسلّم بأن تعطي الله ولدًا لو كان لك كثيرون ، اماً ان تعطي وحيدك ؟ ! فذلك مستحيل ، لا ! لن ترضي بذلك ولن تفعلي ولن تقوي ! وما من احد يمالئك على هذا . أسمعتِ ؟

حُدّثتُ امس عن اسرة جاليس المتدينة المجلّية بعدد من قدمتهم من ابنائها للكهنوت والرهبانيات . فان ابنتها لحقت معلّماتها ،

راعيات القلب الاقدس ، الى اسبانية وابناءها نُفيا الى بلجيكة ليختما دروسهما عند الآباء اليسوعيين وأصغرهما وأذكاهما نازعٌ الى الكهنوت . اما والداه فما في نيتهما ان يصنعا ؟ سيسترجعان الشاب المتهوّس ويدخلانه في تشرين الاول احدى مدارس باريس العلمانية

فتفرّست السيّدة ريشيار هنيهةً في وجه صديقتها وقالت :

— ما رأيك في ذلك يا لويز ؟

— لا رأي لي . بل أرى ان من واجبنا ان نحتاط لامر اولادنا فلا ندعهم يستسلمون للعواطف الدينية والوساوس . ألك ان تسمعي لي كلمة : انك لم تحمي لوسيان ، بل انت التي قذفت به الى الحالة الاكليريكية . وقد أفرغت كل حيلة من شأنها ان تبلّغه هذه الغاية

— انك لواهمة يا لويز ، ما افضيتُ الى ولدي بانه يسعدني اذا ما قدّس نفسه لله ، بل لم المح له عن ذلك تلميحاً خوفَ ان يجعل رغبتي رغبةً له . اما انت فصادقة في قولك : انني استنزفت جهدي لاخلق فيه نفس كاهن وعقدت النية على ان ارعى هذه النفس فملت بها عن التجارب والمخاطر لصيانة نقائها واندفاعها الى الخير

— ويحاً لك من امّ لا تفقه معنى المحبة ! ويا لك من امرأة ترضى بخسران وحيدها ، وهي مسرورة القلب ، قريرة العين !

— لو ادخلته بحر العالم يا لويز لعرّضت نفسي لخسرانه ، اما اذا قدّمته لله فاظلّ على ثقة بانه باقٍ لي . . .

— كفى ! . . . عدّي عن هذا ! ان لوسيان شابّ في مقتبل

العمر . فلا بدّ من ان يطرأ عليه ما يبدّل افكاره ورغباته . واذا كان يهرب الآن من العالم فلانه لم يعرف العالم بعد . على انني سادعوه في هذا الشتاء الى اجتماعاتنا . فهل انت آذنةٌ له بقبول الدعوة ؟

— في هذا الشتاء ؟ سيكون ولدي في مدرسة سان سولبيس منذ اوائل الخريف

— المدرسة الاكليريكية . انه في السادسة عشرة

— بل ان له من العمر نيّفاً وسبع عشرة سنة

— جنون ! جنون مطبق !

— كنت معتزمة ان ادرّسه الفلسفة اولاً في مدرسة اوزانام ثم يذهب الى معاهد «أنكار» الكاثوليكية ليستعدّ لشهادة المأذونية في الآداب فاعترضني بقوله : انه لا يصبو كثيراً الى درس الآداب ولكنه يدرس الفلسفة سنتَين في المدرسة الاكليريكية . وانه لراغب في حياة الصلاة والخلوة . ومعلّمه يحثّه على ان يعجّل في دخول تلك المدرسة وان من الصواب عندي ان يدخل . فلوسيان لا تنفكّ سذاجته تنطقه بانه ليس من النوابغ وليس له من وفرة الذكاء ما لابنك ، وربما نقصته المواهب العالية . فلا يكون في مستقبله لا خطيباً مصقعاً ولا معلّماً ماهراً . وهو آنسُ هذا من نفسه وراضٍ بحاله . فكل رغبته منحصرة في ان يكون كاهناً قديساً ، وقد تربّى للكهنوت ودرس اللاهوت ، ويسرّه ان يرى نفسه بعد سنوات كاهناً في احدى قرى فرنسة او مساعداً لكهنة الرعايا الكبيرة . وهذا المستقبل الوضيع هو قبلة آماله وغاية رغبات قلبه

وانه يفكر منذ الآن بالتعليم المسيحي الموشك ان يشرحه، وبالاولاد الفقراء المستعد ان يعتني بهم ، ويعدُّ العدد لكسب نفوس كثيرة ليسوع المسيح

— اما انتِ يا صديقتي المسكينة أفلا تفكرين بنفسك ؟

— انا ؟ أية رغبةٍ لي في الحياة سوى ان اراه سعيداً . كان في استطاعة ابني ان يسلك الى سعادته طرقاً أثيمة او يستعد استعداداً يمكّنه من جمع ثروةٍ ضخمة فيعيش لنفسه ، لا يهتم من تعس الدنيا شيء ، غير انه بحث عن سعادته فوجدها في الكفر بنفسه ! أهذا يؤلمني ؟ ؟

— آه لِمَ استرسالنا في الحديث والحديث شجون ؟ عبثاً نحاول ان نتفاهم ونحن لا نتبادل لغة واحدة . لو كنت مكانك واضطررت الى ان اضحّي بابني لآثرت ان ... اموت ... قالت هذا وأجهشت . ولربما كان في دموعها بعض الخوف والاسف وقلق الضمير . فأكبّت عليها صديقة صباها محاولةً ان تهدّئ روعها وتسكّن هياجَ عواطفها واعصابها !

وكان على كثب من المرأتين الأمين ، تحت ظلال الوردة ، خلف البيت ، هنري حزيناً ، ساكتاً ، ولوسيان يكلّمه معبّراً له عن سعادته وفرحه باعتناقه الحياة الاكليريكية

— آه ! يا هنري لمّا عرفت امي ما صنعت عليه وانتهت من الرسالة التي تلقّتها من مرشدي ، اركعتني بجانبها لنشكر الله معاً على ذلك الشرف الباذخ الذي قلّدنا اياه . انّ امي لقدّيسة ، قلت يا هنري قديسة ، ويا لعظم سروري اذا ما اضفت الى محبتي لها من

عواطف اجلالي ما هي جديرة به

اجاب هنري بحرارة النفس : انك لسعيد حقًا يا لوسيان !

— أجل ، اني لسعيد ولاسيما انني سأزور رومية قبل دخولي المدرسة الاكليريكية ! آه ما اسعدني ! وكأني بزيارتي لرومية ذاهب لاغمس يدي المرتجفة في قلب الكنيسة الحيّ ، مثبتاً لها امانتي على تعاليمها ، مقسماً بالله اني على استعداد لخدمتها . ان الله لمغدقٌ عليّ نعمه يا هنري . غير أنّ في سماء فرحي سحابةً سوداء . انا مكره على تركك . وكان في حسباني ان ندخل المدرسة الاكليريكية معاً كاخوين جنديّين باسلَين ! وأملي بالله وطيد ان يقصر ايام تجربتك . سوف اكثر من صلاتي لك ! فلا بدّ لقلبي والديك من ان يلينا فيحرّاك . ثق يا عزيزي ان لكل شيء نهاية مهما طال . فلا تخف . ان يومك لقريب !

فاغرورقت هنا عينا هنري بالدمع فاشاح براسه وقال :

خمس سنوات ! آه ما ابعد يومي ، يا لوسيان !

٨

سافر ابن ريشيار مع امّه الى جنيف وجاءت عيلة ميرامون الى بيارتس ، فسكنوا بيتاً فخماً كان ينتظرهم فيه السيّد مارجولي واولاده منذ اواخر حزيران . وقد اتفقوا ، هذه السنة ، على ان يعيشوا عيشةً اجتماعيةً لذيذة اعدّوا لها عدّتها ، مصمّمين النية على ان يذهبوا معاً الى التنزهات ، ضاربين في الجبال ، ترويحاً للنفس . وكانت هناك اسرتا بالسول وفلورزاك ورفيق المسافرين ، صديق مارجولي ، السيد شارتير

وما اجتمعوا حتى أعلنوا بيان الملاهي

قرأته عقيلة ميراموت وما تمالكت ان سالت : أليس في هذا البيان ما يتعب ؟

اجابت ليلى : كلّا ، يا عميمة . لم نكتب فيه قطّ إلا حاجتنا . وقد كفلت انا والفرادة أن نمثل ما شئنا ، وعلى هؤلاء السادة ان يصفقوا لنا

فعكفوا على اللهو والقصف . وكان روّاد الاستحمام في بيارتس يشاهدون هؤلاء الشبان ورفيقاتهم في كل مكان : في المقاهي واندية الموسيقى وعلى الشواطئ يلعبون التنس ، وفي السيارات تنهب بهم الطرق الى اسبانية او قرى الارياف ، حيث شاع امرهم وما هم عليه من الظرف الخلاب والعكوف على الملاهي والتهافت على الملاذّ . كلّ ذلك غرّ معظم الغرباء فأقبلوا اليهم يكتتبون في جوقهم . ومنهم كونتة روسية وثلاث كونتات انكليزيات مثابينات في العمر والعادات وعيلتان اسبانيتان وشاب برازيلي يناهز الثلاثين اسمه اميليو دي لاڤاغا

ولهذا البرازيلي حكاية ، فهو رجل غنيٌّ يملك في سهول الامازون ارضاً واسعة مغروسة بشجر المطّاط . ويزيد ثروته استغلاله مناجم النحاس في جبال البرازيل ، وهو وطني صميم ، خاض معامع السياسة في بلده ، موطدًا النية على خدمة مواطنيه بماله وجاهه . غير انه قبل ان يربط حياته بنظام عنّ له ان يأتي هذه السنة الى بيارتس ، رغبةً منه في ان يحسّ وتر النساء الفرنسيسيات ، وقد قرأ الشيء الكثير عن لطفهنّ وما هنّ عليه من جمال واناقة . ومما اسرّه الى

احد اصدقائه قوله : اذا قدرت واحدةٌ منهن ان تفتنني فاني لمتزوّجها وان مُملقةً لا مهر لها . فلم تخفَ نيات اميليو على جماعة مارجولي فضربنَ حوله نطاقاً ورحنَ يتنافسنَ في اكرامه والتزلف اليه ، رغم استخفاف السيد ميرامون به لاعتقاده ان صاحب الملايين يستحيل ان يجمع بين المال الوفير ولطف العشرة والشعور

حاولت الفرادة ان تفتن قلب البرازيلي بالتبرّج المسرف والاحاديث الخسيسة . وكانت ليلى ترشقه بابتساماتها الجذّابة . اما هو فكان قبلة احترام البنات والامّهات على اختلاف أسرهنّ ، كثير الانتباه والاصغاء اليهنّ حتى خيّل الى كل منهن انه يحبّها ويتودّد اليها فوزًا برضاها . فامتعض من ذلك شارتير وقد ابتلعه النسيان . فاخذ بالطعن على اميليو معرّضاً بادبه وتودّده الى السيدات والاوانس . فاستنكر ذلك منه المقامر المشهور غاستون مارجولي فقال : لا تندّد بالبرازيلي ، فهو صديقي وشريكي في اللعب ، ويعجبني منه انه لا يبالي وقد خسر البارحة خمسين ليرة فرنسية ولم ينقطع عن مغازلة الفرادة . . . امّا رقصه فحدّث عنه ولا حرج ، انه لأمير هذا الفنّ . لقد خاصر ليلى في مرقص الكازينو فلفت اليه انظار الحضّار جميعاً . سل هنري عن هذا

فانكمش شارتير وقال : متى كان ابن السابعة عشرة يا هنري يدري شؤون الرقص واحكامه ! ؟ أو على خبرة من مراقبة الراقصين ؟

فاعترضه غاستون وقال : انك لبسيط ، يا ابا الشقراء ، ان هنري لاخبر منك بهذه الامور وادرى

وكان ذلك صحيحاً لان هنري عدل عن مقاومة التيار العالمي فجرّه هذا التيار الى هاوية سحيقة من الانغماس في الرغبات . فكان يرافق غاستون الى المسارح واندية الموسيقى فيجلس جاوسه الى الطاولة الخضراء ويشرب معه الكحول على سطوح المقاهي ، ويبادل الشبان احاديثهم المجونية ، وهو الذي كان ، لاشهر خلت ، يخجل من ان يتلفظ باية كلمة بذيئة . كان يقرأ ما شاء من الجرائد والمجلات الملقاة على مناضد المقاهي وفي المصوّرات ، يهديها اليه اصدقاؤه الجدد لتكون انيسته بعد استحمامه ، وما هو بمدهوش لما يقرأ فيها

على انه حين كان يخلو بنفسه بعد الغداء مستلقياً على فراشه او جالساً على كرسيّ كان يحدّق الى السماء الصافية او الخضم الواسع شاعراً بغيمة من الحزن تخيّم فوق رأسه والاسف الشديد يقض مضجعه ثم يرمز من جهة اخرى الى زوال اللذّات فيحس منها بفراغ في نفسه وحرارة في قلبه . كان ينصب من ناظريه ميزاناً يزن فيه من حوله من رجال ونساء واحداً بعد واحد ، فلا يجد غير المكر والانانية والحطّة والخمول والشك والمباهاة بالخلاعة والفساد . هذا اذا استثنى عمه مارجولي الذي لم يكن يشينه الاّ خفته وارخاؤه العنان لاولاده ووالديه واخته الشرفاء المغرورين ببيئة غامضة . وكان يرى نفسه على شفا هاوية لا مناص له من السقوط فيها ، ان لم تداركه اعجوبة من الله تدعمه

شوق حارّ ورغبة لهّابة كانا ينفخان في صدره . آه ليت الشباب يعود ! ليته يسترجع طهارته ! ليته ينسى هذه الامور البذيئة

الخسيسة ، وقد لطّخت افكاره فافسدتها ! ليته يستردّ تلك المخيلة العذراء التي لا عهد لها بالشرّ ! ليته يرجع الى معتقده بالخير ! ليت في طوقه ان يخلع عن نفسه حلّتها في عامها الخامس عشر ! ليته يستعيد نفسه الكريمة ، نفسه الطاهرة ، الساذجة ، نفسه المفتوحة للانوار السماوية ! !

كان يفكر في لوسيان يزور الجبل الابيض ويمتّع عينيه بمناظر بحيرات ايطالية ، وقد وقف على اقنية ڤانيس . وكان يردّد في ذهنه بعض مقاطع من رسائله : « سنصل الى رومية بعد ثمانية ايام واصلّي على قبر الرسول بطرس ، واقبّل ارض الكوليزة ، واحضر القداس في الديامبس . لا ! لن اخاف المستقبل ، يا هنري ، ومقاصدي هي هي . فليخف وليرتعد من يتكل في هذا العالم على خليقة ضعيفة ، متقلّبة . اما انا فمهما اخاف والله يرعاني وعليه قد توكّلت ؟ وبه قد آمنت » . هذه الاسطر كانت صدى نفس حرّة جميلة قويّة ! فاي فرق ادبي بين هذا الصغير لوسيان ريشيار ، وقد اتهمه بعضهم بالجنون ، وحياة الكاهن الشابّ وحياة غاستون من حيث النفع والاثمار ؟ ان هذه المقايسة خلقت في قلب هنري افكاراً فقال :

كان عليّ ان تماثل حياتي حياة لوسيان ، بل كنت اقرب الى التضحيات منه ، ورغبتي أحمى ، وحميّتي أذكى ، وكنت اشدّ ترغيباً له في الكهنوت منه لي . اماً اليوم ؟ . . .

سيدخل لوسيان المدرسة الاكليريكية في إيسي وكانا قد عقدا النيّة مرّات على ان يدخلاها معاً ليشرعا في دروسهما تحت

ادارة «السوليسيتين» الرشيدة . وما طالما سمع هنري معلميه في مدرسة اوزانام يتكلمون عن مدرسة إيتي وكان يسألهم عنها بلهفة . لقد حرم نفسه رياضات الدخول والمنافسة المقدسة التي كان من شأنها ان تحمله على فضيلة التواضع ، فضيلة الدقة في حفظ النظام ، فضيلة الغيرة الرسولية ، حرم نفسه تلك الخلوات الطويلة في الكنيسة حيث يتسنى للاكليريكيين ان يناجوا فاديهم ويسلخوا عن قلب ربهم ، الكاهن الابدي ، مثالاً لقلوبهم الضعيفة

فكر هنري هنيهة ، ثم سأل نفسه : لماذا لا ادخل انا المدرسة الاكليريكية ؟ لماذا ؟ وللحال اخذته الرعشة . تسعة اشهر يقضيها كالمسجون ، حيث تتشابه الايام بنظامها ، يتخللها رياضات روحية ، صعبة ، مزعجة ، انكباب دائم على الصلاة وعلى دروس ناهكة . لا لم يبق في قوته ان يصمد . تزهات الاكليريكيين ذاتها تضجره ، اعياد المدرسة المبهجة لا تشوقه ، ولم يكن الاّ مقابلاً بينها وبين اللذات والملاهي التي كان يكرعها ويعدها تافهة ، ولاسيما وقد عنت له لذات اخرى لم يكن قد ذاقها ، فكان يحسّ بانجذابه اليها كالعصفور تصليه الحيّة وهو يحاول الطيران فراراً منها ولكنّ وهج الشرّ يبهر عينيه ومغناطيسه يجذب حواسه ، فهو مغلوبٌ على امره . وكان ابداً يردّد في نفسه : كلّا ! لا استطيع ! مستحيل ! وما زال غارقاً في هذه الافكار حتى سمع حفيف اثواب وجلبة اصوات وضحك . فأفاق من احلامه ! وقد حان وقت الافراح والملاهي . نهض فاذا بعجيج السيارة يناديه من امام الباب الى الحانة لاحياء اعياد جديدة . وكانت ليلى تداعبه وتقول له :

ألا تنفك نائماً ! لماذا سمّوك انطوان ولم يسموك هيلين ؟ حبذا لو كنت من الشعراء. وما يمنعك ان تكون كذلك ؟ أتعلم ما عملت احدى ملكات فرنسة ؟ لقد قبّلت نائماً بلطف ، لا لانه كان جميل الوجه ، بل لانه كان شاعراً وقد قال فيها قصيدة .»

فخجلت مادلين من هذه الاقوال وصرخت : الفرادة! يالوقاحة! يا للشك !

ثم التفّ حول البنات جماعة من الشبان ، فمدّ شارتير لليلى يده ليقودها الى الحانة ، فأبت شأنها في كل مواقفها ، وهي لا تعمل الا ما طاب لها

ثم قالت : لا اريدك يا شارتير ، لان ضخامة جسمك تخيفني وتنهدك وتنفسك يزعجانني ! ولا انت يا فلورزاك ، لانك غليظ الذوق ، وكلما رافقتك دست اثوابي ومزّقتها . ولا انت ايها السيد دي لاقارغا لاني حانقة عليك منذ الصباح : اني احب ابن عمي ، اجمل شابٍ عرفت . ان له رأساً كرأس راعٍ سيسيلياني ، انه ولئن لم يمدّ لي يده فسأهاجمه وأكرهه على ذلك . هات ذراعك يا هنري ، ولنفتتح الطريق ، يا أحبّ الناس عندي ؟ !

٩

سافر آل مارجولي في هذا النهار الى بلدة اسمها سان سبستيان ، بعضهم في سيارة مارجولي والبعض الآخر في سيارة إميليو البرازيلي . وقد ألوى شهر آب ، فتركت پيارتس عائلتا بالسول وفلورزاك . اما عقيلة ميرامون ، وقد أعياها التعب من تلك الحياة ، فقد اخذت تهتمّ بسفرها وتهيّ امتعتها . وبينا كانت السيارة تقطع بهم قرى الحدود

وقد انسابت تحت نظرهم انسياب البرق جنائن رنتاربا وخليج پازاج الازرق على سفح جبل جايزكيل الاسود ، حزنت مادلين وتنهدت وقالت : هذا آخر عهدنا بنزهات هذا الصيف

امّا ليلى فقالت : متى يبتُّ هذا البرازيلي رأيه في المرأة التي فتنت قلبه . فاحتالي لنا عليه في ذلك ، يا عميمة ، واصنعي الينا صنيعةً . فمن الضرورة ان نعلم اَيتنا أعجبته فملكت عليه فؤاده . من المؤكد ان احدانا استهوته لانه لم يفارقنا قطّ . ومن البيّن انه لم يبقَ عندنا حبًّا لاحاديث غاستون ولا نكات شارتير . كوني سياسية مَرنة ، فقد وكلنا امرنا اليك

ثم التفتت الى ابن عمّها فضحكت وقالت : ما رأيك يا هنري؟ أأحبّني ام احبّ الفرادة ؟ ان لالفرادة في الحياة حظوظاً . امّا انا ؟ فان صحّ ظنُّ الناس ، فاني مؤملة بل واثقة . . . انه لزوجٌ غنيٌّ ! وكم حلمت بمثل هذا الزوج . . . سيبني لي قصرًا في باريس . . . فتزورني انت هناك ، يا ريكة ، بعد ان تختم درس الحقوق ، فلن اتركك بل اكون لك ملجأً لاني عارفة بحاجتك الى من يعضدك ويسهر عليك . . . فغضب هنري من لهجة ابنة خاله الساخرة وهمَّ بالاحتجاج عليها، فخنقت ضجّة البنات صوته ولم يستطع ان يتفوّه بكلمة قطّ . وكانت السيارة قد بلغت ساعتئذٍ اعالي «ميراكيز» حيث يمتدّ النظر بعيدًا على وادي پازاج ، ومن هناك اخذوا يطوون البلدان والقرى الى سان سبستيان في طريق قامت على جوانبها الجنائن والبيوت المطلية الحيطان . . .

فامرت الفرادة السائق ان يقودهم الى ميرامار . قالت : ربما

اسعدنا الحظ فرأينا الملك الفنس . اما ليلى فما كانت لتنتبه الى المناظر الجميلة ولا الى الرغوة المزبدة المتطاولة على جدران روجب اوكس وصخورها، بل كانت تتفرس في المارين وما تمالكت ان قالت :

لا لا أحب الاسبانيات : انظروا اليهن فليس عليهن من الجمال مسحة . لا يعرفن من الاناقة شيئاً ولا يملكن من حسن الهندام ذرة . لم تركن المناديل ؟ أليلبسن هذه القبعات الكريهة !

وبعد ان دارت السيارات حول عاصمة « غيزكوا » ، وقفت في متنزه « المادا » تحيط به عن الجانبين المقاهي الكبيرة ، فيها الاغنياء روّاد الاستحمام يروحون ويجيئون تحت سقف من الخضرة حيث المنافر ترمي الفضاء بمياهها ، فتتساقط على الورود والياسمين وسائر الزهور الكثيرة على اختلاف الوانها واشكالها . وكان زمرة من الاولاد يمرّون بين الجماعات يتقدّمون من المتنزّهين ويعرضون عليهم السفر الى امكنة اشهر من هذه يبعث مجرّد ذكرها في الناس الرغبة في زيارتها : الى لويولا ، الى هرناني ؟!!

فتقدّم البرازيلي وقال : نذهب الى جبل ايليا لان في عزمي ، يا سيداتي ، ان اريكنّ مشهداً لا مثيل له ، وهو الوحيد في مذهبي في العالم . قال هذا وركب معهنّ القطار الكهربائي فطار بهم يلجّ صُعُداً بين اشجار الصنوبر

لم يكن ، وايمُ الحقّ ، في كلام اميليو دي لاقاغا مبالغة . فما للمشهد الذي وصف مثيل في العالم ، فاذا وقفتَ هناك امتدّ نظرك الى الافق البعيد ، والبحرُ منبسط تحت عينيك حتى لتشعر انك

امام اللانهاية : على اقدامك مدينة سان سبستيان الممتدة شبه جزيرة في البحر يغسلها بامواجه . وبيوتها المدهونة الجدران بالوانها المختلفة تبدو لك ضاحكة ، وخليجها الازرق الممدود بين الآكام السوداء يمثل للعين بحيرة هادئة واذا سرحت نظرك رأيت آكاماً كأنها منضدة تنضيداً ، وقماً خضراء تعلوها وتهبط هناك ، وبين ثناياها بعض مصايف رائعة الجمال . وبيوت للمزارعين منفردة ، وقرى الارياف التي اطلقوا عليها اسماء قديمة العهد ، مثل اويسوم ، أليه ، تاغريات الخ . وأفق البحر الواسع يختم من جهة اليمين خطوط جبال البيرنه الفرنسية العالية ، وينتهي من جهة الشمال عند جبال الكنتابر اللائحة من بعيد بضخامتها كانها سور له . ويبدو كأنه غريق او يكاد في ضباب مذهب

ما وصل القوم الى هناك حتى نبا هنري عن مرافقة بنات خاله المزعجة ، وانتحى من الجبل اعلى قمه وجلس بين العشب والخلنشار ، فلحقته امه وجلست بجانبه ، فظل هنري جالساً جلسته معتمداً على ذراعه مفكراً صامتاً

فقالت الام : قرة عيني ، هنري ارى ان زهرة صداقتنا ومحبتنا ذابلة . كيف وانت الولد المعجب بالمناظر الجميلة لا ترى شيئاً تقوله لامك عن مشهد نادر المثيل في العالم . أتذكر انك ما كنت تريد في ما مضى ان ترى شيئاً او تتعجب من شيء الا اذا كنت معك ، فتذهب في عواطفك وتفتح لي قلبك ، وكنت اشعر اني أحيا حياتك وادرك كنه قلبك . اما الآن فأرى انك منذ شهور وشهور قد حبست عني ثقتك ، فاصبحت لا أدري فيم تفكر

ولا فيمَ ترغب ، فأمسينا غريبَين ، ويلوح لي أن بين نفسَينا لسدًّا من جليد . آه ! ما آلم ذلك لقلبي ، لو تدري ! . . .

قالت وبكت بكاء صامتاً وشرّ البكاء ما كان صامتاً !

اما هو فتعمّد البرودة وتمم هذه الكلمات :

« هي الحياة قد تفترق فيها الحظوظ ، وتختلف الاميال . وقد تُغلق أشد القلوب توافقاً إغلاقاً ابدياً . والذنب في هذا بعض الاحيان ذنب الاولاد ، وغالب الاحايين ذنب الامهات

— ولدي ! هنري ! أعندك ما توآخذني عليه ؟ قالت هذا ورنّ في مسمعَيها وقع اقدام على السلّم تحتها . فصمت هنري وأشار الى امّه أنّ هذا هو السنيور اميليو أرسلته اليكِ ليلى لتقنعه بان يطلب يدها . فاني اتمنى لكِ النجاح في مهمتك . وها اني اتركك وإياه

وما أتمّ كلامه حتى كان اميليو على كثبٍ منها ، فحيّا الامّ وجلس . ثم أخذ يوطئ لما في نيّته ان يكاشفها به ففاجأها بانه مسافرٌ قريباً الى البرازيل لانه تلقى تقارير هامّة عن منجم من مناجمه اضطرّته الى السفر حالاً

فضحكت ام هنري وقالت : وما يقول عنك الرواة والقصّاص وقد أثبتوا لنا انك لست تبارح پيارتس الاّ وقد اختارت لك امرأةً من بين نساء فرنسة الجميلات اللواتي رأيتهنّ وعاشرتهنّ ؟ ؟

فحدّق البرازيلي اليها وقال : هل صدّقتِ الرواة يا سيدتي ؟

قالت : كلّا ! وكان زوجي يرى رأيي . فان شاب القرن العشرين في شغل عن القصص

قال وقد غيّر نبرة صوته : « ان هذا لمن الغرور يا سيدتي . انا قد بلوت الاشغال وانهمكت فيها وحاولت ان اذوق لذة الاختيار لامرأة أهواها، ولا يهمني مهرها بل عقلها وجمالها . فوجدت ضالّتي الفرنسية ففتنت ابي وملكت عليّ جوارحي ، وقد اخترتها ولو سمحت لي ظروف الحال لاعلنت لك اسمها

— بحقك قل : ألا تحبّ واحدةً من بنات اخي ؟ قل الصحيح ايها السيد . لقد تحدّث الخلق طرّاً بذلك ، ولكنهم لم يستطيعوا معرفة أيّتهنّ وقع عليها اختيارك ! ان الفرادة ذات ذكاء ثاقب ، عصرية . امّا ليلى فما زالت صغيرة السن ولكنها دقيقة النظر ، نادرة الجمال

قال البرازيلي : لن اتزوج لا هذه ولا تلك . انهما على ما تصفين من المزايا الحلوة والجاذبية الاميركية، ولكن ليس عليهنّ مسحة من الجمال الذي انشد ، الجمال الفذّ الممزوج بالرصانة والتأنق والعذوبة . . . يشرّفني يا سيدتي ان اتقدّم اليك طالباً يد الآنسة مادلين ابنتك . . .

١٠

كيف استطاعت مادلين الحيية ، الرصينة ، المحتجبة، ان تحرز قلب السيد اميليو دي لاقارغا ، ذاك سرٌّ طالما اجتهدت بنات مارجولي في ان يكشفنَ قناعه ، فلم يقوينَ . وكان لطالب البرازيلي يَد مادلين أثر عميق في قلوبهنّ ، خلط عليهنّ مذهبهنّ في فنّ الجمال والتبرّج . فتأسفت الفرادة شديد الاسف ، لانها خسرت الملايين وقد قاربت يدها وثار ثائر ليلى وقد عرفت ان

جمالها لم يكن بذي تأثير في قلب اميليو . غير ان الاختين ، على امتعاضها ، تظاهرتا بأنهما اسعدُ الناس ، بما نالت مادلين من حظ وما احتاطتاها به من ضروب العناية والتبجيل . وكانت ، لايام خلت ، منسية ، ولعلها مزدراة بعض الازدراء . امّا اليوم فقد طوّقها الجميع يحاولون وصلها

انقضى الخريف بالحيطة وعقد الاجتماعات لاختيار الوان الاقمشة وطرق تفصيلها . وكان لكل هذه الحوادث والآتي شيء من التأثير في عقل هنري . فهو يدرس الفلسفة بلا حمية ولا نشاط ، فان سفر لوسيان الى المدرسة الاكليريكية تركه وحيداً لا عون له ولا سلوى ، فاستسلم لشهواته التي اوقد نارها فيه غاستون مارجولي وشارتير . فاعتاد هنري ان يرافق ابن خاله كلّ احد وخميس الى اندية القمار والرقص والموسيقى والمسارح ومجالس اللهو وما تبقّى ، وجفا الاسرار المقدسة . فراع معلّميه جمود الحياة الروحية فيه وكانوا يسألونه بلطف عن اسباب ذلك ، فيجيب انه يجتاز ازمةً من الشك والريب خانقة

ان الشك في الحقائق الدينية عند السواد الاعظم من الشبان الذين تربّوا تربيةً مسيحية لبرهان ناطق في اغلب الاحيان على انحطاط حياتهم الادبية . ومن عرف ان يحتفظ بطهارة افكاره وقلبه لايجد الشك سبيلاً الى عقله وقلبه . اما الذي يرخي العنان لاميال الزائغة ويستسلم الى المفاسد ، فتتزعزع عقيدته لان حياته مناقضة لايمانه ، فلا تبقى الديانة عنده ذلك اللجام الكابح ، بل تمسي نيراً ثقيلاً لا قبل له بحمله ، ويحاول ان يتحرّر منه مهما جشمه الامر من مشاقّ

كان لهنري ايمان وطيد ولكنه كان راغباً سرّاً في ان يفقد ايمانه ، فانصبّ طوال الشتاء ، بحجة درس الآراء الفلسفية لعظام الفلاسفة ، على الكتب ذات الحبائل التي لبّست على الكثيرين افكارهم وافسدت معتقدهم وكانت سبباً ، ان لم يكن وحيداً فأولياً ، لهذه الفوضى العقلية والادبية التي يتخبّط فيها المجتمع العصري . زد على ذلك البيئة التي ترعرع فيها : ألم يكن يرى حوله ، في بيته ، اناساً قد اعتنقوا هذا المبدأ او ذاك ، اذا استثنيت والديه المتمسكين بالادب التقليدي . فيسمع عمه مارجولي يعترف بانه من تبّاع تولستوي ، والفرادة تلميذة صادقة لنياتر ؟ وغاستون وليلي وشارتير ملحدون لا يؤمنون بالحياة الاخرى فيستعيضون من حلّ احجيتها بتهافتهم على خيرات هذه الحياة . كان هنري ، اذا طوى كتبه وقد رأى فيها آراء الفلاسفة المتضاربة ، يتساءل : تُرى اين الحقيقة ؟ وما الحقيقة ؟ كانت هذه المباحث ، وقد تفهت في عينيه ، تتعب عقله فيجنح عنها الى الاباطيل

جاء عيد الميلاد ، فافتُتح موسم الاعياد في بيت ميرامون ، ورجع اميليو دي لاڤاغا من البرازيل في اواخر كانون الاول . وكان والدا مادلين قد استقصيا اخباره واخبار أسرته وثروته ، فتجمّع لديهما منها ما ازال تردّدهما ، فاغوتهما الملايين ورضيا بمنفى ابنتهما البعيد . ولولا هذا لما سلّما بذلك . وضربا منتصف كانون الثاني موعداً للخطبة

مضى ذلك النهار وبنود الفرح تخفق في بيت ميرامون . اما هنري فكان الالم يثقل قلبه . وفي استقبال المساء انتفض بجملته

غيرةً ولم يتحتمل مداناة ليلى للشابّ فلورزاك . وأنّى لـه الحق ان يتجاسر على رشق ابنة خاله باللوم . فامتعضت ليلى وحدجته بنظرة شزراء ملؤها السخرية ، ثم كلّمته فاصمتته وكسرت شوكة كبريائه فسترته في مكانه . فحنق ايّ حنق . وبينما كان المدعوون يرقصون ويقصفون في المنتدى كان هو قد انزوى في غرفته فأكبّ على مكتبه واخذ يشهق كيداً ويقول :

حتامَ الغرور ؟ انا عالم اني أحبها ! اجل اني احبها حيناً وأبغضها احياناً . مَن لي بلذّة اخضاعها وقصاصها وتعذيبها كما فعلت بي هذا المساء ! مَن لي بحلاوة ابكائها فتُكفّر عن ابتسامة الهزء التي رمتني بها في هذا المساء ! . . . ولكن اتفقه ليلى كنه هذه الامور ؟ أتعرف ما البكاء ؟ ما الندامة ؟ ما الحنان ؟ . . . انها ليست بذات قلب ، لا تحب في الدنيا الاّ ذاتها ، ولا تحترم في الحياة الا جمالها ، ولا تُعنى الاّ بتبرّجها ، وان كنت لا احترمها فلمَ احبّها ؟ آليت على نفسي والله ان لا اتزوجها ، وفيّ يقيني اني ، اذا ارتبطت بها ، جلبت على نفسي من الاهوال اشدّها ، ومن العذابات أفدحها . . . اذن فما عليّ الا النجاة من براثن حبّها ، ومحو صورتها من عقلي ومخيلتي . . . انت ايها المتعاس هنري ! تعرفها وتحكم عليها وتحبها ؟ ! فكأنيّ من عذاب سائغٌ اياك !

ثم حاول تحويل مجرى افكاره ، ففتح كتاب حياة يسوع لمؤلفه رنان ، وقد نزع عن رأس المسيح تاج الالوهة ، ولم يترك لقارئه ان يذوق الا رائحة الرماد والموت ! !

ونظر فاذا برسالة لا تزال مختومةً ملقاةً على مكتبه ، وصلته

البارحة وهم في مهمات العيد . ففضّها وعرف انها من لوسيان ، فادناها ، على غير روية ، من شفتيه فقبلها وقال : لوسيان ما خدعني قطّ مرّة ، ولا خاتلني . لوسيان كان يحبني

« صديقي المخلص هنري

«امتدّ الزمان بمقاطعتك اياي . فما بالك تحرمني تنتم احوالك ودروسك ؟ انت دارس الفلسفة وانا دارسها ايضاً ، ودارس معها فرع اللاهوت الدفاعي والكتاب المقدس ، ودارس العلوم وتاريخ الفنون والممالك . على ان الشغل في إبّاني كثير متعب ، وانّ لي ، على ذلك ، متّسعاً من الوقت للتفكير في اصدقائي . فاكتب اليهم فرحاً . نتبادل هنا الاشعار والمقالات ، ولا يُحظر علينا ان نضحك بعض الاحيان من غضب اساتذة اللاهوت المحترمين . ولنا وقت لنتنافس في مباراة القديسين . آه ما اجمل مدرستنا يا هنري ! انها لعنوان البساطة الحرّة ، والتواضع المؤثر في النفس ! انها لمدرسة الحمية والغيرة !

«تصور جماعةً من الشبان الاذكياء الراقين ، على اختلاف بلدانهم ، فلا شك ان قد بلغك انهم دعوا مدرسة «سان سولبيس» : «مدرسة المعلمين العليا للاكليروس الفرنسي» يجتمع فيها من ولايتنا ابناء اعرق العيال جاهاً وتقوًى وتمسّكاً باهداب الدين ، فيها باريسيون ملتهبون ذكاء وارلنديون لطفاء مكشوفو القلوب ، وانكليزيون فاترو الهمّة ، وايكوسيون واميريكيون وشبان في الربيع السابع عشر ورجال في العقد الرابع

«وقد خرج بعضهم من مدارس پوليتكنيك ، وغيرهم كانوا امس

ضباطاً ومهندسين ومحامين ، هـذا يحمل شهادة المـأذونية وذاك شهادة الطب وهذا لا شيء . حشمةُ العالم وتواضع الجاهل يخلقان المساواة بيننا . التنافس الواحد في الفضيلة ، والشوق الواحد الى مثلٍ أعلى وحيد ، والالتهاب الواحد بروح الرسالة الواحدة ، كل ذلـك يُؤلف من هذه الجماعة ، على اختلاف جنسها وطبعها ، عيلةً واحدة كبيرة ، بقلب واحد ونفسٍ واحـدة . ليت لي وفرة من الوقت فأنقل اليك كلاماً وامثلةً واقعةً من نفسي موقعاً عميقاً ، فأبعث اليك عن البطولة آياتٍ تُريك ان ذرية القديسين لم تنقرض ، فاقصّ عليك اخباراً مبهجة توقفك على بعض ما في هذا البيت من سرور وغبطة . ان رُبط المحبة تضمّ افراده ، ويسيطر عليهم سلطان الرجولية الآن ومدى حياتهم الكهنوتية ! !

« اصغِ اليّ ، يا هنري : في الثاني من شهر شباط ، يوم دخول المسيح الى الهيكل ، يلبس صديقك الثوب الاكليريكيّ ، هدف السخريّة والهزء ، ثوب المسيح المقدّس . فأيان تأتي فتماثلنا بلبسه ، لا أنفك اركع على اقدام العذراء مصلّياً لاجلك . . . هنري يا رفيق الحياة ، يروعني صمتك الطويل ، ألعلك ناسٍ الله الذي فرّح شبابنا ؟ اسرع فاكتب اليّ واخبرني انّ رغباتك هي هي ، وانك ملبٍ دعوة المسيح لك بكلمة : حاضر ! »

ما فرغ هنري من تلاوة الرسالة حتى القاها على صفحات حياة المسيح المفتوحة . قال : « دعوة المسيح ! خيالاتٌ ! اوهام ! خرافات ! قد تحرّرتُ من كل هذه الخزعبلات . » غير ان هذا الشاب الحزين ، لمّا كان قد احبّ هذا المسيح حباً جمّاً ، وكانت هذه الصداقة الالهية

تاركةً في قلبه فراغاً لا يملأه شيء، وكان لا يفتأ يحنّ الى المقدّسات وإن هجرها، حنا رأسه وطوّقه بيديه، وبكى بكاء يأسٍ لم يبكِ امرءٌ منه حياته . ثم تنهّد قائلًا : المسيح ! لا يسلم عقلي بالوهته، ولا ينبض قلبي لذكره ! ثم مدّ ذراعه الى الصليب الفضي المعلق فوق رأسه على ورقةٍ سوداء، وهو جالس الى مكتبه، فشهق وبكى وقال: رغم ذلك، يا ربّ، كان ايماني بك يعزّيني، ومحبتي لك تنفعني وتقوّيني

١١

ضُرب موعدًا لحفلة الزواج مطلع نيسان . وقد رافقت اسابيع الخطبة الاخيرة شجون وشجون، لان مغامرات مارجولي التجارية الخرقاء، ونفقات ابنه الجنونية وتبذير بناته وخلاعتهنّ، كل ذلك زعزع ثروته واستدرجه الى موقفٍ حرج اضطرّه الى ان يتخلّى عن معمل له كبير تكاثرت بسببه نفقاته وخسائره، حتى قلّت ثقةُ الناس به، وتهافت الدائنون عليه يطالبونه بديونهم، فرأى السيد مارجولي نفسه رازحاً تحت اعباء ديونٍ هو واولاده يضاعفونها منذ امدٍ مديد، على غير انتباهٍ ومعرفة لكميتها، فاضطُرّ الى ان يبيع املاكه في المدينة حتى منزل سكنه، وبيت مصيفه واحواجه واراضيه في روان، فظنّ الناس ان مارجولي خاسر، بعد التصفية النهائية، كل ما كان يملك الاّ شرفه

وفي ليلة زفاف مادلين، رأت ليلى الهديّة التي ارسلها البرازيلي الى عروسه، فوقفت مبهوتة ولم تتمالك ان صرخت : ان بنات مارجولي أمسين فقيرات

فاجاب هنري : لكن نحن يا ابنة الخال سنعينكنّ ، وقد عرضت المسألة على اميليو فضمن لي تشغيل غاستون في احد مكاتبه في المناجم البرازيلية واكد انه سيقدم للعمّ مارجولي . . . فقاطعته ليلى قائلةً : لا تكلّمني عن منفى والدي ، والاّ اضطُرّ الى اخذنا معه فلا تراني بعد يا هنري . دع عنك هذا ، فانا مسرورة في فرنسة ولن أبرحها . . .

— ولكنّ . . . حالتكم . . .

فقهقهت ليلى قائلة : او ترغبُ في احسن منها . حالتنا فتانة ، ملأى بالطوارئ والفواجئ . . . كان من الحمق ان نكون اغنياء . . . وها نحن نكابد فقر ايوب . آه من حادثٍ مسلٍّ ! يشوقني جداً ان نُضطرّ الى العمل تخلّصاً من مأزقنا . لا تخف يا هنري فلن أرضى بفقري كما رضي ايوب ، ولا انا بمطيلة جلوسي كما اطاله هو على مزبلة ذلّي وشقائي . . .

فحزن هنري وسألها : وماذا تنوين ان تصنعي ؟

اجابت : هاك خطّتي : اني ساسكن باريس في بيت جدّتي وقد افرغت لي جناحاً منه . وهناك استثمر صوتي وحنجرتي ، وقد تخرّجت على ابرع اساتذة الغناء .

— وبعدُ افتعلّمين الغناء ؟

— تظاهرتُ بهذا امام جدتي وأبي لاسترضيها ، امّا بعد . . فمن عاش رأى

فتألم هنري وقال : اوضحي لي افكارك

— قالت الفرادة وقد حكّمت نظارتيها : اية صعوبة في

كلامها ؟ واي سرّ ؟ أبلغت بك البساطة الى حدّ انك لم تفهم ان ليلى تصبو بل تموت شوقاً الى دخول المسرح ؟

واستطردت ليلى بلهجة الناصح المتهكم قالت : لا يتغيرنّ لون وجهك يا حبيبي . فملكات اليوم هنّ الراقصات «الارتيستات»، ساكون واحدة منهنّ ، وهذه البغية كانت اعزّ امانيّ . ان ثروتي حتى الآن قد وقفت حائلاً بيني وبين امنيّتي . فليحيَ الفقر الذي قيّض لي ان اعلو منصّة المسرح !!

فثار ثائر هنري وقال : لكن اباك لا يأذن لك بهذا الجنون

— ماكان ابي ليرفض لي اي طلب اوجهه اليه انا ابنته الصغيرة . اني لم احدّثه حتى الآن عن المسرح . وسأقضي في الدراسة بضع سنوات في باريس . وها قد وثقت بك واطلعتك على قصدي وسرّي ، ولست إخالك خسيساً فتخونني

— انتِ يا ليلى ! انتِ ستكونين راقصة ؟ !

— يظهر انك لم تفهم . قلت لك وأعيد انني ساكون اولاً دارسة ، ثم اشرع في دروسي يوم تشرع انت في دروسك . ارأيت الصدفة السعيدة؟ سنتقابل كثيراً . أليس كذلك ؟ سنأتي غالباً الى بيت الجدّة فنتناول طعام الغداء معاً . هل عيّنت موعد سفرك الى باريس في اوائل الربيع ؟ ساسبقك اليها ببضعة اشهر للشروع في دروسي . ولكنّ تبدّلي وانا الجبلية بباريسية يضحكني ، ومن الممكن ان اسافر في شهر حزيران

— اجابت الفرادةُ آمرة : لا لن تسافر قبل آب

— وما السبب ؟

اجابت الفرادة وقد هدأت : لاني سأزف في السابع عشر من تموز فاحتاج اليك لتجعّدي لي منديلي

فنطّت ليلى الى اختها وقالت : أمصنمة انت على الزواج يا الفرادة ؟ ولمَ اخفيتِ عني امر زواجك ؟ وكم هو مهرك ؟ ومن هو هذا المغفّل الذي سيتزوّجك بلا مهر ؟

— لقد كنت عمليّة حياتي كلها فلم احبّ النظريات ، والفقر يخيفني . والآن قد تقدّم اليّ غنيٌّ وقدّم لي ثروة ، فرضيت في ان يكون زواجي على حكم عقلي . فالعصفور الذي اصطدتُ هو شارتير . . .

فصاحت ليلى : أشارتير تجرأ على ان يطلبك امرأةً له ؟! . . . هو في الخمسين يا عزيزتي

— لا اخالفك في هذا : فقد يكون صحيحاً . . . ولكنه طلب يدي بصورة جدية في هذا المساء . فاجبته اليه وسنجعل لوالدنا غرفةً وسريرًا في منزلنا وسيهبني شارتير خمسة آلاف فرنك مهرًا . فلكِ ، يا أخية ، الجمال والنبوغ وتكريم الناس ! . . ولي الرضى بالثروة ، ولكل من كلتينا حظ تتبعه !

١٢

قلقت عقيلة ميرامون فتركت للمرة العاشرة شغلًا كان بين يديها ، وقامت الى النافذة تحدّق في الطريق الممتدّة امام منزلها ، وقد خيّمت عليها ظلمة الغسق ، لعلّها تلمح ابنها هنري عائدًا على دراجته

وكان زوجها يروح ويجيء في غرفة الاكل ، قلق الافكار مضطرب القلب

فقالت الام : لا اسمع حركةً ولا أبصر احداً

دقّت الساعة الثامنة فقامت الام الى زوجها وقالت: أجلْ بنا ان نجلس الى الطعام، دفعاً لريبة الخدم . فلا يلبث هنري ان يأتي . . .

فقال الرجل : لا شهوة عندي للاكل . وفي نيتي ان انتظره

فعادت الى شغلها تتنفض لكلّ حركةٍ تسمعها

أقامت عيلة ميرامون في سپينات منذ ختام السنة المدرسية لتوفر لهنري اسباب الراحة بعد ما عاناه من التعب استعداداً لفحص الفلسفة . وقد امتدّت على ارض السپينات ، هذه السنة ، سحابة من الحزن . لانّ مادلين كانت لحقت بزوجها الى ما وراء البحار ، وغاستون مارجولي تعب من نظارة المناجم ، فعمد الى ارض في البرازيل يحرثها ويزرعها ، والفرادة وشارتير كانا في نورفاج يقومان بسياحتها بعد العرس، وليلى في باريس . اين الغناء ؟ اين الضحك ؟ اين الهرج والمرج ؟ اين ما كان يملأ مصيف سپينات وجنائنها وطرقها من البهجة والطرب في الايام الخوالي ؟ ! !

كانت هذه الوحدة تسئم هنري فيذهب الى المدينة متنقّلاً في متنزّهاتها واحيائها الى ما بعد غياب الشمس غير عابئ بقلق والديه عليه

قالت الام : ما الذي يؤخر هنري عن العودة الى المنزل ؟ كان هنري منكشف القلب، فرحاً ، محبّاً، فاسى غضوباً ، هيّاجاً، جاف العاطفة . والآ فما معنى تغيّبه عنا وابطائه في العود الينا ؟ وان ما يؤلمني اشد الالم انه لا يعتذر عن شيء مما يصنع !

كانت الدقائق تتوالى فيراها السيد ميرامون بطيئة وسريعة معاً والغضب يتأجج في صدره، فيمشي حيناً ويقف اخر، وشررُ التهديد يتطاير من وراء صمته العميق

ثم كشف الساعة فجلس الى المائدة وهو يقول : الينا بالطعام عشاء كئيب ، صامت . كان الوالدان فيه دائمي الانصات الى صدى الطريق . ثم اضطربت الام وقالت : لا بـدّ لابطائه من حادثٍ . فها قد دقّت الساعة تسعاً . ولم يكن له ما يؤخره الى مثل هذه الساعة . فأبعث رسولاً يتفقّده ويريح بالي ، فقد متّ او اكاد

— كوني مطمئنة ! لم يعرض له شيء ، أصرفي الخدم ونحن نسهر . قال هذا وعاد الى نزهته الكئيبة في الغرفة . واخذ يمشي وخياله يطبع على الحائط صوراً وهمية . وفي اثناء ذلك اصطدمت رجله بصندوقٍ من الخشب ، فاحدثت ضجّة انتفض لها قلب الام ، حتى لقد سابقت دقّاته رقّاص الساعة

دقت الساعة العاشرة فالحادية عشرة والنصف واذا بالبـاب الحديدي يرنّ صدى صريره في خلايا الظلمة واذا باقـدام تدوس رمل الطريق المفضية الى الدرج فتصعد في السلّم

ذاك هنري ! دخل الغرفة المضاءة مرتبكاً وعلى جبهته الصفراء جرح طويـل . فصرخت امه : « جريحٌ ؟ . . . ووثبت اليه »

— كلّا ! جرحٌ بسيط ؟ لا ادري كيف غفلت فانقلبتُ عن الدرّاجة ، وكان في كلامـه بطء وتلعثم ، وفيما كانت الام تغسل الدم المتجمّد على وجه ابنها ؟ أبعدها الوالد غاضباً وقال :

— دعيه ! ألا ترين على أيّة حالٍ هو عائد اليك ؟ انه سكران ! !

فضاع رشد الامّ وتمتمت : ما تقول ؟ ولدي يشرب ؟ ولدي يسكر ؟ وارباه ! وأجهشت بالبكاء أمام هذا الولد، فخرها بالامس وعارها اليوم ؟ ! . . .

فانتفض الولد من سكره لبكاء امه وتفتتها وبسط لها ذراعيه يستغفرها قائلًا : امي !

فدفعه ابوه الى الوراء وقال بصوت الموبّخ الغاضب : لقد أحطت علماً بسيرتك وسريرتك ، وعرفت انك مقامر مديون تتردّد الى مراحيض المدينة، ولما تبلغ بعد الثامنة عشرة من عمرك . فارعو ؟ والاّ فلديّ ما يردعك عن غوايتك ! أفهمت ؟ !

كانت دموع امه قد ليّنته ، ولكنه لما سمع من تهديد ابيه ما سمع ، ربأ ونخر كجواد كريم الهب السوط جلده، وصمد في وجه ابيه مكتوف اليدين ثم شمخ بانفه فقال :

أصبت ! ما هو الا القليل فامسي مقامرًا ، سكيرًا ، فاسقًا ، ولكنني اسائلك : أينا المذنب ؟

فتمشت الصفرة في وجه الوالد فغضب وصاح : أتصمنا بالذنب ، ايها الخالع ؟ !

فتابع هزي كلامه وصوته يتهدّج كثيرًا قال : كان قد صحّ عزمي على ان اسلك اكمل طريق . وكنت اطهر الشبان واجبهم للخير واخفّهم اليه ، ولم يكن يستهويني من الرغبات الاّ اشرفها واعظمها وهي ان انذر لله نفسي ! فايّ سدٍّ لم تقيموا في

وجهي صدّاً لي عن رغبتي !

فاجاب المحامي : ألم نصبِ الهدف ؟ الا ترى الى ايّـة هوّة انت هاوٍ . فايّ كاهن كنتَ ؟

اجاب هنري : كنت كاهناً لا مثيل لي ، لو مهّـدتم عقبات التجارب في وجهي مكانَ ان تركموها في طريقي جبلاً

— أريناك العالم لنبلو دعوتك ونعجم عودك

— بـل كنتم راغبين في ان يطغيني هـذا العالم . والذين دعاهم الله فللّـه لا للعالم ! فلمَ يُعرّضون قبل دخولهم المـدرسة الاكليريكية للذّات من واجبهم ان يجهدوا النفوس مدى الحياة في نسيانها واحتقارها . انزلتموني في بوتقة التجـارب شاباً ضعيفاً فأبحتم لي ان اقرأ كتباً واراى مشاهد تضلّل العقل وتقتل الآداب . أقصيتم عني رفاق الخير والصلاح ، وبدلتموني بهم امثـال غاستون مارجولي وفلورزاك وشارتير ... شئتم ان اصادقَ الفرادة وليلى ، فأبيتُ وقاومتُ طويلاً ، آه ! لو تصفّحتم تاريخ معـاركي وعثراتي ونهضاتي ، ولو شعرتم بعواطف قلبي التي كانت تقذفني قـذفاً الى الارتماء بين يدي ربي بعد سقوطي فانهض ثم لا ألبث ان اهوي .. حتى استرخيتُ ...

ونفسٌ حرّة حارّة كنفسي فامّا ان تحلق في سماء القداسة ، واما ان ترحف على حضيض اللصوصية . أقديساً اكون بعد هذا ام لصاً ؟!

فخمدت ثورةُ السيد ميرامون والطف لهجته وقال :

ستنهض وتتقوّم يا بنيّ ، أتظن ان لا صالح الا الكاهن ؟ أفلا تكون شريفاً ان كنت ضابطاً باسلاً او طبيباً غيوراً او قاضياً

عادلاً ، لا تخالف احكام ضميرك ؟ . . . انظر الى زملائك طلاب مدرسة اوزانام القدماء فمعظمهم قد تمكنوا من اعمالٍ تضمن لهم عيشاً هنيئاً ، وانت ، بعد قليل ، تبدأ درس المحاماة في باريس . لسوف تدرس وتستفيد اقتداء بمن تقدّموك ! . . .

فتبرّم هنري وقال : ان الذين تحدّثني عنهم لم يسمعوا صوت الله يدعوهم فظلّوا ساكنين الى مثلٍ اعلى صبت اليه نفوسهم . اما انا فقد طمحت الى أعلى اهداف الحياة ثم قعدت عنه ولم يبقَ لي طمعٌ في سواه . ومن ذاقَ طعم بعض التأثرات النفسية المضطربة وجد افراح الحياة المنظّمة تافهة . ولا يخطرنَ لك في بال ان تعرض عليّ الزواج . فرأيي في سعادة العيلة الهادئة يخالف رأيك ! فما الحياة العيلية عندي الاّ ضجر ، بل عصير الضجر ! انا ضالٌّ فدعني اتمتّع بلذّات الضالّين واتلهّى بما يتلهّون

فخشع الوالد وتوسّل قائلاً : هنري ، انك لا تزال تشعر بعاطفة الشرف ، وان عاطفة الاحترام لوالديك قويّة فيك . انت على صيتٍ ناصعٍ شريفٍ . وفي يقيني انك تأبى تسويده وتدنيسه . انك ، ولا شك ، راحمٌ شيخوخة والدَيك ، وانت قادر على ان تظلّ فخراً وعكّازاً لهما يتوكّآن عليك . ان شئت عدتَ الى الطريق السويّ ، الذي يوصلك الى امجاد جدودك . هنري ، ولدي . . انظر الى امك

اغرورقت عينا الشاب فخطا خطوةً الى تلك المخلوقة الوديعة الحنون ، ففتحت له ذراعيها مصالحةً وحبًّا ؟

فانحبس الفتى في مكانه واجماً ، وقد وضح انه واجد نفسه غير

خليق بقبلات امه ، قال : لقد فات الحين . كيف اعدك بما لا استطيع ان اعد به نفسي ؟ وانا شاعر بعجزي عن الوفاء بوعدي ؟ . . . عامل واحد يجذبني جذباً هو عامل الشرّ ، ولا احس من نفسي الا برغبة واحدة غلّابة وهي رغبة امّارة قهّارة تسوقني الى استتراف لذّات الحياة ؟ فما أبقيت كأساً الاّ شربتها ولا غادرتُ حمأةً الاّ تمرّغتُ فيها . . .

فصرخ الوالد وقد طار قلبه شعاعاً : انّ في طوقي ان اكبحك ، ان لم ينفع فيك اللين والعطف عمدت اذا اقتضى الامر الى القوّة . ثمّ فار فائره ولم يبقَ له ان يلجم غضبه فوثب على ابنه رافعاً يده . فصدّ الولد عنه وقد قدحت عيناه ناراً وانكمش انفه وانتفخ وقال : أفي صدرك جرأةٌ انت يا من قذفت بي الى هذه الهاوية ؟ اجل اذا تمرّغت في اوحال الدنايا كنت مذنباً ، ولكن ذنبك اضخم . واذا جرّرت ذيول العار فذاك قصاص خطيئتك

قال وخرج وأقفل وراءه الباب بعنف فأحدث دوياً ارتجّت له الغرفة

فصرخ الوالد وقد تشنّجت اعصابه : يا لك من ولد شقي عاق ! أشهدتِ صفاقة وجهه ؟ أرأيتِ جرأته ؟ ؟ ؟ « انها خطيئتكَ » ! . . .

— قالها ملء مسمعيَّ : خطيئتكَ !

عبارة ردّدتها عقيلة ميرامون مرتين ثم قامت الى زوجها فامسكت يده ونظرت اليه فنظر اليها وظلّا هنيهةً رهيبةً

يتراميـان النظرات صامتَين ، متـذكرَين اطوار الحرب الرائعة الاليمة التي أشعلا نارهـا منذ سنين قتـلًا لدعوة الله في نفس ولدهما

ثم قالت بآتئادٍ وفي صوتها رنة حزنٍ فألمٍ فاضطراب : « نعم خطيئتنا ! »

الجزء الثاني

١

رجع غاستون مارجولي من البرازيل في يوم من ايار وذهب وهنري مساء يوم احد يتنزهان في ساحة الاليزة ، فلم يستطيعا ان يجتازا الشارع نظراً الى كثرة السيارات واحتشاد الجموع

قال هنري : « يا صديقي اننا واقفان هنا منذ زمن مديد لا نقوى على براح مكاننا، فهلم نذهب من هذه الجهة القليلة الازدحام » وقد سار الصديقان وتمكنا بعد قليل من الوصول الى ملجأ في الشارع ولم يبق بينهما وبين الملجأ الثاني الا بضعة امتار . وكان هذا الملجأ قريباً من الرصيف الشمالي حيث وجهتهما ، غير ان السيارات الصاعدة النازلة لم ينقطع لسيرها وصل حتى استحال عليهما ان يجدا سبيلاً بين دواليبها الدائمة الحركة

فتنهد هنري وقال : ابطأنا

اجاب غاستون : كلا ! لا يزال لنا من الوقت عشرون دقيقة ، واظن ان اختي الفرادة منذ تزوجت قد غيرت من طباعها ، فلا بأس في ابطائنا عن العشاء بضع دقائق ، ولست بنادم ولا حزين على هذه الوقفة في هذا الوسط البهج واذكر اني راجع اليوم من اميركة ، ولست مثلك نشوان بمناظر الحياة الباريسية ، واني لمرتاح الى اشباع عيني من اناقة باريس ولطفها وجمالها المتجلي امام نواظرنا ،

الا وهو زهوها وملاهيها ولذّاتها وافراحها

رفع الشابان رأسيهما ، واذا بالشارع غاصّ بالسيارات وعلى جانبيه اشجار البلّوط والدلب الجميلة ، لم يذهب بزهو اوراقها الجديدة ذاهبٌ ، ومنظر الخضرة على الجانبين ، تتخلّلها الازهار البيضاء ، يبهج العينَ ويُفرح القلب

يتهي هذا المنظر بما يفاجئ المارّة مفاجأة تسحر ألبابهم وتحيّر عقولهم : فان آخر ما يقع عليه نظرك هو قوس النصر يبدو لعينيك قليل الحجم طويلًا بسبب طول الشارع . واذا ما حدّقت اليه بناظريك رأيته قطعة سوداء على بساط ارجواني يلمع من ورائه قرص الشمس الاحمر . وعند الافق لا يمكنك النظر الى القبة الزرقاء التي كنت تراها كقوس من دمٍ ولهيب . واذا ما ارتفعت بنظرك قليلًا قليلًا أخذ اللون الاحمر الورديّ يتحوّل الى اخضر باهت حتى يغرق في الازرق الجميل في اوج السماء . وكانت الشمس ، في تلك الساعة ، وضاءةً وأشعتها تعكس اللون الاحمر على احواض المياه ، راقةً خطوطها في اطراف الارصفة وعلى زجاج القصور والبيوت وواجهات الحوانيت والمخازن ، حتى على نحاس السيارات المتجهة الى محلة النجمة

وقف هنري مبهوتاً امام هذه المناظر ولم يتمالك ان قال :

« ان هذا لمن المدهشات ! »

على ان غاستون ما كان ليأبه لجمال هذا المشهد العجيب بل كان يحدّق الى افواج المارّين تحت شجر البلوط يتنزّهون ، ويتسمع ثرثرة السيدات يتحدّثن عن احدث الازياء ، ثم ينقل بصره الى الالواح

الملوّنة وعليها اعلانات تذيع افتتاح الاندية او تعيّن ميقات السينما ، ويتبيّن الشبان راجعين من ضواحي المدينة ونواحيها ، بعضهم يركبون الدراجات وقد نصبوا في مقدماتها ضمّات من زهور الاكاسيا ، والبعض الآخر يركبون السيّارات الفخمة الخاصة ، وفيها السيدات المتبرّجات عليهنّ من الاثواب الملوّنة ما يدهش ، وفي صدورهن ترتقص أطباق من بواكير ورد ايار . فوقف غاستون امام هذه المشاهد موقف الاعجاب فقال من خلف شفتيه : ما أحيلى لقلبي ان اعود فاراك يا باريس الجميلة الفتانة !

وفيما هو كذلك ، اذا بشرطيّ المخفر يرفع سوطه الابيض ، وبلاطة الشارع الخشبية ، وقد تركت فيها دواليب السيّارات آثارًا تلمع تحت أشعة الشمس المحتضرة ، وتحيك عليها شبكة من الخيوط الورديّة

فعدل الشابان عن قطع الشارع ومكثا هناك يسحرهما مرور العجلات المتواصل تمشي بها الخيل خبباً ، وجماهير العمّال المستخدمين واصحاب المخازن والحوانيت راجعين الى باريس وقد سكروا بالهواء الطلق الذي استنشقوه في نهارهم ، وهم عائدون زرافات زرافات يمشون الهوينا متذوّقين نعومة الهواء مساء الاحد . وكانت تلمع على صدور الرجال ازهار السوسن الجميلة على اختلاف الوانها . والسيدات ماشيات يدفعنَ امامهنّ كراجات اطفالهنّ او متوكئات على اذرع رجالهنّ لما عانينَ من تعب الركض نهارهنّ في الحقول وراء الازاهير ، تلوح في ايديهنّ باقاتٌ نالها بعض الذبول

قال هنري : هاك يا ابن خالي ، ان هؤلاء لسعداء .

وما اتمّ كلمته حتى مرّت عن كثبٍ منهما عجلةٌ مكشوفة ، يعلوها الغبار ، والتعب بادٍ على جواديها لوفرة ما فيها من الزهور وشباك صيد الفراش ، وقد جلس على مقعدها الوالدان يحيط بهما صبية مكشوفو الرؤوس يضحكون

فقال غاستون : هؤلاء من الطبقة الفقيرة . لقد قاموا باكلة على العشب في غابات سان كلود وحسبهم بها سعادة

كانت الالوان الارجوانية اذ ذاك قد اخذت تصفّر ، كاسية الاشياء بلون اصفر برتقالي ، ثم اكفهرّت فغارت في العتمة . وما هو الاّ ان اشتعلت المدينة بانوار الكهرباء حتى ظهرت في مقدّمات الحوانيت والقصور ، على مسافات متباينة ، اعلانات ترتقص عن جانبيها وتحتها وفوقها الاضواء بالوانها الجميلة

قال هنري : الى العشاء يا غاستون فاني خائف من تأنيب الفرادة وليلى على ابطائي بك الى هذه الساعة . قال هذا وطويا الشارع الى الرصيف الشمالي ووجهتهما شارع مونتاني

قال غاستون : ما ظنّك يا هنري في الفرادة وليلى ؟ أهما في شوقٍ الى مرأى أخيها عائداً ؟

— كيف لا وقد مضت على غيابك سنون

— أجل ! كان عليّ ان اذهب اليها منذ الصباح ، عند مغادرة الهاثر ، ولكني كنت تعباً ... فآثرت مرافقتك ، وقد أحببت ان اقصّ وأحلق وأغيّر ثيابي لئلا تتبرّما بي . فأختايَ اصبحتا إمرأتين عصريتين لا يهمهما من الحياة الاّ التبرّج ومجاراة الازياء

فأيد هنري قوله مستطرداً : ولعلها مبالغتان في اتباعها !

— أيزعجك ذلك منها ؟ نعم انا مسرور بنجاحها كل السرور ، مسرور بجمال ليلى وغنى الفرادة . مسكينة اختي الفرادة لقد احسنت بتزوجها شارتير . ثق يا هنري ان كل شيء في هذه الحياة ما خلا المال باطل . . . لا يعوزك الا المال لتسعد ، والخبرُ يحقق الخبرَ . لقد سمعت بنفقاتك وما بذّرت من مال ابيك منذ خمس او ست سنوات ، وما وفى ابوك عنك من ديون

فانقبض هنري وقال : لا ذكرت ذلك يا غاستون ، فذكره يزعجني . اما والدي فقد عرف ان يتخذ الوسائل التي وقفت حائلاً بيني وبين رغائبي

فقاطعه غاستون : وممَّ تعيش يا عزيزي ؟

— من مرتب ضئيل رضي والدي ان ينقدني اياه كل شهر ، ومن بعض اشغال اتعاطاها ، فأدبج تارة مقالات انشرها في الجرائد واحبر طوراً أخرى لشرح فيها ما غمض من القوانين فتجمع على حدة ، والتقط اخبار الخطباء في الندوة البرلمانية من نائب يصرف وقته في مراسلة منتخبيه . فانا كما ترى اقطع من كل وادٍ عصا

لم تكن هذه الموارد لتكفيك لاسيما اذا زُفت اليك شقيقتي ليلى بعد ان مضت على خطبتكما سنوات اربع . ولم يبق لتأخركما عن الزواج من مبرر ، فاجتهد ايها العزيز في ان تضع لهذه الخطبة حداً والا أمست مهزلة من المهازل

— ما شأني في الامر وما ذنبي ؟ ولليلى افكارٌ لا تبدلها .

كلّما فاتحتها بضرب موعد للزواج ، قالت : انها لن تتزوّج قبل اجتيازها الخامسة والعشرين . وهي لا تكتمل الرابعة والعشرين الا في آخر الشهر القادم .

— اذن هي تريد ان تستغلّ شبابها ؟ لست اخالها الاّ محقّة . فما يحوجها الى ان تتثقّل عنقها بنير الزواج القاسي وتتعرّض للهموم العائلية الكثيرة ... ومتى كانت تُعنى بمثل هذه الشؤون ؟ وبهذه المناسبة ارانى عازماً على اللحاق بها الى الاندية التي يتردّدان عليها . لقد امسكت عن لذات الحياة الباريسية زمناً طويلاً وانا ظمآن اليها . صهرنا شارتير غنيٌّ . وقد صمّمت على ان اغرمه ، بين مرة واخرى ، ما يجب عليّ دفعه . أتظن اني تركت عملي في شركة « هيللكوت اندسونس » في نيويورك لاكون مستخدماً بسيطاً في مصرف باريس . لقد صحّ لي شغل في باريس فبادرت اليها بعد ان اعتذرت هناك الى مدير الشركة ، ولكني انبّهك من الآن الى مقاصدي ، انكم لن ترونني كثيراً على مقعدي في المصرف . لقد مللتُ حياة الجلوس على المقاعد الجلدية وراء نوافذ المصارف

سمع هنري هذا الكلام ساكتاً واجماً وقاد ابن خاله الى بيت جميل في شارع فرنسوا الاول وكان شارتير يسكن الطابق الثاني منه ، وما هو الا ان حملها المصعد الكهربائي فوضعها على باب المسكن . حتى صاح غاستون :

— ان لاختي قصراً يحاكي قصور الملكات !

ورآهما الخادم يدخلان فعرف غاستون وتقدّم منه فعاونه على خلع معطفه ، ومن ثم قاده هنري الى مخدع صغير فيه امرأة في شرخ

شبابها ، جالسة تقلب صفحات مجلة مصورة ومعها شاب على عينيه نظارتان بزجاجة واحدة ...

صاح الزائر الجديد : الفرادة اختي الفرادة ! فلاقته اخته جزلة مسرورة وهي تقول : اخي غاستون الحمد لله ! . كدت احسبك عدلت عن العودة الينا ! .. او تأخرت عن ميعاد السفر فسبقك القطار او ... او ... لماذا تأخرت ايها الحبيب ؟ .. نحن في انتظارك لتشاطرنا العشاء.

ثم انسلت بلطف من بين ذراعي اخيها ، والتفتت الى شاب طويل الشعر وقف يتفحص غاستون وقالت له :

« هو اخي الذي حدثتك عنه ، قد وصل الساعة من نيويورك ، ثم نظرت الى اخيها فقالت : هو السيد پول دافون من اعز اصدقائنا ومن اشهر المصورين . وسيكون له شأن في عالم التصوير »

فقال پول : آه ! يا سيدتي !

اجابت الفرادة : فمٌ عجبُك . ما ابدع الصور التي ترسمها يا پول . انها ستدر لك المال . او تظن ان شارولیك اوليڤير ومارسون وجورج اوريول احسن منك . انك تحاكيهم فنًا ان لم أقل تفوقهم . فستصير ان شاء الله بعد سنين قلائل من اشهر مصورينا

فحنى پول رأسه وقال : انك لتغالين في اطرائي يا سيدتي ، وما انا بمستحق ذلك منك

ولم يكمل كلامه حتى سمع من باب غرفة البليار صوت شارتير القصير القامة قادماً ليستقبل ابن عمه

— اهلًا وسهلًا ! عساك لم تتعب في البحر ؟ اجيدة صحتك ؟

كيف باريس ؟ ألا تلوح لك كلعبة طفل ازاء نيويورك ؟ أيعجبك شيء فيها بعد ؟

— بل اشياء يا عزيزي شارتير، حتى اني بعون الله لن اتركها

قالت الفرادة : آمين ! آمين !

ومن ثم قاد شارتير ابن عمه الى غرفة البليار وراح يدلي اليه بالنصائح، ويعلمه كيف يجب عليه ان يستسير في عمله الجديد، طالباً اليه الاعتصام بالحمية والنشاط والدقة

— اعرف كثيرين من رؤسائك في هذا المصرف يا عزيزي غاستون ، وكلهم مستعد لخدمتك ومعاونتك في مهمتك . كن قدوة المستخدمين ونحن مساعدوك . لا تكتفِ بساعات العمل المحدودة بل كن غيوراً على المصلحة فلا يفوتك سببٌ من اسباب الترقي

واقتصر هنري ميرامون على ان يوجه الى الفرادة السوال الوجيز التالي : أين ليلى ؟

اجابت : عادت تعبة من نزهةٍ على شاطئ البحر الشمالي فدخلت غرفتها لتُبدّل ثيابها ولما تخرج بعد . ان كل ما يمتدّ الى الزيّ والتبرّج بصلةٍ هو شغل ليلى الشاغل عن كل شيء آخر . . .

وكان بودّ الفرادة أن تنمّ على اختها واذا بليلى خارجة من غرفتها في وشاحٍ من حرير وسارت راكضةً الى غرفة البليار وهي تصيح : أوصل غاستون ؟

صوّب غاستون وجهه الى اخته ولم يدنُ منها بل وقف مبهوتاً . اذ لم يرَ فيها تلك الفتاة اللعوبة الضاحكة الصغيرة التي غادرها ،

لكنه رآها امامه سيدةً ذات جمال فتان رائع يأخذ بمجامع القلوب . وقد وقفت ليلى في الباب ضاحكةً ، ويدُها البيضاء على رأسها تقصي ستار الباب ، وبدت طويلة القامة ، هضيمة الكشح ، رشيقة القدّ وزاد طولها رشاقةً ثوبها الاخضر . قالت : ألم تعرف اختك ليلى ؟

— كيف أعرفها وقد فارقتها صغيرة السن قصيرة القد ، واذا بها الآن رشيقة القوام رائعة الجمال . وفيما كان الاخ واخته يتعانقان دخل المنزل ضيف جديدٌ اسمه ابراهيم ميلس وهو يهودي ذو ثروةٍ ضخمة كان منذ شهرين قاعداً عن حضور الاجتماعات في شارع فرنسوا الاول . دخل فقبّل يدَي الفرادة وليلى واعتذر عن تأخره لانشغاله بمهام تعود عليه بالنفع الكبير . ثم دخل الجميع غرفة الطعام فقال هنري لليلى :

كنت ظننت ان رجوع غاستون يوثق عرى صداقتنا . فتغيّرت افكاري ، ما لهؤلاء الضيوف يا ليلى ؟

اجابت : ان پول داثون صار منّا منذ أعلنت الفرادة انها امينة سرّه المطيعة ! . . اما ابراهيم ميلس فانت ادرى باننا نعاشره لاجلك . انه على ما نعلم مدير دوائر ادارية كثيرة ، وعلك الكثير من المصارف والمناجم ومتاجر الحديد ، وهو مزمع ايها العزيز ان ينشئ جريدة يومية واسعة الصفحات ، ولما كانت مهنتك الصحافة رجوت حمله على تعيينك محرّرًا للقسم الاوفر في جريدته . وانا ولا ريب فاترة بنا ابغي كن مطمئنًا

— واظنّ انك لاجل ابراهيم ميلس ، قد لبست هذا المساء ،

ثوبك المخطّط بريش الطاووس

— اذا كان ذلك كذلك فانا محقّة في عملي

جرت على وجه هنري غمامة سوداء ولم ينُه بكلمة مدة العشاء . على ان غاستون كان بطل تلك الساعة . فكانوا يسألونه عن اميركة فيجيب بسهولة قال :

لم اقض في نيويورك الا سنةً ونصف السنة ، اما في السنين السابقة فقد سكنت البرازيل معتنقاً من الاعمال ضروباً . . كنت حيناً فلّاحاً وحيناً تاجراً او مزارعاً او مربّي حيوانات

قال ابراهيم ميلس : البرازيل بلادٌ جميلة ذهبت اليها مرّتين لاؤسس شركات معدنيّة ، ولا يزال في ارضها كنوز وافرة يمكن استثمارها

اجاب غاستون : فليستثمرها من شاء وليتنفع بها . لقد ساعدني فيها صهر ابن خالي هنري ميرامون ، السيد اللطيف اميليو على احتراف الزراعة ، ولن انسى صنيعته اليّ ، بل اشكرها له مثنياً عليه . ساعدني على احتراف الزراعة ولكن ماذا تريدون ان ازرع ايها الاصحاب . . لقد قضيت هنالك ثلاثة اشهر زرعت خلالها كلّ شيء ، وكادت الافاعي تبتلعني حيًّا والذئاب تفترسني ، فنقلوني الى المناجم . فيا لله ! ! لقد جازفت بجلدي في هذه الصناعة ، وكان بين فعلتنا عمّال يلعبون بالخناجر لعبَ الاسبان بالقصب ، بل اكثر ، فتركت المناجم . . .

فقاطعه شارتير وقال : اعتقد انك ناس اشياء اخرى . لقد قلت اذا لم تخنّي ذاكرتي ، انك لم تلبث طويلًا في معمل يقدّدون

فيه اللحم قرب مدينة بارامبوك ، وقد اشتغلت ايضاً في شركة كانت تصدّر خشباً من الامازون ... ولمّا اراد اميليو ان يبقيك عنده ليشغلك بقربه ...

— لا تهرف بما لا تعرف يا حبيبي شارتير . انا لا أنكر على صهري اميليو محبّته لي وعطفه عليّ الاّ انه كان يشغلني شغلاً مضنياً ويكلّفني نقل ارقام وتصفية حسابات عديدة كل يوم ، حتى اني لو داومت على تلك الخطّة، لكنتم اليوم ترونني في احد مستشفيات المساولين

فضحك ابراهيم ميلس ضحكة المستهزئ اما شارتير فعبس وقال قول مجد :

العمل والثبات ضروريان لكل من رام نجاحاً وتقدّماً . أرأيت اي كدّ يكدّ اميليو في سبيل وفرة ماله ، فكيف تتكاسل انت وتنفر من الشغل ، في حين انك في اشد حاجة الى المال لتستقيم حالك !

— الا تعلم ان اميليو يكدّ ويعمل ليؤمّن حياة الآخرين ؟ اتجهل ان بيته اصبح داراً للحضانة . لم يمضِ على زواجه ست سنوات حتى رأى على بساطه ثلاثة ورثاء يتداعبون والرابع في الطريق !

فصرخت ليلى بملء فيها : هنري لم تقل لي شيئاً ، انك تنتظر ولداً رابعاً لاختك ، فاني ارثي لحالها واشفق عليها

قالت الفرادة : مسكينة انت يا مادلين ، ابنة عمتي . لقد قُضي عليك ألاّ تعطفي زهرة شبابك ، وفي اجمل سنيك تهيئين

المصاصات وتُمخطين الصبية الباكين . . اذا كانت تلك قسمتك من الحياة فبئست القسمة !

فانقبض شارتير وقال : في العالم نسوة لا يطالبنَ بحقوقهنّ من الراحة والسعادة، بل يجدنَ السعادة كلها في افراح الامومة وواجباتها، بل لا يعرفنَ غاية لوجودهنّ الاّ ان يكنّ امهات ، لا كما تزعم عصريّاتنا من ان الويل كلّ الويل في الاولاد

فقهقهت زوجته الفرادة وقالت : نعرف جميعاً انك تحب الجدال في هذه المسألة، ولطالما سمعناك تندّد بقلّة النسل، وهي الجرح البليغ في جسم الوطن كما تدعوها . واظن انك تتحفّز الساعة لتُدلي الينا ببراهينك . رأفةً بنا يا عزيزي، اذا كان في الامر ما يهمّك فنحن لا نعبأ به . . .

— فاستصوبت ليلى كلام اختها وقالت :

والاولى بنا من هذه الاحاديث ان نسمع غاستون يخبرنا عن حياة مادلين ! هاتِ يا اخي . واراد هنري ان يخرج عن صمته فقال : ان اختي مسرورة من حالتها وطريقة عيشها وليس في سماء حياتها من غيمة الا كونها محرومة من مشاهدة ذويها لانها لم تأتِ فرنسة الا مرة واحدة بعد زواجها

فثنّى غاستون : ان شمس فرحها بزوجها واولادها قد بدّدت هذه الغيمة . واقرباء اميليو عديدون وكلّهم مشغوفون بمادلين يخدمونها ويعطفون عليها وربما لن تعود الى هنا فتراكم

فضحكت ليلى ضحكة صفراء وقالت :

لقد عوّض الله اهلها منها بالعزيز هنري، أعقل الطلبة وابرّ الابناء !

فنظر هنري الى ابنة عمّته كانه يقول لها :

أجل سأكون سعيداً اذا استطعت ان أبغضك ! !

وكأنها فهمت ما يجول في فكره فالتفتت اليه التفاتة ازدراء. وقد رفعت رأسها ثم امالته الى كتفها اليمنى وقلبت شفتيها المستهزئتين فبانت من تحتها اسنانها البيضاء.

انتهوا من الاكل وقاموا الى النزهة فتفرّقوا في قاعة البليار وفي بهو الدار حيث نُضّدت آنية المزروعات الخضراء. ورزم الزهور بشكل يفرح القلب ويشرح الصدر

ذهبت الاختان غير مبديتين اهتماماً باخيها . فالفرادة انتحت بپول داڤوان ناحيةً واخذا يتحادثان ويتجادلان عن اساتذة الفنّ في فرنسة كشابلان وروتي وغيرهما . امّا ليلى فقد جلست على طرف البليار جلسة الغنج وطلبت من شارتير ان يناولها لفافة تبغ فاشعلتها برشاقة وهي تداعب ابراهيم ميلس، الذي كان يفضّل شرب كأس من ماء الكاموني على تفاهته ولا يدخن احسن تبغ هافانة

وكانت ليلى تقهقه ضاحكةً جواباً على تغزّل المثري اليهودي بها بصوتٍ خافتٍ ولهجةٍ بريطانية، مما ضاق له صدر هنري ميرامون فنظر واذا بجريدة على البليار فتناولها متظاهراً بأنه يقرأها ولكنه كان لا يقدر على تبين كلماتها ، بل كان ينظر اليها مصغياً الى ليلى تتحدّث عن معلّمها في الغناء قائلة : انه مغنٍّ شهير يضمن لها مستقبلاً باهراً في عالم الغناء.

وزادت ان اختلت بابراهيم ميلس في زاويةٍ للشرفة مظلمة وقالت له :

اليك والى استاذي وكلت امري ، وعليكما اعتمد في تدريبي ، لاني اريد ان ابدأ عملي في الفصل القادم فاعتلي مسرحاً من مسارحنا الباريسية . الوعود في الهواء لا ترضيني فأملي وطيد في ان اصل بسعيكما الى غايتي ، واذا شئتما وصلتُ ... فتدبّرا الامر ...

ومن ثم ذهب شارتير الى غرفة الاستقبال وفتح البيانو وألحّ على ليلى بالغناء فاختارت من دفتر كان معها أهيج اغنيةٍ للشهوات وأدعاها الى البلبلة، وقد وقع نبراتها دايسني توقيعاً عجيباً

فاسرّ غاستون الى هنري قائلاً : أتسمح لخطيبتك بان تغني مثل هذه القصائد يا هنري ؟

اجاب هنري وقد امتقع لونه : هي العادة فما حيلتي ؟

اتمّت ليلى غناءها . فطلب اليها ابراهيم ميلس ان تعيد ، الاّ انها اغلقت البيانو وقالت متآمرة :

— لقد فات الوقت ، واشغالنا كثيرة غداً . أليس الحق ما قدّمت ، يا الفرادة ؟ ! نُزهاتٌ فغناء في الصباح ومحاضرة بعد الظهر . ولا أعلم كم نتلقّى من الزيارات ونردّ منها . اودّعكم فتقبّلوا احترامي

امّا الفرادة فبعد ان كانت تصغي الى پول داثوان يشرح لها جمال نورمانيا نوتريكس في صورة اخرجتها ريشة روتي تبرمت باختها واغلظت لها الجواب : ما اقدرك على تسريح الناس يا ليلى !

اما المدعوون فاخذوا يستأذنون بالانصراف وكانت سيّارة ابراهيم ميلس تعجّ على الباب فركبها . امّا رفقاؤه الثلاثة فساروا

في الشارع مشياً على الاقدام وقد سأل احدهم بول داڤوان قائلاً :
اين نكتمل السهرة ؟؟

اجاب غاستون فرحاً : في موغارتر ارى ليلى بارعةً في الغناء ، ولكن الحانها ، وان جميلة لا توازي اغنيّة من اغاني القمّة هنـاك ! ما رأيك ؟؟

قال هنري : مونمـارتر بعيـد عنا . فانا اقودكم الى ملعب انكليزي فنحسو هناك من الشراب ما طاب لنا ونكرع شيئاً من الوسكي الحقيقية

فتعجب غاستون وقال : اتتردّد الى مثل هذه المحلات يا هنري ؟ انا كلفٌ بها ولكني قويّ الجسم ، اما انت فليس من الحكمة ان ترتادها لانك ضعيف هزيل واصفرار وجهك يرعب ...

— هو هـذا يا عزيزي فعلى من كان ضعيفـاً مثلي ان يجرع كأساً من الوسكي ، فيستعيد قوّته ويفرح قلبه ويصالحـه والحيـاة

— الا ان الوسكي نار تحرق الكلى

اجـاب هنري : لِمَ طول الحيـاة ، اذا استطعنا ان ننهب لذّاتها نهباً

٢

طال رقاد هنري صباح اليوم التالي ، ثم استيقظ ثقيل الرأس ، منهوك الجسم ، ضيّق الخلق

اما غاستون فكان قد أفاق ودخل غرفة ابن عمته وتقدّم اليه وعرض عليه خدمه :

— أتريد ان اقوم مقام خادم غرفتك ؟ فقد أضفتني عندك ، فحقّ لك عليّ الخدمة . فسرّح هنري نظره في غرفته الضيّقة وما حواليه من الكتب والاوراق المبعثرة والثياب المشتّتة هنا وهناك وقال حزيناً :

غرفتي ليست جميلة يا غاستون؟ لقد أخطأت باستئجاري مسكناً في شارع بوسكه ، ولم يكن لي من غاية الا القرب من بيت شارتير ومن ليلى فاذهب الى شارع فرنسوا الاول في القطار الاصفر في بضع دقائق ، ولكنّي اقطع مسافةً طويلةً حتى أصل الى مدرسة الحقوق في جامعة السوربون . آه ليتني قبعتُ في غرفتي في شارع سارڤاندوني ، بجوار لوكسمبورج . ادفع هنا الاجرة غالية ولست مرتاحاً . انا في الطابق السفلي على طرف ملعبٍ مظلمٍ أكاد لا أرى ما حولي في منتصف النهار . وجدران الغرفة ترشح الماء شتاء فتقتلني الرطوبة

ادار غاستون نظره في الغرفة وقال : لا موقد فيها ؟

— ولا خياله . اني أشعل الأزّاز لاصطلي ، والسعال والزكام يلازمانني

— ما لك يا حبيبي الآ ان ترتحل من هنا

— الرحيل يجشمني نفقات ضخمة والمال ابداً ينقصني

— ألا يعطيك شارتير احياناً

— آه فلنعد اليه ! اما من جهة دعواته لي الى تناول طعام الغداء ، فقل ما شئت . اما دراهمه فلعمر الحق ما زلت اتشوق لونها . انه رجل لم أرَ في زماني ابخل منه

— كيف تعيش ليلى ؟

— متى كان شارتير في باريس ، كانت ليلى في منزله وهو يقدم لها بارتياح طعامها وفراشها . اما اذا سافر شارتير فتعود الى غرفتها في شارع شاتيو تسكنها وحدها ، لان جدتها قد ماتت

— ان السكن ليسور . اما النفقات فمن اين تتناولها ؟

— انها تحصل بضعة دريهمات من الغناء ، وانا اكمل لها الباقي !

— اننى راثٍ لك يا عزيزي ، ولو كنت مكانك لتمنعت من ان اجاري ليلى وانفق عليها لتتبرج وتطيش! آه من شارتير ما أبخله ! . . . تجمل بكل الخلال الطيبة الا هذه ! . . . توقعت منه بعض الغنيمة ، فطاش سهمي

وفيما كانا يتحادثان كان هنري منهمكاً بلبس ثيابه ، وما هو ان تمّ حديثه حتى حُمل اليه بريد الصباح فاذا به يتناول كتاباً من ابيه يعلنه فيه انه قاطعٌ عنه بعد الآن ما كان معتاداً ان يدفعه له من المال كلّ ثلاثة اشهر

— ما بالك مقطباً يا هنري احانقٌ ابوك ؟

فكان جواب هنري انه مزّق الكتاب ورمى به نتفاً الى المهمل وفضّ غلافاً آخر وقال : هذا غير ذاك ! هذه دعوة الى زواج صديق حميم ورفيق عزيز من رفقاء المدرسة، هو « لاموت » . لقد صمّم على هجر العزوبة . قصر اهله قريبٌ من مزرعة السپينات وروابط وثيقة تربط عيلتينا فلا استطيع الا ان احضر زفافه . سفرة لا بدّ منها ولا بدّ ان يعقبها توبيخ الوالد . وليس ذلك

بالمعجب المضحك ، على ان في الوقت متسعاً لي ، فسافكر في امر الذهاب ملياً فلا يعتقد للصديق على خطيبته قبل ثلاثة اشهر

قال غاستون : لا ازال اذكر جلياً « لاموت » هذا ، لقد كان بودّه ان يتعلّم الطبّ ليداوي مرضاه ومزارعيه مجّاناً لوجه الله

— صحّ ظنّك : على انه لم يبقَ له صبر ريثما يقدم فحصه ويطبع اطروحته . وخطيبته اقلّ بنات ولايتنا مهراً . لقد كتب لي : «ان ليس لها من حطام الدنيا شيء ولكني احبها .» ألا ترى في نيّته من السلامة ما يفتنك في عصرنا يا غاستون ؟

— اين يدرس فتاك ؟

— في باريس

— اتراه غالباً ؟

— لا اراه الاّ نادراً . . . واظنه يقطن قرب البنتاوون مع جماعة من الطلّاب كانوا رفقائي في مدرسة اوزانام وليس من همي ان اراهم

— لِمَ وهُم رفقاؤك ؟ ولست ازال اذكر انهم انبلُ الشبان خلقاً واشرفهم محتداً ؟

— لقد شتّتتنا الحياة ، فتباينت افكارنا ولغاتنا وامتنع علينا التفاهم . فحافظوا على ايمانهم وظلّوا شبّاناً يُقتدى بهم وهم جاهدون في الدرس على تعقّل وهدًى

— ادركت كنه فكرك . ان عشرتهم تضجرك ورفقتهم لا تلذك لانها بريئةٌ من الافراح والملاهي التي تطلب

— ساء ما توهمت ، انني تناولت طعام الغداء عندهم مرّتين

وثلاثاً . فعشرتهم مفرحة ورفقتهم جذّابة . وقد رأيت في شبابهم من الخفّة والبشاشة والنشاط ما اطربني . انهم يتحدّثون ويتفكّهون ويُنضجون من الافكار في عشر دقائق اكثر مما تنضج البيئة التي اتردّد اليها في سهرةٍ طويلةٍ . والواقع ليس هناك ما يضجرني الّا هذه البيئة

هناك ترى طلبة الطبّ والحقوق والصحافة جالسين كالاخوة حول منضدة واحدة يتبادلون الاحاديث المفكهة عن حوادث مدرستهم . وهكذا يستفيد طالب الطب من طالب الحقوق ما يوسع مداركه ، وتلميذ مدرسة الزراعة يأخذ عن طلبة مدرسة الفنون الجميلة اصطلاحات التصوير والدهان واسرار المعامل الصغيرة ، وفي ايام الآحاد يدعون رفقاءهم من المدرسة العسكرية ودار المعلمين وغيرها الى مؤاكلتهم ، فيأتون ويأكلون البفتاك مع التفاح ومطبوخ الكبوش

لا يا غاستون ان رفقة هؤلاء لا تضجرني ، فانهم يعيشون فرحين ويتفكّهون بما طاب لهم ويتبادلون من الاحاديث والكلام المضحك ما شاؤوا

انت اعلم الناس بطبع الشاب انه كريم يعطي كل ما يملك وليس الكهل كذلك

هؤلاء الشبان يقتصدون ببدييّاتهم ولطائفهم ويلقون من النكات الجميلة ما يعبّر عما في قلوبهم من الشواعر الطيبة امام ايّ كان ، فتسمع هناك في ساعة واحدة اشياء كثيرة من الفنون الجميلة ، وتطّلع على امانٍ عديدة ومقاصد حميدة لمساعدة البشرية ، وآراء

قيّمة في الفلسفة وطموح لا غاية بعده الى التضحية بالنفس في سبيل الوطن واصلاحات اجتماعية ومقاصد رسولية جليلة . آه لتلك الشبيبة ما أسلمها ! آه ما اشجعها وما اوقعها في قلبي !

— انك لتحيّرني يا هنري وقد التبست عليّ ؟ لانك تطرئ شباناً قلت لي انّ افكارهم غيرُ افكارك ولغتهم غيرُ لغتك ! . .

واحسرتاه يا غاستون هـذا كلّه لا يحول دون اعجابي بهم وحسدي لهم من اعماق قلبي !

— اذن فما لك الاّ ان تحذو حذوهم

— لست بقادر وليس لي من الحزم والارادة ما يكفيني ، هم جاؤوا باريس لطلب العلم من مناهله وانا اتيتها سعياً وراء الشهوات والملاهي والمنكرات ، التي تسكرنا بظاهرها الغشّاش ولا تترك في ذوقنا الاّ السأم ، وفي نفوسنا الاّ الخيبة . لقد عبثت باجمل سني حياتي ، وانهكت صحتي وبذّرت مالي . ولطالما اسررت بذلك الى نفسي كلما عدت اليها في مثل هـذه الساعة . ان مهاز الضمير لا يفتأ يعذبني ! . . .

— انك واهمٌ يا حبيبي فلم تضطرب نفسك ؟ انا احبّ الملاهي واتعشّقها واميل الى الكسل والبطالة ولست ، على ذلك ، قلقاً مضطرباً مثلك . خُلق الناس ، لكلٍّ طبعه . فهذا رزين وقور ، وذلك طيّاش فرفار . سلكت طريق الخفّة والطياشة فسر عليها فرحاً ولا تنظر متحيّراً الى الطريق الوعر الذي يتسلّقه برزانة سادتنا الزهّاد

— ان ما انا عليه من الجبانة ومختلف العادات السيئة يسيّرني

في هـذا الطريق الرحب الذي سلكه آخرون كثيرون مغتبطين ، على اني احنّ ابدًا الى الاوّل،لان لي لنكد طالعي ضميرًا لا يزال حيًا ! . . .

— خلاصة القول:لا ضمير لي . فحكمك ايها العزيز مصيبٌ فلا اعتب عليك ، ولا اريد لك شرًا ولكن اية حاجةٍ لي بهـذا الضمير ؟ وما نفعي منه ؟ انت اخبر مني . ان هو الا لاقلاق راحتي وبلبلتي ؟

— اجل لقد اصبت ! . . .

— ان حياتك ايها العزيز خمس سنوات في باريس لم تقضِ على اعتقاداتك الصبيانية، فانك لا تزال تتغنّى باعمال البطولة والفروسية التي كنا نتغنى بها يوم كنا اطفالاً . أُخلقت لتذهب فتدفن نفسك في مراكش او تموت حبًا للوطن ! . . . اني اتصوّرك جاثمًا في طيارة محاولاً اجتياز بحر المانش او جبـال الالب التي اودت بحيـاة كثيرين من امثالـك ، ابطال العلم والاكتشاف . . . او اتمثلك رسولاً شابًا ملء قلبـك العزم تأتم الصين لتبشّر صغارها فتموت في الاصفاد

وعلى ذكر المرسلين ، أسألك ما حلّ بصديقك الحميم لوسيان ريفيار وقد ترك العالم الى المدرسة الاكليريكية

— لا يزال فيها

— وافكاره في الدعوة الاكليريكية لا تزال هيَ هيَ ؟

— نعم منذ ست سنوات !

— ليس ما تقول من المعقول . لوسيان وحيد لامه وهو من

اسرة شريفة واقرباؤه كثرٌ نبلاء اغنياء ، وقد ورث ثروةً كبيرة عن ابيه ! آه لو افهموه الحياة ونعيمها ... ولكنهم حجروا عليه كامثاله منذ خروجه من المدرسة

— عرف لوسيان الحياة وعجم عودها وذاق حلاوتها . وهو عارف ما يعمل . وقد خدم في الجيش سنتين !

— خدم في الجيش سنتين وعاد الى المدرسة الاكليريكية؟! انك تستهزئ بي ! !

— ما قلت لك الاّ الحقيقة !

— لقد تيقنت الآن انك لم تكن يوماً جندياً ولم تعرف ما يحدث في المعسكرات

— لقد شككت في الامر مثلك وعجبت به عجبك، لكنّ لوسيان اخبرني ان المعسكر لا يفسد على الجنود الاكليريكيين عقولهم ولا يبلبل قلوبهم بل هم الذين يصلحون الفاسد فيه ويثقفون المعوَّج

— وما عساهم فاعلون ؟

— اعمال الرسالة : بامثلتهم الصالحة فاحاديثهم وقراءاتهم وغير ذلك من الوسائل، ولديهم منها الشيء الكثير

— آه لو أُتيح لي ان اراهم هناك

— هذا ما كنت اردّده ، حتى اتاني يوماً صديقي لوسيان بمجلة اسمها « الرزمة » وما هي الا صلة بين هؤلاء اللاويين الذين يخدمون الجنديّة . اخذتها وقرأت فيها ما اثّر في نفسي اشد التأثير وانحرف هنري الى منضدته بلباقة واخذ يبحث عنها بين المجلّات

والنشرات المنضّدة عليها وأخرج من بينها اربعاً او خمساً من المجلات الخضراء. فتصفّحها هنيهةً وقال: اسمع هذا :

يتساءل اخوتنا الجنود، كلّ يوم صباحاً . ما الذي اعمل اليوم لاستفيد من حياتي العسكرية وافيد رفاقي ؟

وهذا من حسنات الخدمة العسكرية انها تقرّبنا الى الناس وتساعدنا على معرفتهم . لا رجال التأليف الذين نقرأ كتبهم بل احياء اليوم الذين يجب علينا ان نساعدهم على خلاص نفوسهم

— انا موافقك على هذا ... ففي الجندية يختلط الناس بعضهم ببعض وجنودنا يعلمون حقّ العلم ان الكاهن انسان مثلهم ومن جبلتهم

— اسمع فاكمل لك القراءة ؟

أيستطيع رفقاؤنا الجنود ان يقولوا عنا : ليس الكهنة من جبلة غير جبلتنا ولا هم من ذرّية غير ذرّيتنا ، فلحياتهم الادبية قواعد وشرائع كما لكلّ الناس ، الا انهم يؤمنون بها ويطبّقون حياتهم على مبادئها

— لقد احسن الكاتب !

— اسمع لي هذه الكلمة عن البزّة العسكرية التي يرتديها الرسول ويستطيع ، اذا شاء ، ان يعمل وهو يلبسها :

يجب علينا ، كل مرة تناولنا البزّة لنطرحها على اكتافنا ، ان نفكّر بثوب النعمة الذي نلبسه ، ولا ينبغي ان نلبسه قبل ان نقبّله كما نفعل ، كل صباح بثوبنا الاكليريكي ، فالثوب العسكري هو ايضاً ثوب الفقر لانه ليس لنا،هو ثوب الطاعة لشريعة سمح بها الله ،

ثوب الطاعة لقانون وطني جدير بان يولّد فينا روح التضحية والتجرّد وهما من اخصّ واجبات الاكليريكيين ، خصوصاً ثوب الاخوّة الذي يجعلنا مشابهين الآخرين لا بالخارج فحسب بل يساعدنا على ان نشعر بآلام التي تشعر بها قلوب من لبسوه

فقهقه غاستون وقال : هذا خليق بان يسمّى شعراً . ما كنت احلم بان اسمع هـذا عن البزّة العسكرية ، ولكن هذه عقليّة المتزهدين ! على اني اظن يا هنري ان الجنود لا يدركون هذا العلو الشاهق بل يعتبرون رفيقهم الاكليريكي ولداً مؤدباً ليس الاّ ، ولا يذهبون الى ابعد من هذا . فما قولك ؟

— بلى انهم يحلّقون الى اعلى مـا تتوهّم . اصغ لي سمعاً فاقرأ عليك صفحةً تؤيد قولك ! آه لو تعلم كم أثرت فيّ قراءة هذه الصفحة وملخّصها : ان جندياً اكليريكياً مرّ بمكتب ضابطه مساء يوم من ايام الشتاء . وكان في المكتب مدعوّون كثيرون . فاستدعاه الضابط وقال :

أفهمت علامَ يدور حديثنا ؟

قال الاكليريكي : لا يا سيدي !

— نقول : اسعد الناس من اختار الطريق الذي اخترتَ

— هذا ما اعتقدت وأعتقد ولكن ما حملكم على الجهر بهذا ؟

— اجل انتم معشر الكهنة اسعـد النـاس لان لكم من الشجاعة ما يجعلكم تغلبون انفسكم وتتسلّطون على اهوائكم ، يحلّ الله فيكم بل . نعمه فتعرضون مستغنين به عن كل مـا في

الحياة من لذّة . انكم تحبونه فوق كل شيء وقد استبسلتم في محبتكم حتى انكم لا تعشقون في الحياة سواه . اما نحن فانما تنقصنا الشجاعة ...

ما اتمّ هنري القراءة حتى طرح النشرة على الطاولة واسترخى وقال :

اجل لقد نطق الضابط صواباً ، هي الشجاعة تنقصنا . وان لوسيان وامثاله لمن السعداء.

قال غاستون ضجراً : دعهم في نعيمهم يغتبطون ، وتعالَ نأكل . أتريد ؟ لقد حمل الخادم القهوة وكادت تبرد ...

— اشربها باردة وان تافهة مثل هذه الزبدة . وهي من احطّ نوع . آه لو تشعر باضطراب نفسي وقلقها ! في مثل هذه الساعة يحسو والدي كأساً من الشوكولاتة اللذيذة ويقرأ جريدته فرحاً على سطح السينات بين الزهور، ثم يقوم ويدور دورته حوالى المزرعة تظلله الاشجار فيقطف الاثمار ويستنشق الروائح الجميلة من الازهار الفوّاحة ، وانا في مثل هذا الوقت اذهب الى مرأب اعرفه او ادخل الى هذه الغرفة التي لا نور فيها ولا هواء ، فاحبس نفسي بين جدرانها أقلب صفحات كتبي لاكتب مقالةً ادرجها في ذلك المعجم ، وذلك لاحصّل شيئاً اقتات به ! ...

انهم يقولون : ان الحياة جميلة ! وانا اقول انها لمهزلة . والذي يقتلني حسرةً قول الناس فيَّ : « ان هذا لشابٌ خليع ! »

٣

خرجت الفرادة وايلى من المترو في محطة الكونكورد

وابتسمتا لحرارة شمس حزيران وحركة شارع ريفولي ، ونعومة الهواء اللطيف ، وقد دغدغ وجوههما بنسياته حاملاً اليهما روائح الورود والياسمين

قالت الفرادة : سنقوم بنزهة جميلة مشياً على الاقدام ، انظري لقد خرج الباريسيون كلهم افواجاً وجماعات وافراداً عصر هذا النهار ... هاكهم يمشون كأن ليس لهم شغل في هذا العالم ، سوى ان يطوفوا الشوارع ليروا الناس ملابسهم وتبرّجهم ويتمتّعوا بهذا اليوم الجميل . فلنعمل عملهم !

قالت هذا وانطلقتا تقفزان مسرعتين يساعدهما ثوبها الضيق وقدّها الناحل مع ما تنتعلان من احذية عالية الكعوب ووجهتهما الشارع الملكي

كانتا تمرّان آمنتين بلا توقف ولا تردّد شأن الباريسيات اللواتي لا تخيفهنّ العجلات والسيارات ، وان كثرت ، متجنّبتين العوائق والمخاطر ، متحدّثتين بين المارّين مسرورتين كانهما في منتدى

كانت ليلى ، لايام خلت ، قد اصابت نجاحاً عظيماً بغناء غنّته خارج باريس في حفلةٍ أُرصد ريعها لاعمال الرحمة

— لقد قدّموا لي زهوراً جميلة يا عزيزتي وبلغت منهم الحماسة مبلغاً عظيماً حتى لقد استقبلوني استقبالاً ملوكيًا

قالت الفرادة : أحسدك على حياتك . نعم لقد احسنت عندما احتفظت بحريتك ، يلذك طبعاً ان تفوزي باستحسان الناس وتصفيقهم ، وان تنبهي في نفوسهم عواطف الاعجاب بفنّك كما يلذك اكرامهم لك وتزلّفهم اليك . ما اضجر حياتي وأتفهها اذا قوبلت

بحياتك . زوجي من عامة الناس . عاش لكلّ ما هو مادّة ، لا يعرف من العالم الا زاويته قرب النار حيث يجلس مستريحاً ، ولا يلذّه الاّ ما يهيأ له كل يوم من طعام، ولا يهمّه من شيء الا ما يجمعه من مال

المال ! المال ! . . . ليس على شفتيه غير هذه الكلمة . وحكمه على الناس بضخامة محافظهم ، فيحتقر الذين لا يسعون ليزيدوا مداخيلهم بطرقٍ علميّة . امّا الذين لا يملكون شيئاً ، فهما تكن خلائقهم ، فهو يجهلهم ولا يقرّ بوجودهم . هاكِ مثلاً : پول داڤوان، شابٌ ثاقب الذكاء فنان من الطبقة الاولى لا يعوزه سوى بعض الدراهم ليستأجر بيتاً وينتظر زبائنه ، ليشتغل لا سعياً وراء الخبز بل لاجل الفنّ فقط . . . وفي مثل هذه الظروف تبرز شخصيّة الفنان السامية

— لا شيء احقّ من هذا ! وما فعلتِ لاجل داڤوان ؟ هل استعطيتِ شارتير ؟

— نعم ! . . . او تعلمين جوابه . قال : ان فنّاناً مصوّرًا لا يأتي عملاً يدرّ عليه الربح لهو جديرٌ بان ينظّف نحاس المنازل وييّض جدرانها بالكلس !

— هذا منطق شارتير . أتعرفين يا أُختيّة ؟ اذا كان زوجك ينمو كل يوم بالعمر والحكمة ، فان بخله لا ينقص بل بالعكس يزيد وينمو . كل يوم يمضي يضيف فيه شيئاً الى بخله وان لم تحتاطي للامر وتنظّمي علاقاتك به استعبدك . وربما صار هارپاغون بازائه كريماً جواداً

فتنهدت الفرادة وقالت : لمن تقولين هذا . اليوم صباحاً خاصمني لاني عبتُ على خياطتي امرًا ، وهو يرى اني اتطلب كثيرًا واخرج كثيرًا ، واني لا اهتمّ الاّ بالتلهي والتزهات . . .

وبماذا يريد ان اهتمّ ؟ ليس لانه في تمام السابعة والخمسين ، ومصاب بمرض النقرس ولا لانه لا يحب ان يفارق البيت ، اقبل ان احبس نفسي ضمن جدران هذا البيت لارضيه . . . نعم اني ساستجيب يوم يخط الشيب رأسي لا قبل هذا ، اما الآن فاني أريد ان انعم بشبابي وثروتي واصرف في سبيل افراحي ما تغلّ عليّ اموالنا وارزاقنا !

فضحكت ليلى ، وقالت : توظيف المال صعب في هذه الايام ؟ فعلى زوجك ان يشكرك لانك تصرفينه وتوفري عليه ما يلازم اختيار الدائنين والمصارف من هم وعناء !

— لا تعجّلي يا اختي ببيع حريتك . فزواجك السنة القادمة سابق لاوانه

— السنة القادمة او السنين التي تتبع ! لست مضطرة الى ذلك . هنري لطيف محب لي ، على انه لم يقرّ قراره حتى الآن ولا اشغل مركزًا يكسب منه مالاً ، وهكذا فلن يصير غنيًا طول حياته . ثم من جهة اخرى أهو غني بصحته ؟ لا لعمري لقد أسرّ الي غاستون البارحة ان هنري لازم فراشه الاسبوع الماضي يومين متواليين والحمّى تعاوده . وما سبب ذلك ؟ سببه ان غاستون يقوده ، منذ ايام ، الى المسارح الصغيرة فيتعشيان نصف الليل قبل ان يعودا الى غرفتهما في شارع بوسكه

— كان هنري كل عمره هزيلًا ، لكن لا تأسفي ، فهزاله واصفرار وجهه يزيدان في جماله ، فهو لبقٌ أين !

— اجل ان رأسه لرأس بطل وعينيه تارةً متوقدتان وطورًا مظلمتان ، وجبينه مقطّب تعلوه ابدًا غيوم الحزن ... ان حزنه الدائم يضجرني يا الفرادة . لم أرَه مرّة مسرورًا سرورًا كاملًا ، واذا ضحك تكلّف ، وكلما اعتقدت انه بجملته لي شعرت بانه مفلتٌ مني . يصغي اليّ اتكلم وعقله شاردٌ ، يحكم عليّ احكاماً قاسية ... بلا حقٍ . انه لا يفضلني في شيء وهو عالم هذا . واذا صحّ ذلك فلمَ هذه الابتسامة الصامتة تطفح بالاستهزاء المرّ القاسي ! آه ان هنري شاب ملؤه ألغازٌ واحاجٍ لا اقوى على حلّها !

وقفت عند هذا الحدّ من درس نفس خطيبها واخلاقه ، وكانت الاختان قد وصلتا الى حاجز شارع « مادلين » فوقفتا مبهوتتين في شارع الزهور ثم انتحتا ناحيةَ الشمال ودخلتا حانوت خياطٍ انكليزي في زقاق « مالرب »

فقادهما الخياط الى غرفة التجربة . فجلستا تعبتين من تلك النزهة الطويلة وجلبة الشوارع . وما هي الا هنيهة ، حتى نظرت ليلى الى المرآة الكبيرة فرأت صورتها وهي صورة فتاة جميلة . فلقد كانت ليلى معقوصة الشعر وعلى رأسها قبعة واسعة تهتزّ عليها ريشات طويلة بيضاء اولعت بها كثيرًا سيدات باريس في ربيع تلك السنة ، فراقت لها القبعة ونظرت الى اختها نظرة اعجاب فوجدتها متشحة بثوبٍ جديدٍ والخياط واقف امامها وقفة الفنان المفكر ، امام عمله

يصلحه وهو على جسمها . فانتقدته ليلى ، ولكن الخياط البريطاني كان صامتاً متظاهراً بانه لم يسمع شيئاً ، وكان يدور برزانة حول الفرادة ويده على ذقنه مقطباً مفكراً . وما لبث ان خرج من تفكيره واحلامه وشرع يفتق كمّ الثوب بسكين . ثم اخذ قطعة من الصابون الابيض ورسم خطاً جديداً طواه من هنا وعلق به دبوساً من هناك وركع ليدور الثوب من أسفل . . . ثم عمد الى اصلاحات اخرى . فاختفت الثنايا التي كانت في غير محلها وأفرغ القماش على الجسم فاصبح الثوب غلافاً للجسم محكماً . فتباعد الخياط قليلاً وتنازل ففتح فاه وقال :

أوريط !

فاثبتت ليلى كلامه قالت : أجل « أوريط ! »

فسألته الفرادة . متى يتمّ فتسلّمني اياه ؟

اما هو فكان يدوّن نقاطه غارقاً في حساباته . فعادت الاختان الى الكلام عن الاقمشة واختراع الازياء الجديدة واخذتا تتصفّحان مجلة للازياء كانت امامها منعمتين النظر في صور من حرير عُلقت على الجدران تمثل آخر الازياء الباريسية . اخيراً تركتاه وخرجتا وهما تفكران في الساعات الطويلة التي صرفتاها في تجربة الثياب والقبعات والثرثرة والتردّد الى المحلات الكبرى او الى دكاكين التحف والنوادر !

هما الآن في الشارع الضاحك المزدحم بالمارات الجميلات المتبرّجات اللابسات قبعات الربيع ، وفي آخر صف الشجر كانت بائعات الزهور يجررن عجلاتهنّ طافحةً بالزنابق الفوّاحة والرياحين

والورود العطرة . وكانت هناك بائعات صغيرات يقدمن لكل المارين وسادة من الورق المنفوخ ملأنها حبوباً عطرية

— اشتروا الخزامى وناردين الاب !!

وكان باعة الجرائد متأبطين حزماً منها يصيحون بملء افواههم : الصحافة ، الصحافة آخر الاخبار النكبة الاخيرة !

فاضطربت الفرادة وسألت اختها : وماهذه النكبة؟

اجابتها ليلى : مئات من الناس البُله دهمتهم كارثة فسُحقوا لا اعرف اين ؟ .. ولمَ تأخرتِ يا الفرادة تقدمي ... اما نكبتنا فاننا تأخرنا عن الموعد الذي ضربناه لمصوّري ! وسيكون عنده پول داڤون ، أليس على هذا تواعدنا ؟

— بلى ، وقد طلبته ليأتي فيرى صورتي المكبَّرة وينتقدها وسنرى هناك ايضاً هنري وغاستون

كان الشابان قد وصلا ساعة دخلت الفرادة وليلى بهو الانتظار . وكانت صور كثيرة معلّقة بجدران الغرفة ، وصورة الفرادة المكبّرة موضوعة على قاعدة من خشبٍ قرب الشباك تمثلها جالسةً على كرسي ذات مسندٍ عالٍ ، وقد رفعت رأسها الزاهي فظهر عنقها الابيض وزادها جمالاً شعرها الاسود المدوّر كتلاً على خدّيها

وما ان رأت الصورة الفرادة حتى قالت : ما هذه بصورة بل حفرٌ فنيٌّ !

اجاب پول داڤوان : ألم أقل لك هذا . ولم يتمالك ان وقف وقفة الجدّ وألقى محاضرة قصيرة قال : « تقدمي فانظري هذا الوجه عن قربٍ ما اجمله ! فانك لا تجدين لا التقاطيع النافرة ولا كثرة

التفاصيل التي نراها في بعض الصور فنعدّ شعر الشخص المصوَّر. امّا هنا فلا شيء من هذا ، لا خطوط بارزة ولا الوان قاتمة ولا انوار حادّة. تأخري الآن وتأملي قوة الحياة فيها، انظري الى هذا الرأس الغارق نصفه في العتمة، كأني به يحاول الوثوب من اطاره ... ثم التفت الى ليلى وقال : « انت ، لا شك مسرورة »

أجابت ليلى : انها جميلة . لا انكر عليك ذلك . ولكني اريد منك بعض تنقيحات واصلاحات

— أين ؟

— هنا ، حول العينين ، يجب ان يكون الظل اعمق فيكسب النظر سناء وجمالاً

— ذلك لكِ ، فما طلبت الاّ الهيّن !

كان هنري في هذه الفترة يتأمل فيتعجب ، وعلى وجهه سيماء السرور والرضى . وكان يداعب دافوان ويُدخل في حديثه معه كلاماً يعبّر عن طول باعه في الفنّ ومعرفته للفنانين

ثم قالت الفرادة لهنري : اجلس يا عزيزي فيأخذ رسمك . إلبس وشاحاً اسبانياً وقبعةً من اللبّاد وسيعة الجناحين وسلم نفسك للمصوّر فيخرج لنا اعجوبةً من اعاجيبه

اجاب المصور : أصبتِ ، سيكون رسمه جميلاً جدًّا

اما ليلى فكانت تنظر الى صورتها مقطّبة . فأنست ذلك منها اختها الفرادة فقالت : ألستِ مرتاحة اليها ؟

— بلى ! كلّ الارتياح ، لقد توفّق المصور ، الا اني ارى ان العنق طويلٌ ، وان صلته ليست بيّنة ، وانه ينقصني ، في هذه الصورة ،

كما ينقصني كلَّ مساء عندما اتشح ملابسي حليٌ بدونه تظلّ زينتي، لا بل كلّ زينة اتحلّى بها ناقصةً ، بل عادمة الجمال والطلاوة ! !

— ايّة حليةٍ تنقصك ؟ أعقدٌ ؟

— نعم عقدٌ . آه اني لا اطلب كثيرًا فالقليل يكفيني ، يرضيني خيط من اللؤلؤ أسمعت يا هنري ، فاذا خطر لك يوماً ببال ان تقدّم لي شيئاً يسرّني ، فحقق لي هذه الامنية ، التي طالما نغّصت عليّ عيشي ... سمطٌ من اللآلئ ! !

اجاب هنري : سيكون لك بدل العقد عقدان من اجمل العقود صبرًا فاربح الياناصيب

— غريبٌ طبعك يا هنري ، انا اجادك ، وانت تمازحني . انا في حاجةٍ قصوى الى هذا العقد . فان لم احصل عليه متُّ حسرةً !

— همٌّ جديد أضيفه الى همومي وأضعه في ذاكرتي همّ العقد ! !

— انت قادر على اعظم من هذا وأجل، اذا ما قدتني يوماً الى صائغٍ ماهر

— والمالُ يا مليكتي ؟ ؟

— المال ؟ اسمعي يا الفرادة . ان الرجال ، كما قيل فيهم ، لا يصدقون ! المال من همّك لا من همّي . انما انت خلقت لتحصّله . وما لنا وهذه التفاصيل ... المال هو اللازمة التي تتغنّون بها كلّما طلبنا منكم شيئاً . المال ؟ هو شيءٌ يُحظر على النساء ان يتحدّثنَ به ... ان لم يكن لك من المال ما يكفيك ، فيجب عليك ان تسعى اليه ... والوسائط كثيرة ... أسمعت

اجاب هنري بصوت متقطع : نعم ! لم تفتني واسطة الا استعملتها

— اذن تعيّرني اني حاملةٌ اياك على الاستدانة ؟

— لا يا عزيزتي ليلى ، لا أعيّرك بل أريد ان أبيّن لك اني لست ممّن يذوب عطشاً الى الذهب والحفاظ عليه . لقد دقّت الساعة الخامسة فهلمّي معي الى المقهى نجرعُ واصحابنا كأساً من الشاي

قالت ليلى : حييت يا هنري ! فاجتهد في ان تجعل لقمة العصر جميلة انيقة . . . أتدعو كلّ الرفاق ؟ انك لشهمٌ ، وقد ظننتك حاردًا ! رُح ! متى شئت ان تكون لطيفاً فليس من يضارعك يا عزيزي

فصاحت الفرادة : ليتَ زوجي يتعلّم منك . انه ما دخل قط مرةً حانوت حلويات . بل لا يستطيع ان يفهم كيف يدخل الناس الى مثل هذا الحانوت

اجاب پول داڤوان : ذلك لانه لا يحبُّ الحلوَ

وما هم ان وصلوا في الحديث الى هنا حتى كانوا نزلوا الطوابق الثلاث واستقبلوا في الخارج الشمس والسرور وكثرة الناس والسيارات ، وبكلمة موجزة حرارة باريس اللطيفة في مثل تلك الساعة

قالت الفرادة : سيروا بنا الى الجانب الايمن . اني اعرف هناك مقهىً جميلًا فيه من ضروب المشروبات والمآكل الفاخرة ، ما يرضيكم

وما هي الا هنيهة حتى شوهدوا جالسين فرحين، كطلاب نالوا عطلتهم ، الى منضدة حوت من اشكال الحلوى ما لذّ . وكانوا ، وهم يكرعون الكؤوس ، يضحكون ويتحادثون ويتفاكهون ما راقهم ، وقد سألتهم الفرادة الفضولية :

هل صممتم النيّة على ان تقضوا سهرتكم في لوناپارك ؟

اجاب اخوها غاستون : نعم لان هنري يجهل هذا المكان وما فيه من الاشياء الجميلة الجذّابة ، وتعدنا اعلاناته في هذا المساء بمفاجآت يكون لها وقع في قلب هنري فيسرّ ويتلذّذ

قالت ليلى مغتبطة : اليكم بنا ! ألا اقتدمونا معكم ؟ من الواجب ان ننهي يومنا كما بدأناه بالفرح والسرور

قالت الفرادة : أصبتِ ! اصبتِ ! ان زوجي سيتذمّر . لكن لا بأس ، فان لم يشأ ان يرافقنا تركناه قابعاً في زاويته ومضينا . . . يكفيني من الرفقاء الفرسان الثلاثة ! ألا تكون انت برفقتنا يا پول ؟

— انا رفيق المازح واللاهي !

— أحسنت ! نذهب الساعة الى بيتنا في شارع فرنسوا الاول، فنتناول طعام المساء ، ثم نلبس ثياب السهرة ، وعند الساعة الثامنة تأتون الينا فنذهب معاً

كانت ليلى عندئذٍ مسندةً رأسها الى كرسيّها وشمالها على المنضدة ويمناها تدير الكأس على شفتيها اللطيفتين، فوافقت على خطة اختها بعينيها الضاحكتين . . . وكان في زنّارها وردة ذابلة انعشها المشروب الذي كانت تتجرّعه جرعةً جرعةً ، فاذا بوجهها يتلألأ

جمالاً تحت قبعتها الواسعة ، فعزّ على هنري ان تترك المنضدة، وكان يودّ لو بقيت جالسةً لينعم بمنظرها وهو صامت

الا ان الفرادة كانت تلحّ عليها بالنهوض لانها كانت ضربت لصديقتها بلانش موعد لقاء في الساعة السادسة

نهضوا جميعاً وما خطوا في الشارع بضع خطواتٍ حتى رأوا سيارة مقبلةً مسرعة واذا بها تقف امامهم فجأةً ويدُ رجل تخفض زجاجها ورأس ابراهيم ميلس يطلُّ من بابها

— ما اسعدني بمصادفتكم ،لقد مضى على فراقنا زمن طويل .ما شأنكم في هذه الانحاء ؟ فسردت له ليلى كل ما عملوا،بعد الظهر، بثلاث جمل .

— انتم فرحون سعداء ، وأرى انكم لا تضجرون ، أتمنّى لكم المزيد واحسدكم ... انا راجع من اجتماعٍ اداري اضجرني

فعرضت عليه ليلى ان يرافقهم الى السهرة ، قالت :

اننا ذاهبون الليلة الى مقهى لوناپارك لنختم يومنا فرحين ، فاصحبنا يا ابراهيم . فاطرق اليهودي المتمول هنيهةً ثم قال : في هذا المساء ؟ اجل انا حرٌّ ، رضيتُ ، سأرافقكم . ثم فتح باب سيارته وقفز الى الرصيف وقال : إسمحنَ لي يا سيداتي ان اقدّم لكنَّ سيارتي تقلكنّ الى بيتكنّ

— كلك لطف ! فلا ازعجت نفسك

— لي شغل في هذا الحيّ فلا تقلقنَ ، ساعود مشياً لاني لم امشِ اليوم واستبقينَ السيارة ما طاب لكنّ ، وسيكون السائق رهن امركنّ

— قلّدتنا جميلاً لن ننساه ... الى اللقاء هذا المساء!

أُغلق باب السيارة فعجّت وافترق الشبان . فراح هنري وغاستون الى غرفتها على مهل فوجدا عند البواب بعض رسائل ، فقضّها هنري وأجال نظره فيها وتوقّف طويلاً عند احداها فصاح غاستون :

آه من الناس ما أثقلهم ! تبّاً لهم ! أنى لهم وقت ليكتبوا رسالةً مؤلفة من ستّ صفحات ! يكتبون ست صفحات في حين انهم يستطيعون ان يرسلوا رقعةً بريديّة ! ! يرجع عهد هؤلاء الى ما قبل الطوفان . هي امك طبعاً ... تعظك : ان اشتغل ، ان اقتصد ؟

اجاب هنري وعلامات الرصانة باديةٌ على وجهه :

ساء ظنّك ! هذا صديقي لوسيان ريفيار . يخبرني انه يسام شماساً يوم السبت القادم في كنيسة إيسي . ويدعوني الى حضور حفلة السيامة

— اظن انك ذاهب الى هناك تضيّع الوقت في التعرف الى شبان ساقهم سوء البخت الى اعتناق حالة يندمون فيما بعد على اعتناقها ، كلّ الندم . انت مجنون اذا فعلت !

اجاب هنري وقد تجلّت العزيمة في جوابه : ان لوسيان اودّ اصدقائي وأخلصهم لي ! وذلك اليوم هو اعظم ايامه . فهو يدعوني وانا ذاهب !

٤

في يوم السبت المعهود من شهر حزيران ، ليلة عيد الثالوث

الاقدس، كان هنري في قطار الكهرباء ينظر على غير اكتراث الى الصروح والاشجار وجدران المدرسة الحربية والساحات الواسعة تمرّ امام عينيه

كان في مقدّمة القاطرة وحده الا رجل في جداره يناهز الخمسين ، قصير القامة طويل اللحية ، غارق في جريدته . ولما وصل القطار قبالة الحصون توقّف الرجل المجهول عن القراءة وقال: أوصلنا الى إيسي ؟ لا شكّ انك آتٍ اليها ، ايها الشاب . إهدني ، اذا شئت ، فانا لا اعرف باريس ولا ضواحيها

أجاب هنري بصوت فاتر : أجل اني قاصدٌ إيسي

— انت من المشغوفين بالطيران . كذلك الكهل الذي يكلّمك وقد بلغ حبه للطيران مبلغ الجنون ! فماذا عسانا نرى بعد عشرين سنة ! ؟

— أإلى الطيران انت ذاهب ؟

— طبعاً واني لمترقّب ان أرى طائراً من طيورنا الجبّارة يحلّق عالياً في هذا الصباح ، فلم أشأ ان اعود الى مقاطعتي قبل ان ارى طيارة تحلّق . . . لا بدّ ان نرى واحدة تطير ! . . .

— لست ادري ، ولست الى المطار بقاصدٍ

— الى اين وجهتك اذن ؟ وقد قلتَ انك آتٍ الى إيسي ؟

— ان في إيسي يا سيدي اشياء غير الطيارين والطيارات . انا ذاهب الى المدرسة الاكليريكية !

فدهش الرجل وارتخت اعصابه فسقطت الجريدة من يدَيه ، لانه كان من مدينة صغيرة تُدعى « هومس » وقد قضى عمره يمتدح

الاكتشافات والتقدّم هارباً من الثوب الاكليريكي ...

فقال : الى المدرسة الاكليريكية ، ملجإ الخمول ؟ أصحيح ما تقول ؟ أمثل هـذه الملاجئ تُبنى بازاء ساحة المجد حيث يطير فرسان القبة الزرقاء الى فتح السماء ؟ ؟

وصل القطار الى ابواب ڤرسايل فهرول الشيخ نازلاً من القطار معتبرًا نفسه سعيدًا ، اذ تسنى له ان يهرب من رفيق اكليريكي على جانب كبير من الخطر

ففكّر هنري في كلامه : « فرسان القبة الزرقاء » هؤلاء يحتقرون الارض وما فيها وما عليها ليفتحوا السماء ويساعدوا الناس على الاستفادة من فتوحهم ... من هم هؤلاء ؟ ومن منهم تختصه بغار الظفر ؟ أطيارو إيسي ام اكليروسها ؟ ؟

وما لبث ان ترك القطار كصاحبه ! وما سار بضع خطوات حتى رأى امامه ، في شارع ارنست رنان ، بيوتاً كثيرة النوافذ ، وعن شماله ، تحت الجدار ، لاح سطح الكنيسة عالياً ، كنيسة المدرسة الاكليريكية

وكان في ساحتها جمهور غفير من الاهل والاصدقاء ينتظرون فتح الابواب ، وقد نُصب ، فوق رتاج الكنيسة ، تمثال العذراء يمثلها ضاحكةً كأنها تقدّم ابنها للزائرين

وكان هـذا التمثال عزيزًا عنـد سكان إيسي جميعاً . ولم يتقدم هنري قليلاً حتى شعر بيد امرأة تمتدّ الى يده ، وصوت عرفه يقول له بمنتهى اللطف والدعة :

أشكرك يا هنري على مجيئك . ان قدومك ليسرّ لوسيان ،

وتيقّن انك لو لم تأتِ لكان فرحه ناقصاً

فرفع هنري عينيه فوق عقيلة ريثيار اللطيف وشعرها الفضي ، وقد وصلت امس الى باريس مع بعض النسيبات وخادمةٍ قديمة العهد رأت لوسيان يوم مولده فعُنيت بـه طفلاً وخدمتـه صبياً ودارساً . . .

— اجل هي جـانت ، جانت نفسهـا شاءت ان تحضر الاحتفال . . . إبقَ معنا ، يا هنري ، فلنا في الكنيسة امكنة خاصة

حان موعد السيامة ، فدخل المدعوُّون في ممشى الطابق الاسفل ، وصعدوا في السلّم المقفيّة الى الطابق الاعلى ، وتابعوا السير في الممشى الموصلة الى الكنيسة . فأُجلس هنري على كرسيٍّ في الصف الاول جهة اليمين ، قرب درجـة الخورس . فراح يسرح نظره في مـا حواليه متعجّباً ! ولم يكن يحلم انه يرى كنيسة جميلة في مـدرسةٍ اكليريكية !

رأى فيها عجائب القرن السابع عشر ، قرن العظائم ، صحنهـا من الرخام اللمّاع وسقفها مدهون بالوان برّاقة كانها كنيسة ملوكية نُقلت من ڤرسايل . وكان نور حزيران اللطيف يدخل من نوافذها العالية وعليها صور مختلفـة الرسوم والالوان ، كُتبت عليها آيات لاتينيـة . وكان للكنيسة تجـاه كل طابق رواق يحيط بهـا تسنده قوائم بيضاء وأعمدة من رخام رماديّ الـلون . فاكتظت بالجموع . فطرب هنري لهذا المنظر وعادت اليه خفّة روحه فتمتم من خلف شفتَيه :

— انها لاشبه بقاعات التمثيل !

وكانت الكنيسة تحت الاروقة لا تزال فارغة تلوح بمقاعدها المحفوظة كأنها قاعة تمثيل . كان صحن الكنيسة كله لا يزال فارغاً ، وكان بلاطه مفروشاً بالسجاد الاحمر اللون ، يمتد حتى درج المذبح ، ولم يكن هناك كراسٍ . اما مقاعد الكهنة والاكليريكيين فكانت تواجه المذبح منظمة بعضها تجاه بعض ، طوال الكنيسة يميناً ويساراً ، وتحت الرواق ، عند مدخل الكنيسة ، قرب الارغن ثلاثة او اربعة كهنة شيوخ جالسين مطرقي النظر يفكرون بالله . عبثاً يتحرك الناس ويضجون فوقهم ، عبثاً يعمد الموسيقي الى الضجة بفتح الارغن وتقليب صفحات كتبه ، وعبثاً تتصاعد الضوضاء من جوق المرتلين في جلوسهم ، فالكهنة الشيوخ لا يتحركون وهم غارقون في بحر صلواتهم وتأملاتهم

كانت عليهم قمصان بيضاء تزيد بانتفاخها وتجعدها حدبة ظهورهم . وكانت رؤوسهم الصلعاء تلوح لمن فوقهم ككراتٍ من عاجٍ على شاشاتٍ ناصعة البياض

فُتح باب الكنيسة فدوت فيها اصوات الملحنين مقبلين من البستان . ثم دخل الشمامسة باحتفال رائع يتقدمون رئيس الاساقفة بعضهم بلباس اسود وآخرون بقمصانٍ بيضاء ، والشمامسة المستعدون للوسم بلباس ابيض . فاذا بهنري يجد بين هؤلاء من كان يفتش عنه ، اي ذلك الشاب اللاوي الجميل ، الذي يمشي الهوينا بين رفقائه مكتوف اليدين ، اصفر الوجه ، يتدفق منه فرح السماء

— لقد تحققته ! فهذا رفيق حياتي ، هذا اعز رفاق صباي !

وكانت قرب هنري عقيلة ريفيار، ضامةً اصابعها على درابزون الرواق . فتمتمت بصوت تخنقه العبرات : ولدي ! لوسيان ! !

وكان لوسيان ساعتئذٍ قد احتلّ مكانه في الصف الاول بين الاكليريكيين ، غير بعيد عن درجات الخوروس . عندئذٍ بُدئ القداس ، ولم يلبث ان أُوقف للاحتفال بقص الشعر

وكان هنري يتبع كالحالم صفّ هؤلاء الشبان المرتدين السواد ، يتقدمون اثنين اثنين ، ويصعدون الى المذبح ، حيث يجزّ الاسقف شعرهم فيسقط تحت مقرضه ، ويرجعون الى اماكنهم مضمومي الايدي ، خاشعين ، حاملين على ذراعهم القمصان البيضاء مرتّبةً بطريقةٍ يسهل لهم معها ارتداؤها اذا ما حان الوقت لذلك ، بعضهم صاعدٌ وبعضهم نازل بنظام بديع وحركة واحدة متناسقة ، يلمع على رؤوسهم الشقراء او السمراء الاكليل الاكليريكي ، وهو اكليل ظاهر ابيض مدوّر كالبرشانة ، فالقميص الابيض الجديد، قميص الطهارة، لباس العفاف . تلك هي رتبة الاكليريكيين الذين رُقوا الدرجات الصغرى

فيمَ كان هنري يفكر؟ كانت ام لوسيان قد قدّمت له كتيّباً شُرحت فيه كل دقائق الحفلة ، فلم يفتحه ولم يقرأه ، بل كان يتفرّس في كل واحد من هؤلاء المختارين للربّ ، وهم شبان مثله بشرٌ من لحم ودم ، تهزّهم حمية الشباب فيرتجفون ، ولكنهم موطّنون النيّة على ان يضحّوا بكلّ ما عندهم ، اميالهم ورغباتهم الارضية ، على مذبح المحبة ، محبة الربّ

وكانت حركات الليتورجية تتابع باتساق، في وسط الكنيسة ،

على البساط الاحمر ، فيتقدمون تارة اثنين اثنين واقفين ، وحيناً منفصلين مسرعين ثمان وعُشار ، فيركعون منصتين لتنبيهات رئيس الاساقفة . فترى الشامسة فرحين مصنَّفين ، على اتمّ الاستعداد للقيام بادقّ الرتب ، تقرّبهم الى بيت المقدس وتسيرُ بهم رويداً الى المذبح . وكان البوّابون يذهبون واحداً واحداً الى الباب يفتحونه ويغلقونه ويعودون ، ويقرعون الجرس الواحد تلوَ الآخر ، والقراؤون يقرأون . ثم شرعوا يضيئون الشموع في صفوف اللاويّين اللابسين القمصان البيضاء ، فسرت الاضواء من واحدٍ الى آخر ، وقد خفّف من حدّتها نور ذلك الصباح ، فبدت كانها ورود شاحبة اللون او نقاط بيضاء ضاربة الى الحمرة ، فكانت اجمل مذبحٍ لشبابهم وتمنياتهم

لم يشرق عليهم بعد فجر الكهنوت المقدس ، ولكن نور نهاره سيشعّ عمّا قريب ، فكانوا يبتهجون لذلك ويتوقّعون طلوع شمسه مغتبطين

ثم عاد الشامسة الصغار الى مراكزهم على المقاعد ، وما لبث الفصل الثالث الاشدّ وقعاً ان ابتدأ

بعد ان دعا الاسقف الذين جزّ شعرهم ، وبعدهم الشامسة الصغار ، قام احد الكهنة فنادى خمسين شاباً باسمائهم واسماء ابرشياتهم باللغة اللاتينية ، وكان صوته يدوي في وسط ذلك السكون ، فيقوم كل من قُرئ اسمه من مكانه ويجيب دعوة الله له قائلاً : ها أنذا حاضر

آه يا لها من كلمة وجيزة ! لفظة تخرج من شفاه مرتجفة

وحنجرة خنقتها رهبة الساعة وخشوع الموقف

« هاءنذا! هاءنذا حاضر ! » . لفظة كانت افواه الفتيان تردّدها، لفظة سامية المعنى ، فيها التضحية بالحياة والكفر بالارادة الشخصية ، وتخلي القلب عن الحب العالمي وعذوبته الى الابد ! . . .

فملأت عيني هنري دموع حرّى بل دموع الدهشة ، بل دموع « الأسف على ضحايا جميلة لا تجدي البشرية نفعاً ! . . . »

ثم وقف الاسقف والتاج على رأسه ، ورفع صوته ينبّه الفتيان الساجدين امامه الى انهم لا يزالون احراراً ، وان في استطاعتهم ان يتقيّدوا بنذر العفّة الدائم او أن ينثنوا عن التقيّد به ، على ما يشاؤون ، فراح هنري ينظر اليهم ويحدّق بل عينيه ويفكّر فيما عساهم يفعلون : هل يتردّد احدهم قبل ابرازه العهد الاخير فيقوم فينصرف ؟ . .

فاصفرّ الفتيان وارتعشت شفاههم وملكهم التأثير فظلّوا جامدين . فراجع الاسقف التنبيه بصوتٍ اقوى ، لفظةً لفظةً ، يردّد فضاء الكنيسة صدى كلماته ، فوقف الحضور خاشعين

قال : « لا يزال الوقت متسعاً لكم ، فافقهوا دعوتكم ، ولئن صحّت عزائمكم ، ورسخ مقصدكم المقدس في قلوبكم ، فباسم الله تقدّموا ! »

فقاموا كلّهم خاشعين وخطوا خطوةً الى المذبح

وبهذه الخطوة ، خلّفوا العالم وراءهم . ثم سجدوا السجدة الكبرى . فرموا باجسامهم الفتيّة الجميلة على وجه الارض ،

فالتصقت بها كالجثث الهامدة لا حراك فيها

وكانت الكنيسة ساعتئذٍ تبعث اناشيد الفرح فوق هؤلاء الموتى ، والامهات يبكينَ ، والحاضرون ، وقد ملكتهم الرهبة ، يحدّقون الى هذه الضحايا النقيّة البيضاء منطرحةً على السجّاد الاحمر ، فيخيل اليهم ان البسط ناثلةٌ صبغها الاحمر من دمائهم

ها هم منطرحون على مسافاتٍ متساوية ، ورؤوسهم منحنية على اذرعهم اليمنى ، واعنقهم غارقة في المنصفة ، والقميص الابيض ، الموشّى بانامل الامّ او الاخت ، تراه على الجسم فتحسب الجسم قالباً له

ها هم راقدون لا يتحرّكون ، واصوات الضراعة صاعدةٌ من جميع المقاعد تنشد طلبة جميع القديسين !

ازهارٌ اقتطفت ، قلوبٌ خُطفت ! حياةٌ قُضي عليها ! ضحايا لا نفع فيها ! يتظاهرون بالموت وهم على حقٍّ في ما يفعلون ! ان هم الاّ اموات . تلك هي الافكار التي كانت ترتكم على رأس هنري في تلك الساعة

ذكريات الانجيل كانت تمرُّ في ذاكرته ، وضميره يهمس في نفسه :

— أجل ! ان هم الاّ اموات . انسانهم الاول ، انسانهم القديم ، قد مات ، ولا اعتداء به سواء أكان شاباً عفيفاً قديساً ام رجلاً دنساً خاطئاً . . . فكلّهم اليوم في النقاء سواء ، أأبراراً كانوا ام متبرّرين ، سينهضون كلهم رجالاً جددًا ، مرسلين اصدقاء واخوة للمسيح ! بل يكونون ، عمّا قليل ، كهنة ، مرفوعين الى

مقام الله نفسه ، ولن يقدروا ان يفكروا او يشعروا او يحبوا كما يفكر ويشعر ويحب الناس ، بل كما يفكر ويشعر ويحب يسوع المسيح ، لان الكاهن لا يظل انساناً بل يكون يسوعاً آخر

كان جوق المرتلين ذاهباً في ألحانه ، والكنيسة تدعو القديسين ، جميع سكان البلاط السماوي ، الى مشاطرتها الفرح بهؤلاء الفعلة الذين يرسلهم ربُّ الحقل الى حصاده

اما هم فكانوا غارقين في صلاتهم ، ذاهلين عن هذه الحياة الزائلة ، موتى عن اباطيل الارض ، مرتمين امام قلب يسوع المسيح ، وهو منذ الآن صديقهم الاوحد ، الذي لا ينقلب عليهم ولا يتركهم ، صديقهم الاوحد القدير ، المحب ، المسعف ابداً ! ! !

ماذا كانوا يقولون له سراً ، وقد سلموه مقاليد حياتهم ؟ واي عهود قطعوها بين يديه ؟ إماتة ابدية ، امانة دائمة ، محبة ثابتة . كانوا يناجونه مناجاة الحبيب لحبيبه ، فهم ليسوع ويسوع لهم . واي شيء يفصلهم عن حب المسيح ؟ لا شيء : لا جوع ولا عطش ، لا اضطهاد ولا سيف ! حتى الموت نفسه عاجز عن ان يقوم حاجزاً بينهم وبينه

أجل لسوف يتألمون لكنهم معه يتألمون ، تسندهم قوة حبه وحنانه . سيحاربون ويشقون ويتعبون ، متحملين ثقل النهار وحره ، ولكنهم لاجله يتحملون ! واذا دهمهم مساء الحياة ، رقدوا في عذوبة صداقته الالهية ، وبها قوام راحتهم ومكافأتهم

لم تكُ خسارة الحياة لتفزعهم . اما الفقر فقد جعلهم اشبه بمعلمهم وصديقهم ، فما عساه ينقصهم بقربه ؟ حضوره الدائم معهم ثروة

دونها جميع ثروات الارض . فهم يردّدون الآن مع صاحب كتاب الاقتداء : انت فيّ وانا فيك ، جميع ايام حياتي ، حتى بين مخالب الموت ! !

تجارة رابحة سامية ، اتحاد لا ينفصم ، صداقة كاملة شاملة ، هي وحدها تشبع قلوبنا شبعاً لا تجوع بعدها الى شيء . . .

اهتزّت قلوب الحاضرين من جميع الطبقات وسرت روح الخشوع في صفوفهم . وبدا المدعوّون من الكهنة القدماء كأنّ حمية كهنوتهم الفتيّ تنبعث فتُذكي ، وجعل الشبان العالميون يتهامسون : أية محبة بشرية توازي هذه المحبة ؟

والامهات انفسهن وعدنَ الله ، باكياتٍ فرحاً ، انهنّ لن يسترجعنَ ابداً ما أعطينَ

آه من له بحضور هذه المأساة تُمثَّل على مسرح هذه النفوس في كنيسة إيتي وقد غمرتها الشمس وبدّدت في جوّها دخان البخور ، وفي باريس الواسعة الاطراف ، في باريس مدينة النور المفاخرة ابداً بانها دماغ الارض وقلبها ، في باريس مدينة المعارض الرائعة والمدارس الراقية والمسارح العجيبة والقصور الشاهقة الفخمة ! في باريس مدينة العلماء والفنانين والخطباء . أتى لنا حماسٌ اشدّ من هذا الحماس ، وجمال يضاهي هذا الجمال وشعور يسمو على هذا الشعور المنبعث من بين جدران مدرسة اكليريكية ، من جانب هؤلاء الفتيان المكبّين بوجوههم على الارض يكتمون موتهم عن العالم ليخلّصوا العالم . . .

وقد أفعم هذا المشهد قلب هنري فرحاً ، فبات يردّد الكلام

الذي سمعه صباحاً امام ساحة الطيران : « هولاء هم فرسان الجوّ الحقيقيون المحلّقون في اثر المثل الاعلى ، الزاحفون الى فتح العالم فتحاً سلمياً . وستصير العامّ القادم هذه الكتيبة من الشمامسة فيلقاً مؤلفاً من خمسين كاهناً يبشّرون بكلمة الخلاص في ابرشياتهم او في ولايات فرنسة او البلدان البعيدة كايرلندة او اميركة . . . خمسون كاهناً ! . . .

« وتستطيع هذه الفرقة ان تجدّد شعباً كاملاً . وحسبها لذلك ان يتقدس افرادها . . . خمسون قديساً يُرسلون الى وطننا الخاطئ ، وخمسون قلباً ملتهباً بحبّ الله والانفس كقلب منصور دي پول وقلب خوري أرس ! تلك خميرة تختمر العجين كله ! ملحٌ يُصلح ما فسد ويطهّر ما تدنّس !

« آه لو كنت اعتزل حياتي السافلة الباطلة القتّالة !

آه لو اني واحدٌ من الخمسين !

آه لو فضّلت الدعوة الاكليريكية على كل ما صبوتُ اليه حتى الساعة ، اذن لكنت اخترت حالةً شرّفت حياتي وجمّلتها وجعلتني شريكاً للكنيسة في جهادها الخلاصي وشريكاً ليسوع المسيح في اعماله الابديّة ! !

في ذلك كان يفكّر هنري ، وهو ساجدٌ ورأسه بين يديه وكتفاه تهتزّان وعيناه تذرفان الدموع السخينة . نسيَ اين هو ، وذهل عمّن حوله ، مصغياً في اعماق قلبه الى اناشيد صباه النقيّة

اجل ، لقد سمع هو هذه الدعوة : « اتبعني » وأعدّ نفسه للرحيل ايام كان في شرخ الشباب ، في سنته السابعة عشرة . وكان يخيل

اليه انّ نفسه الاولى ، تلك النفس الجذلى النقيّة ، لا تزال تختلج بين جنبَيه ، فتجدّد كيانه بملامستها اياه ! أصحيح هذا ؟ أيمكن ان يكون في قلبِ جنفه الشك واذبله الشرّ زاويةٌ خفيّة طاهرة بيضاء تحتفظ بالاماني الطيبة والحميّة والغيرة ، التي كانت تفور في شرايين شبابه ! ؟

تغلغل هنري في هذه الافكار فقطعت عليه سلسلة الاحتفالات ، والاسقف ذاهبٌ في عمله ، وقد وشّح الشمامسة الجدد مختلف الالبسة الكهنوتية ، ثم عادَ الى المذبح يواصل تقديم الذبيحة ، وعند المناولة هبطت قبلة السلام عن المذبح فسارت في صفوف الكهنة من فم الى فم ! ولا تسل عمّا احدثت هذه الحركة الاخوية الجميلة من التأثير العميق ، اذ كان كل شمماسٍ يُكبّ على عنق الاقرب اليه فاتحاً كلتا ذراعيه ليضمّه الى صدره فيتلاثمان

وما انتهوا حتى علوا درجة المذبح ليتناولوا جسد الرب ، وكان كل واحدٍ ، لدى عودته من مائدة الخلاص ، يقف امام كأسٍ مملوءةٍ خمراً وينحني ، جرياً على عادةٍ قديمة ، ليبلّ شفتَيه

وان هي الا دقائق حتى منح الاسقف البركة الاحتفالية ، فصدحت الموسيقى وصدور الحاضرين بتسبحة الشكر . وتأهب الموكب من جديدٍ للخروج من الكنيسة باحتفال كما دخل . كل هذا وهنري جامدٌ هائم في بيداء افكاره واحلامه الماضية اللذيذة

ثم تمتم في قلبه وغصّة اليأس تخنقه : « فات الاوان ! فإن من المنحدرات ما اذا هبطنا الى اسفله ، لم يبقَ لنا من قوّة تسوقنا صُعداً الى قمته ! لقد استرقتني لذاتي بدلاً من أن أسترقها وأسيطر

عليها . ولم يبقَ في وسعي ان أفلت من مخالبها او اكافحها ! زاغ ذهني عن جادّة الادبيات الصحيحة بمعاشرتي اقراناً توهمت انهم يُصدقونني الولاء ، وما كان اشدّ ضلالي ! فأمسيت لا اشعر بحضور الله في قلبي ، وكأن حجاباً كثيفاً قد أُسدل بيني وبينه ، فبتنا غريبَين متنائيَين ! !

آه ! لو استطعت ، أسوةً بتبّاع الملذّات ، ان انساه ! فامحو اسمه من كتاب وجودي ! كم تمنّيت ان لا يكون اله ! ! . . . اني قد سئمت الحياة ، لاني لن استطيع ان انساه ! . . . لن استطيع . . لاني عالم انه كائنٌ ! !

وآحرّ قلباه ! اني لتاعس تائه ضالّ غريق اوهامي !

« انا عالم انه هوَ الطريق والحق والحياة ، بل شاعرٌ بهذه الحقيقة ! ورغم ذلك لا اخفُّ اليه ، لا املك من الشجاعة ما يدفعني الى الذهاب اليه ، مما يضطرّني الى ان اترك لذاتٍ تافهةً واقطع وصلي بعوائد ألفتها . آه لو استطعت ان انسى هذا الاله الذي يعكّرُ عليّ كأس الحياة ويمرّر حلاوة اللذّات العابرة !

« آه ! لو خنقت هذه الجذوة التي تنهك قواي ، ولا تنفك تلتهم قلبي ! متى تضع الحرب في داخلي اوزارها ؟ متى استريح منها ؟ متى اتخلّص من هذه البلوى ، هذا الاسف ، هذا الضجر ، هذا العذاب ؟ ؟ . . . »

ثم وقف ، واذا بالكنيسة فارغة ؟ تركها القوم وتوجّهوا الى الباب يخرجون ، فاتبعهم ، فعرفه ثلاثة شبّانٍ ، فتقدّموا اليه وصافحوه قائلين : « عِم صباحاً ، يا هنري ، جئتَ معنا تهنّئ لوسيان

ريشيار . » وكان هؤلاء من زملائه في مدرسة اوزانام ، وهم لاموت وسارته وماليسته ، وقد عُرفوا فيها بالطلبة الصالحين المنصبّين على الدرس ، وقد أبى هنري مرافقتهم في مجيئه الى باريس . ثم مشوا فتبعهم وهو يتذكر الماضي الذي قضاه معهم في مدرسة اوزانام، فقطعوا المشى وبلغوا بستان المدرسة الاكليريكية

فقال « سارته » : لا يأتي الشماس الجديد لمقابلتنا الا بعد ان يرى ذويه . فهيّا بنا نزور بستان إيتي ، فقد طالما حدّثنا عن جماله وترتيبه صديقنا لوسيان ، فخيّل اليّ اني قد عرفته قبل ان ازوره . وجال هنري مع رفقائه بين الرياحين وسلال الازهار ، حتى وصل بهم الى حوض المياه فوقفوا يحدّقون الى الاسماك الحمراء في حوض الحديقة

وقد حمله الفضول على ان يدفع رفقاءه الى اجتياز الدهليز المفضي الى الحديقة، فتوجهوا نحو منتزه القديس يوحنا ، ومنه الى معبد لورات، حيث كان يختلي لوسيان للصلاة ، فقال رفيقه لاموت : « هنا كان يسكن لوسيان مع اثني عشر من رفقائه الاكليريكيين، وقد أُقيم عليهم ناظرًا ، وكان يتألف منهم حرس الشرف لسيدتنا مريم العذراء والقربان الاقدس ، وذلك دليل على ما لصديقنا من المنزلة الرفيعة عند رؤسائه . »

وممّا استرعى خاطر «ماليسه» «ممرّ الاربعين» «quarantaine» فقال : « كل قدماء إيتي يحدثوننا عن هذا الممرّ . فالواقف فيه يشرف على باريس ! وكم وقفة فيه للكهنة يحلمون الاحلام ويرسمون الخطط لتمليك يسوع عليها كافةً . . . » واذ ذاك تلفّظ لاموت بما

كان يفكر اصدقاؤه سرًّا قائلًا : « جميلة حياة الكاهن ! »

فسأله ماليسه ساخرًا : اتأسف انت على انك لم تعتنقها ؟!

فاجاب لاموتُ ضاحكًا : « لا يا حبيبي ، لكلّ طريقُه . انا اسعد العرسان ، واني اعدُّ الايام التي تفصلني عن إكليلي . واعتقد باني جديرٌ بان اجعل زوجتي اسعد النساء ، وان اربي اولادي تربيةً حسنة . عمل شريف قد وقفت له حياتي بجملتها ، وقد سبقت فاحببته . غير اني على يقين من ان حياة الكاهن اشرف من حياتي واسمى ، فأُعجَب بها واحترُمها . »

ثم عادوا الى المدرسة ، فاذا بهم تحت سقف المشى امام اكليريكي اتى الى الحديقة ، هو لوسيان ريفيار ، الشدياق الجديد ، باسماً متهلّلًا كأن انوار الشمس تُكلّل رأسه ، فبسط كلّ منهم ذراعيه وضمته الى صدره ، وقد عقل التأثر ألسنتهم

٥

قالت ليلى : « اين هنري ؟ لم أره منذ اسبوعين ، انني اشعر باضطراب في نفسي . ارسلت اليه استحضره في هذا الصباح ، وقد كتبت اليه : اني لفي حاجةٍ اليه ، وفي نيّتي ان احدّثه بشأن ذي بال »

فاجابت الفرادة : وما عسى ان يكون هذا الشأن ؟ ألكِ ان تبوحي لي به ؟ هو لا شكَّ خصام حبٍّ ! . . . »

برحت الاختان منزلها قاصدتَين الى حديقة « الباغاتال » ، فجلستا على مقعدٍ من حديدٍ في احد مماشيها . وكانتا قد الفتا ، منذ اوائل الربيع ، الخروج مرّةً او مرّتين في الاسبوع للتنعم بمرأى

الطبيعة ورسم مشاهدها الخلّابة . وكان پول داڤوان قد دبّر لها معلّمةً ارملةً فتيّة تعيش من فنّها ، فتختار لها الامكنة وتفرض عليها رسمها ، ثم تصلح ما وقع في رسومها من الخلل

قالت الفرادة : « هنري ولدٌ متقلّب لا يقرّ له قرار : لا يقيم يومَين متتاليين على حالةٍ واحدةٍ . فهو تارةً حزين وأخرى فرح . اتذكرين فرحه الجنوني ليلة سهرتنا في لوناپارك ؟ انني اراهنك على انه سيأتينا اليوم بوجهٍ عابسٍ ولا عبوس الفرّيسي الصائم . » فأجابت ليلى : « هذا صحيح . وها هوذا مقبلٌ . فانا ذاهبة لملاقاته . »

فسارت مسرعةً ووجهتها القصر ، وثوبها ينسحب وراءها على العشب الاخضر متلألئاً بياضاً ، فرآها هنري فخفّ نحوها ثم قال :

— وصلني كتابك ؟ وبعدُ ، فماذا تريدين مني ؟ وايّ حديث لكِ اليّ

— كان عليكَ ان تستطلعني اولاً عن صحتي ! فلستَ بمكترث لها ، امّا انا فلا ابرح قلقةً لصحتك . انك مريض ، وفي مرضك ما يُبرّر ابطائك في الجواب منذ خمسة عشر يوماً

— كلّا لست مريضاً

— ولمَ تأخرت عن زيارتي

اما هو فلزم الصمت

— قُل ، لماذا ؟ أُريد الوقوف على السبب

— تريدين ان تعرفي ؟ ... لاني قد سئمت مرآك وبجانبك دوماً اما معلمك في الموسيقى الذي أخشى ان يُعلمك اعجابه بكِ ، واما المجنون پول داڤوان ، واماً اليهودي الثقيل ابراهيم ميلس ،

الذي اراه يختلف الى بيتك في شارع فرنسوا الاول

— اذن جئت الى « باغاتال » لتكيل لي صاعاً من غيرتك ؟ ليس المكان مما يوافق لذلك

— آه يا ليلى ! ما اشدّ هذه الامور تنغيصاً لعيشي ! لو تعلمين !

— ألكلامي هذا الوقع في قلبك ؟ انا لا اكترث لذلك بتاتاً ، وانت لا تزال ولداً . قم يا عزيزي فاكشح ضباب الهمّ عن بالك . هاتِ ذراعك وقدني الى حديقة الورد . فقد وددتُ ان امتّع الطرف برأى ورد « باغاتال » في هذا الصباح الجميل ، وانا برفقتك ، يا مطربي المحبوب . »

قاما فتواريا بين ظلال الاشجار ، وقد رأتهما الفرادة يختفيان وراء دوحة من الدُفلى

ثمّ قالت ليلى : « انظر فقد خلا لنا الجوّ ، واضحت « باغاتال » لنا بجميع ورودها . » ومدّت يدها البيضاء الى الزهور تُريه جمالها على اختلاف انواعها والوانها . وكان بعضها منتصباً وقرها ذابلٌ في اعلى ساقها ، والآخر خاشعاً ساكناً بهيئات مختلفة

فتمتمت ليلى قائلةً : ان هذه الزهور لاجل ما ترى أعيننا . وأحسن منها روائحها العطرة التي تتغلغل في مسامّ جسمنا ، فتسكرنا وتذكرني بحدائق اصبهان ، معيدةً الى مخيلتي اشعار « سعادي » الورديّة

اجاب هنري : امّا انا فتذكرني بزياحات القربان الاقدس ، يوم عيد الجسد . فضحكت حتى استلقت وقالت :

— أجل ، لقد كنتَ في ايام الصبا تنثر على شعاع القربان ورق

الورود او تبخره، مما كان يجمل بك في ذلك الوقت . على انك كنت فيه ايضاً تُفكر في ابنة خالك وتتلظى بحبها سراً . . .

— لا لم يكن لي بحبها عهدٌ . ولمّا اخذت أحبها ، كنت عدلت عن تبخير القربان الاقدس، ويا ليتني اصررت على تبخيره . . . ولم اتولّع بابنة خالي . فلو فعلت لكنت . . .

فضحكت ليلى وقالت : ما الحيلة وقلبانا لا يتفقان ؟ اذا سُررتُ انا حزنتَ انت وشكوت انك لا تجدني مرةً وحدي . واذا وقفت لك مواجهتي انحيتَ عليّ باللوم وبدوت كانك سئمتني . افتريد ان تفسد عليّ بهجة هذا الصباح ؟ او لا تدري ان اخلاقك مزعجة ! ؟

— واني لمن هذا اتفئت وأتألم . فان كنتُ سوداويّ الطبع، فذاك لاني لست براضٍ عن حاضري ، واماً مستقبلي فبالمخاوف ارتقبه

— حسبك يأساً يا عزيزي ! واذا ما وُجدتَ في حديقة وردٍ ، وجب عليك ان ترى الحياة وردًا . ترى ايّ شيء ينقصنا هذا الصباح من اسباب السعادة ؟ ها نحن لا نزال في زهرة الشباب، متحابّين ، وكل ما حولنا جميل ، فنحن اذن في فردوس عدن !

قالت هذا وجرّته الى مقعدٍ ، فجلست عليه بجانبه ، ومياه الريّ تتدامى من رأس انبوبٍ متطايرةً في الجوّ يضرب الغمام فوقها قبةً زاهية ، وقطيرات الماء تعلو وتتساقط على شعر ليلى وقبعتها الصيفيّة ، فتترك عليها غبرةً لمّاعة

— قلت يا ليلى : نحن متحابّان ! لعمرك ، اعيدي عليّ هذا

القول . اراكِ مشغولة عني بغيري ، اراكِ مُزريةً بي . لذلك اراني اشك في حبك واخلاصك لي . واني لفي حاجةٍ الى حبك . فيا ليتكِ لا تهدسين الاّ بي ، فتقومي لديّ مقام كل شيء فقدته ولا يبقى لي سوى حبك خالصاً لي وحدي

— آه ! عزيزي وسلواي !

— من اجلك فقدتُ عطف ابي عليّ ، وقد عارض ميلي الى التزوج بك ، واعتدّ خطيبتي لـك ذنباً لم يغفره لي بعد . ولو لم تخفف امي من استيائه وغضبه، لوقف مني موقف الغريب ؟ بل أمي نفسها — أمي ! وهي لا تزال تعطف وتشفق عليّ — اشعر بان ثقتها بي قد تضاءلت منذ قامت الحواجز بين قلبها وقلبي بداعي عصياني اوامرَ ابي واسرافي في المال ، وهي تتخذ من برودتي دليلاً على جفافِ قلبي ونكراني جميلها

— ليس ابواك من ابناء العصر . سيأتي يومٌ فيه يفقهان ويعذران ، يومَ نُنشئ عيلةً لها ثروتها وشهرتها ، لننسحب من المدينة ونعيش ناعمَي البال سعيدَين

فقاطع هنري خطيبته قائلاً :

— ماذا تقولين ؟ لننسحب من المدينة ! . . أترضين بهجر باريس ، هجر الفنّ الذي تتعلّمين ولتقضي على مسرح الحياة عيشة ضجر لا يتبدل لها لون ؟

— واي شيء يُضجرنا ؟ اراكِ لا تعرفني معرفةً حقيقية ، بل جاهل اجمل ما فيّ ! انا لست عطشى البتة الى المديح والاجلال ، ولا انا ، كما تظنّ ، هائمة دهري في الاباطيل . بل اشعر احياناً

بظمإ الى شيء آخر ، الى سعادة اخرى ، الى السعادة البسيطة . . .
فانا عالمةٌ ان الملذات التي ارتشفها حاضراً ليست بالسعادة التي أنشد ،
وما من احد غيرك على الارض يستطيع ان يُسعدني ، وانما يُغبط
المرأة شعورها بانها محبوبة

كان صوتها هادئاً عذباً ، يسطو على شواعر هنري ، فيصغي اليها
وقلبه يرقص فرحاً ، فيتحاشى عن مقاطعتها خوفَ ان يحوّل مجرى
حديثها . ثم اخذت تتكلم كأنها تحدّث نفسها ، قائلةً :

«لو كان شأني شأنَ فتاةٍ غيري ، لاعتقدتَ بانها تجازف بمستقبلها
بتسليمك حياتها . فلقد أتيتَ من الاعمال في سني دراستك ما
اوجب الحطّ من كرامتك وسمعتك مبذّراً قسماً كبيراً في
ميراثك ، نازعاً الى الشائنات ، مقامراً ، معاقراً الخمرة ، متمادياً من
جهالتك ، مغامراً بنفسك في لجّة الملاهي ، مثقّلاً كاهلك بالديون

« اما انا فلا يسترعيني منك الا شيء واحد هو انك تعرف ان
تحبّ . . . احببتني وحدي منذ صبائك حتى زمان لهوك وطيشك .
فانا اغفر لك كثيراً لانك احببتني كثيراً . . . »

فتناول هنري يدَي الفتاة ، وضمّها بين يديه قائلاً :

« واصلي حديثك . . . قولي ما عنّ لك ، يا ليلى ، ! يا نصيبي
لقد صحّ حلمك ! فلم اعرفك كما انتِ ! ولا انت كشفتِ لي عن
هذه الزاوية من نفسك ، زاوية الحنان اللطيفة ! ! »

فعطفت تقول : « أصحيح اني أدهشك ؟ دعني اقصّ عليك
حلمي : سنحتفل باكليلنا العامَ المقبل ، واكون انا ممثلةً في احد
المسارح فأحرز وفراً من المال يمكننا من فتح بيتنا . اما انت فيسعفك

ابراهيم ميلس بان يُقيمك محرّرًا في جريدةٍ يُنشئها . وسيعتصم كلانا بالرزانة ، فنوفّر مالاً نفي به الديون التي استدنتها خفيةً عن ابيك . ولن تمضي علينا خمس او ستٌ او عشر سنوات ، حتى نعود الى مزرعتنا ، فيتخلّى لنا ابوك عن مزرعة «السينات» الجميلة : ثمّة نقوم باصلاحات لا تكلّفنا سوى مبالغ طفيفة . ففي « السينات » طرق واشجار ومياه جارية ومشاهد خلّابة . ونبتاع سيارة نتجوّل بها في المدن والمتنزهات ، واقتني كلّيبة اداعبها على ركبتيّ ، ويكون لدينا كتبٌ ومجلّات ، وانشدك الاغاني اما منفردًا واما بصحبة بعض اصدقاء نختارهم . فما أجمل ما تكون تلك الزاوية التي نحصر فيها سعادتنا ! . . .

فاجاب هنري :

— أيمكنٌ ما تقولين ؟ وهل تحلمين فعلًا بما اقدمت انا على ان احلم به على مرأى ومسمع منك ، وهو حلم سيجعلني اسعد اهل الارض ، هناك بعيدًا عن المدينة ، في بيتِ الشرف والسلام ، قرب امرأةٍ محبوبة محبةً ، سأتغلّب بها على ملكاتي السيئة ، فأصبح انسانًا جديدًا ، هادماً حياة الكسل والبطالة ، بانيًا على انقاضها حياة جديدةً شريفة يافعة . آه ! كم يلذّ لي ان أدأب في تحقيق هذه الأمنية ! واني لاعكفنّ بكلّ قوى قلبي على هذا العمل ، ولانجحن ، يا ليلى ، يا نصيبي ، يا ليلى !!!

— سنتكاتف في العمل . انت تعلم ان السعادة لا تقوم بوفرة المال ، ألا ترى ان القليل منه يكفل لنا ان نعيش سعيدَين في « السينات » ؟ سنقلّل من زياراتنا وخدمنا ، ولن اطمعَ في

اللبس والزين ، بل سانهج فيها نهج البساطة اقصاها

وكانت كل كلمة تلفظها ليلى تزيد هنري دهشاً ، كأنه لم يصدّق كل ما ادّعت . فراح يتصفّح عينيها ووجهها ليتثبّت صدقها . وما كان ابعده عن الظنّ ان وراء جبهتها البيضاء وعينيها الجميلتين البرّاقتين من واقع الكذب والرياء ما توهمه حباً خالصاً حارّاً ! . .

ثم قالت : نعم ستكون ثيابي في غاية البساطة ، وقمصاني من الصوف الابيض والطراز اليوناني ، مما يضاهي جمالاً ، في نظري ، كل ما في «شارع السلام» بباريس من ازياء فتّانة ، واراني سعيدةً كلّما تصوّرت نفسي لابسة مثل هذه الثياب ، متجوّلة في حديقتنا ، اقطف الازهار العاطرة وارجع الى البيت وفي يدي ضمّة منها

قالت هذا ، وأكبّت برأسها على هنري ، فأسرّ اليها بفرحه ، والفرح العميق من طبعه صامت ، فصمتا

. . .

مسكين انت ، يا هنري ! أفي إمكانك ان تكون مرتاحا الى قلب ليلى ؟ ام في امكان ليلى نفسها ان تكون مرتاحة الى قلبها ، لعمري ان من كان العوبةً لعوامل النفس ، غيرَ مقيَّد بنظام ، غير منقادٍ الا لاهوائه ، غير قادر على ان يملك نفسه في حاضره ، يعجز لا محالة عن امتلاك نفسه في مستقبله

امّا ليلى فقد عبرت ، لا محالة ، عمّا كان ذاك الصباح يكنّه قلبها من الاماني ويرسمه ذهنها من الخطط . لكنّ لسانها الذي اشاد آنئذٍ ببساطة الحياة وشرف الحياة الزوجية ، سيصدق كذلك مساء

اذ يمضي في اطراء البذخ والتنعّم والاعراب عن الطمع في المجد الفارغ ، وامتداح الملذّات الارضية . وقد نسي خطيبها الساذج انّ لاختلاف الاحوال والاماكن تأثيرًا بعيدًا في اخلاق النساء من امثال ليلى ، فان مخيّلتهنّ لا تفتأ تثير فيهنّ افكارًا وعواطف جديدة لا تلبث ان تتقلّص

فاذا ما ارتدت ليلى ثياب الرقص ، وبرزت على الاضواء ، وتجمّع حولها المعجبون بفنّها وجمالها، فلا يبقى لها من رغبةٍ الا في ما يعود عليها بالشهرة ويُنيلها الفوز

كانت ليلى ، ذاكَ الصباح ، بين الورود في حديقة «باغاتل» ، فعنّ لها ان تتخيّل حياةً ملؤها الحب في بستان زاهٍ فتحقّق لها ذلك في الحلم ، ولكنّ اوراق وردها الذهبية تناثرت بعد ساعة من الزمان كما تتناثر اوراق الورد الذابلة

وكأنّ الفرادة لم تخطئ الحقيقة تماماً لما ان لحقت باختها وخطيبها بعد ان فرغت من الرسم تحت اشراف معلّمتها ففازت باستحسانها لما انتجته ريشتها ، فقالت :

«لقد انقضى وقتكما سريعاً ! وعلى ايّ موضوع دار حديثكما خلال الدقائق الستين التي مضت منذ فراقنا . اخال ليلى تمكّنت يا هنري من اقناعك بان تشتري لها عقدَ اللؤلؤ ، فهي في حاجة قصوى اليه . وقد اعدمها هجسه في قلبها راحة النوم، واوشكت ان تموت بحسرة الشوق اليه . افلا يأبى الخطيبُ ان يسبّب لخطيبته ايما قلق وكآبة ؟»

فاكفهرّ وجه ليلى ولاحت على محيّاها ابتسامة الحزن وقالت :

انا اعقلُ من ان أتعب دماغ عزيزي هنري بمطالب شاذّة . فعلى من تريد ان تتزوّج برجل فقير ان ترغب عن الزّين والحلى التي تقتضي مالاً كثيرًا . فلندع للاغنياء تدليل خطيباتهم

وانما كان ذلك الجواب منها عودًا الى الانانية . اما هنري فاخذ يتفرّس فيها ، مقرًّا بجميلها مردّدًا في سرّه :

« آه ما أعمق حبّها ! ! قالت : لندع للاغنياء تدليل خطيباتهم ! آه لو استطعت ان أحقّق لها عكس ذلك ، فأريها ان الفقراء ايضاً يعرفون ان يبذروا المال في سبيل الحصول على ابتسامةٍ من اللواتي يحببنهم . عقدٌ من حجارة كريمةٍ ! . . . كم يبلغ ثمنه ؟ . . . إني لباحثٌ عنه ومقدّمه لها ، ما لم اكُ محاولاً ايجاد المستحيل . »

تركا حديقة الورود آسفَين ، والفرادة تحدّثهما عن محاضرة كانت مزمعةً ان تحضرها مساء ، وليلى صامتة صمتاً يهيم به هنري ، معتقدًا بانها لا تزال تفكر في مستقبلها السعيد ، وانما كانت ساعتئذٍ تتنازع جنانها مطامحُ تافهة ، فتحدّث نفسها قائلة : أمجنونة انا ؟ لقد نسيت هذه المحاضرة ! ترى ايَّ ثوب ارتدي ، هذه الليلة ، وبايّة قبعة أزيّن رأسي ؟

٦

وبعد بضعة اسابيع ، اتى هنري يستأذن ابنَتي خاله بالذهاب الى مدينته لحضور زفاف « لاموت » صديقه ، قال :

سأتغيّب عدّة ايام . فان امي ترغب في ان ابقى قريباً منها . اما ابي فسيوبّخني . فارثيا لحالي وكلّفاني تبليغ أباكما خالي ما تشاءان

وكان مارجولي والدُ الفرادة وليلى قد شاخ ، فبات كسيحاً ، فوضعتاه وحده في بيت شارتير ووكلتا امره الى الخدم

فقالت الفرادة : قل لوالدي انصحّتنا جيدة ، وان شكا من قلّة مراسلتنا فأعلمه ان لنا في باريس ما يشغلنا عن المراسلة

اما ليلى فقالت : اما انا فانتظر تركيب « الهاتف » في بيت شارتير ، فأحدّثه حينئذٍ كل يوم . ثمّ بشّره بانني سأحيي ليلة طرب في مدينة روان ، في منتصف حزيران المقبل

وعطفت الفرادة قائلةً : سترتدي شقيقتي يومئذٍ ثوباً جميلاً وتتقلّد العقد الذي تتوق اليه ، وتتوّقعه على احرّ من الجمر

فعضّ هنري شفتيه ، وقد خُيّل له انه احقرُ الشبّان واتعس الناس . فقد زار الصاغة وساومهم ، فرأى ابسط العقود يبلغ ثمنه آلافاً ، ومحفظة دراهمه فارغة ، ولا احد يقرضه مالاً . فثبت له ان ارضاء خطيبته ضربٌ من المحال

فسأل : ايُّ عقدٍ ؟

فاحمرّ وجه ليلى وارتبكت هنيهةً ، ثم استعادت سكينتها وقالت :

لقد فهم رغبتي ابراهيم ميلس ، فشاء ان يقدّم لي عقداً ! . . .

فقاطعها هنري : اني لآبى على ابراهيم ميلس ان يقدّم لك هذا العقد ، ولا حقّ له في ذلك ! هذه هي ارادتي : انهاه هو عن تقديمه وانهاك انتِ عن قبوله . أسمعتِ ؟ . . لا أريد . . .

وكان صوته يرتجز غضباً بين اسنانه ، والاصفرار يغشي محيّاه

فانتفضت ليلى كالملكة المهانة صائحة :

أأمة هي التي تكلمها ؟ . . . ويحك ! لم تسيطر عليّ بعدُ ! واني لمزدرية اوامرك ؟ !

اما هنري فكان يردّد القول : لا حقّ له . . . لا حقّ له . . .

فهزّت ليلى كتفيها ، فاجابت والهزء ملء فيها : نعم انت خطيبي ؟ ولك وحدك ، لا لابراهيم ميلس ، الحقّ في تقديم هذا العقد لي . غير انك تأبى ان تتمتع بهذا الحقّ . . .

قال هنري : ليلى لا تضحكي مني ! لا تزدريني اما اقساكِ !

قالت :

أتريد ان ابوح لك بسرّ طالما كتمتك اياه ؟ انك لمستحقٌ كل الهزء . لماذا غضبت ؟ انا عالمةٌ بعجزك عن ابتياع هذا العقد لي . اما ابراهيم ميلس فثريٌ كبير طمره المال ، فشاء ان يقدّم لي هذا الحليّ ، كأنه يجود بزهرة ، او بحلّ في سيارة ، او بكرسي في ملهى ! فما ضرّك أن اقبل هديّته ؟

— يضرّني ويسوءني ان تتقبلي حلياً من يد رجل ليس بخطيبك

فحردت ليلى وجعلت تقول : أريد عقدي ! لا غنى لي عنه ، وقد قطعت عهداً لصديقاتي باني سأغني في روّان وانا لابسة هذا العقد ! اريده مهما يكن غالياً عزيزاً ! ! !

— تريدينه ! وانا مستعد لابتياعه لك . وسيكون لكِ لا

محالة . لكن انما يُقدمه لك خطيبك ، لا ابراهيم ميلس

فتعجبت وقالت : تقدّمه انت ؟ ان بك لجنوناً ! أنى لـك الدراهم ؟

— انما ذاك منوطٌ بي . فعقـدك ستحصلين عليـه ، نامي مستريحة . اودّعك ... فهمّت ليلى بامساكه ، لكنه تملّص منها والمحدر في السلّم لا يلوي على شيء . وما ان وصل البـاب حتى ركب عربةً أقلّتـه الى محطة أورسي فوصلها قبل سفر القطار السريع ...

كان القطار يشقّ الهواء ويقطع المسافات ، وهنري يردّد هذه الكلمات : عقدكِ ستحصلين عليه . وعدتُ وسأبرّ بالوعد ، ولكن كيف الحصول على المال ! ؟

واستلقى على مقعد الحافلة وأسند رأسه الى مخدّةٍ من جلدٍ ، تتهادى اشباح مختلفة في مخيّلته . ولمّا وقف القطار ، كان قد عقد النيّة على ان يستدين المال من اغنى قدماء رفقائه في المدرسة . وفيما هو كذلك ، اذا باحد موظفي المحطة ينادي باسم مدينة عرفها ، وقد نشأ فيها وترعرع . وما لبث ان استقلّ سيارة الى بيته الوالدي الواقع في أعلى حيٍّ من المدينه القديمة

وكانت المدينة غارقة في سبات عميق وقبب كنائسها تناطح الافلاك ، كانهـا حرسٌ يصلّي دفعاً للغضب الالهي . فحوّل هنري نظره عن تلك الابر الحجرية ، لانها بدت له كأنها تطعن اذنيـه بصوتٍ جارحٍ يقول : الى الاعالي ! وانما الصوت موجّـه الى ابن عصا اباه ، بعد ان كان في ايام صباه يفقه معنى الدعوة «الى الاعالي!»

ويلين لسماعها

دخلت السيارة شارعاً واسعاً ، فوقفت امام منزل جميل ينمّ عن النبل وكرم الاخلاق مما اكتست به جدرانه من بساطة فساور الحزن هنري واخذ يقول في نفسه :

« ما من احد ينتظرني ! ... وعلامَ يحرم والديَّ نفسها لذّة الرقاد لاستقبالي ، وقد امسيت ولداً شريراً عاقاً ؟ ولئن ينهض الخادم ليفتح لي الباب ، فحسبي سعادةً ان يبقى لي مرقد في هذا البيت ؟ »

ولم يكد يدخل غرفته ، حتى أقبلت امه تعانقه وتضمّه الى صدرها . اما هو فلمَ لم يرتمِ على صدرها ، مقابلاً حبها بالحب ؟ ترى اي شيء سمّر شفتيه ، وعقد لسانه ، فلم يتكلّم ؟ فقد كان عليه ان يهتف هتاف الحب والندامة ، فاذا به يبتعد عن امه ، مبدياً حركةً ظنتها برودة وغضباً ، راشقاً اياها بنظرات حسبتها قاسيةً ، على انه لم يكُ في واقع الحال خائفاً الا من نفسه ، ولم يردعه سوى مرأى شيب امه وتجعّد وجهها الجميل يتقطّر منه الحزن والكآبة !

لمّا ينست امه منه عمدت الى معالجته بالماديات ، محاولةً كتمان ما يساورها من عوامل الكآبة . فقدّمت له طاساً من الشوكولاتة المعطّرة ، ثم اوعزت اليه بان يرقد شطراً من الزمن على فراشه الناعم الوثير . وقد أمرت فأُعدَّ له ، الا انه لم يغمض له جفن ، وقد ضغط على نفسه لئلا يشهق ، كولدٍ ينتحب ، على تلك الوسادات الناطقة بما كان يذوق من راحة عليها في ايام صباه ... بل تغلّب

عليه السهاد ، وغاص دماغه في بحر من الافكار ، تارةً يتصوّر امه تبكي في غرفتها المحاذية لغرفته ، وأخرى يتراءى له ابوه يستشيط غيظاً ، وقد اختطّ لنفسه خطة القساوة ، ثم بدت امام عينيه ليلى ، ليلى المداهنة ، الملقة ، التي جازت عليه خزعبلاتها في حديقة الورود بباغاتل ، حيث اجادت بتمثيل مهزلتها الغرامية

عقد ليلى اترى اي اصدقاء صبائه يستطيع ويرضى ان يقرضه المال اللازم لابتياعه فيلجأ اليه ؟ وكان يردّد في ذهنه اسماءهم : فلورزاك ، شارتير نفسه ، ماليسه . . .

ولما كان الغد ، أيقن ان امله في اصدقائه باطلٌ ، اجل انهم لا يزالون يُعربون له عن ولائهم ، لكنهم لم يبدوا من الفرح بملاقاته ما كان يتوقع ، وقد نضبت ثقتهم به ، فكانوا يحدّثونه بلطف ، غير انهم لم يفتحوا له قلوبهم كما كانوا يفعلون من قبل

وعلى ذلك فحسبُ الشاب التاعس ان يُقيم بعيداً عن باريس يوماً واحداً ، ليفقه ان المال خارجاً عنها عزيز صعب تحصيله . اما في باريس ، مدينة الاسراف والتبذير ، فلا قيمة له فيها ، وكأنّ خمس عشرة ورقة من فئة الالف فرنك هي في نظر اهل العاصمة حزمة من ورق ابيض وازرق لا قيمة له

اما هنا فالربح ضئيل ، ولا مندوحة لكل امرئ عن الاقتصاد والاعتدال في النفقات

وعلى هذا لم يبقَ لهنري من أمل في الحصول على ضالته اجل ان عيلة فلورزاك موسرة ، ولكن فلورزاك نفسه لا يحصل من ثروتها الا على مبالغ زهيدة يُنفقها في حاجاته العادية

اليومية . اما شارتير فهو من المسرفين في المال لا يحسب له قيمة، ولكنّ اباه من فئة الموظفين ليس لديه رأس مال ، وانما يعيش من مرتبه . اما ماليته فله اربعة اخوة وثلاث اخوات يتقاسمون ثروة اسرته . ومن ثم فلم يبقَ الا « لاموت» ، وهو الغني الاوحد من اصدقائه، ولكن من اين لهنري أن يستعين به ويقنعه بان يقرضه خمسة عشر الف فرنك ، وقد صحّت عزيمته على اقامة حفلة اكليله صباح ذلك اليوم ؟ !

فتنهد هنري وقال : ما العمل ؟ ما العمل ؟ أأعدل عن مشترى العقد ؟ وما كاد هذا الفكر يجتاز ذهنه حتى تصوّر ليلى تسخر منه مادّةً يدها لتتناول العقد من يـد ابراهيم ميلس . فصاح : لا لا ! ذلك لن يكون ! انها لتحرزنّ العقد ! لكن هذا العقد لن يكون الاّ الذي اقدّمه انا ، مهما كلّفني الامر

ثم فكّر في ابيه ، ابيه القاسي ، الذي لم يلن له ، بل لم يشأ ان يقبّله ولا ان يكلّمه ، وقد برح البيت ليتناول طعام الغداء خارجاً لئلا يجالس ابنه ...

قالت له امّه : خرج ابوك الى المدينة ، وسيتأخر عن العودة ، لان في نيته ان يمرّ بالصرّاف ليأتيني من عنده بحليّ الماسيّة ، فاني بحاجةٍ اليها ، هذا المساء وغداً

فقال هنري في نفسه : حلى من ماس ! ... حلى لا تحملها أمي ابداً .. حليّها الخاصّة ! أوليست لي ؟

امّا أختي فهي غنيّة جداً وعندها من الحلى ما هو أثمن واجمل ! وما عسى امّي ان تعملَ بحليّها ؟

كان هنري ، ابّان حفلة العرس لصديقه لاموت ، يردّد هذه الافكار المسكرة في رأسه ولم يكن لينشغل عنها بالفتاة التي كانت ترافقه ، ولا يلتفت الى جوق بنات الشرف ، ولا الى العروس الجميلة الفتانة بثيابها البيضاء ، ولا الى « لاموت » صديقه الراكع على مسجده ، ولم تفتأ عينا مخيلته تتفرّسان في حلى امه تريانها تلمع في اطراف اذنيها وعلى ثيابها

وكان يقول في نفسه : اني لفي حاجة اليها . ولم أكُ لاتقيد بالاصول الادبية الضيقة البالية . فللابن ما للامّ . وممّ يتعب ضميري ؟ من شاء السعادة داس كل حاجز بينه وبينها . ومن احجم عن الصعوبة فاته الظفر . اذن فلا تقف امام المصاعب وقفة المفكر ، بل ثب ودُسها غير ناظر الا الى الغاية ! !

خرج المدعوون من الكنيسة ، فذهبوا الى ردهة الاستقبال وتفرّقوا يتحدّثون . فتقدّم هنري من امّه ، وأعلمها بانه راجع الى باريس في قطار المساء . ولم يبقَ له من الوقت الاّ ما لا بدّ منه ليكتب بعض رسائل ويتناول الطعام ويجمع امتعته . . .

— دبّر عربةً فاتبعك

— وان هي الا دقائق حتى رجع يدعو امّه . فتقدمت اليه واسرّت اليه في اذنه تتوسّل اليه قائلةً : ابوك لا يرجع الى البيت قبل سفرك ، افلا تريد ان تودّعه ؟

فابتسم الولد ابتسامة المستهتر وقال : أبي ، وعلامَ أضيّع وقتي في ازعاجه بالمداهنة والتصنع ، وقد امسيت في عينه غريباً ؟

فاجابته امه متألمةً : هو ابوك ويحقّ له ان يغضب عليك

لكنه قاطعها الكلام مُلحًّا عليها في الاسراع الى البيت لتوديع اهله قبل الانصراف . وكانت امه طوال الطريق توبّخه ، فلم يكن جوابه الا الصمت العميق

وما وطئ عتبة الباب حتى خفّ الى غرفته ، فاغلقها وغيّر ثيابه وشرع يكتب رسائله وينضّد امتعته في صندوقه

ودخلت امه غرفتها المحاذية لغرفته ، فنزعت ثيابها وارتدت ثياب البيت . ثم نزلت الى المطبخ تهيئ لابنها من حواضر البيت طعاماً لطيفاً كان يحبّه كثيرًا . وكان هو يسمعها توجّه اوامرها الى الخادم . فانسلّ الى غرفتها ، حيث رأى ثوبها المخملي منشورًا على سريرها وقفّازها الابيض فوق الموقدة . ثم نظر فاذا باب الخزانة مُسدفٌ والجواهر والحليّ تلمع داخلها فانقضّ عليها وانتشلها ، ثم اغلق باب الحجرة وانقلب الى غرفته لا يحرّك ساكناً . على انه لم يلبث ان جلس الى مائدة الطعام تجاه امّه ينقر الاطعمة نقرًا . اما هي فكانت تتجنّب جهدها كلّ كلمةٍ او حركةٍ تهيّج اعصابه ، وراحت تحدّثه عن صحته ، قالت : لقد اقلقتني حالتك ، يا بنيّ . فاني لم أعاينك قطّ اشدّ هزالاً واصفرارًا منك الآن . ما بالك لا تأكل ؟ هلّا تمكث مدّةً عند أمك فتُعنى بك وتُهيّئ لك من الاطعمة ما يروقك ، وتبذل جهدها في سبيل ترفيهك !

فتململ هنري قائلًا : « ان بقيت هنا أزعجت والدي ، وكانت حياتي ثقيلة عليه . . . ولقد قضيت هنا ثلاثة ايام حسبتها دهرًا . »

ثمّ قال بلهجة خشنة : « الى السفر ! والّا فات الوقت وطار القطار . وأفلت من بين ذراعي امه دون ان يقبّلها ، وقد خُيّل

اليه انه لو فعل لجاءت قبلته لها كقبلة يوداس ليسوع

وما توارى عنها حتى استلقت على كرسيّ منهوكة القوى يتنازعها اليأس ، وقد اعرض ابنها الحبيب عنها وعن ابيه ، وجاءت زيارته هذه لها كزياراته السابقة تُذيب آمالها لا تنعشها

ولما عاد زوجها الفاها تبكي . فقضيا السهرة كئيبَين يتحدّثان عن ولدهما ، فيجهد هوَ عقله في محاجّتها شجباً لولده ، معدّداً كل ما صنع اليه وأنفق على تعليمه ، وتتناسى هي يأسها محاولةً الدفاع عن ابنها العاقّ واسدال ستر العذر على طيشه وسيئاته ...

لم تفطن عقيلة ميرامون لحليها الّا في اليوم التالي . فقد تفقّدتها فيه فلم تجدها . واذ كانت بالامس قلقةً تعبةً ، تعذّر عليها تعيين المكان الذي وضعتها فيه . فأخذت تسأل نفسها : أفي هذه الخزانة وضعتُها ام في غيرها . لكنّ النهار انقضى وهي منهمكةٌ في التفتيش والتذكّر بدون ما جدوى حتى تبيّن لها ان هناك سرقة

وكان دخل البيت يوم السرقة شخصان ليس الاّ : مريم الخادمة ، وهي حديثةُ العهد في المنزل لا يُعرف شيء من اخلاقها ، وخولي مزرعة « السينات » وقد ادخلته الخادمة غرفة في البيت وتركته فيها وحده ينتظر رجوع سيّده . غير ان الخولي المذكور قددلّت خدمته طوال خمس عشرة سنة على امانةٍ وشرف . ومن ثم حامت الشبهة حول الخادمة . فاخذ الزوجان يتذكّران حركاتها ذهاباً واياباً مساء السرقة . قالت عقيلة ميرامون :

— هل دخلت مريم غرفتنا من الساعة الخامسة الى السابعة ؟

— لم يكن ذلك في امكانها بعد السابعة ، لاننا قضينا

سهرتنا فيها . وكنتِ انتِ قد أعددتِ غرفة النوم والاسرة تفادياً من مداخلتها الثقيلة . ولكن ينبغي ان نعرف ماذا صنعت بين الساعة الخامسة والسابعة ؟ ثنةَ السرّ كلّه

— كان هنري آنئذٍ في الغرفة المحاذية ، جالساً الى مكتبه يُدوّن رسائله

فلا بدّ من ان يكون شعر بها تدخل الحجرة ان كانت هي السارق ؟ فما لنا اذن الاّ استيضاحه الخبر هاتفيًّا

رضي الاب باستيضاح ولده ، على نفوره منه ، وقام الى الجهاز الهاتفي فأخبر هنري بسرقة الحلى والجواهر قائلًا : ان ظنونها تحومُ حول مريم الخادمة ، وطلب منه ما لديه من الحجج القاطعة على صحّة جرمها قبل اقدامها على الشكوى وتوقيف السارقة !

ورغم طول الشقّة لم يلبث صوت الولد ان بلغ مسمعَي الوالد ، واذا بذلك الصوت المضطرب المتهدّج يجاهر بما يلي :

يا والدي لا تتهمن احدًا ولا تشكون البريئة ، ان ابنك هو المجرم ، ان ابنك هو السارق . لقد كان في حاجة الى الدراهم بعد ان امسكتَ عنه مايحتاج اليه ، فعمد الى الجواهر والحلى فسرقها . . وقد طارت من يدَيه الى حيث لا تلبث ان يُعرف مقرّها ! . .

فجمد الرجل جمود المصعوق . ثم انتفض ممتقعًا ورمى بجهاز الهاتف من يده وهو يصيح :

أإبني هو السارق ؟ . . . ولد . . . ي . . . هنري ميرامون سا . . . ر . . . ق . . . ؟ !

ثم تراجع خطوتين الى الوراء ودقّ كفًا بكف لوعةً واسفًا ،

وهوى على الارض جثةً هامدة ! !

٧

كم وقفة لهنري ، بعد الفاجعة ، تجاه ضميره ، وقد رنّت في اعماقه هذه العبارة الوجيزة ، الاشدّ فعلًا في قلب المجرم من سيف مرهف الحدّين : « لقد قتلت والدي ! » عبارة ما انفك يردّدها في نفسه المرتعشة الخائفة مذ تلقى النبأ المشؤوم ، فكان لها في قلبه وقع اشدّ من وخز الابر ، وقد قذفته الايام الى جانب فراش ضحيته يحضر مأتمه ويشيّعه الى قبره

افجع بهزلة القضاء ! ان هنري وحده كان يشيع موكب قتيله . أعلّ التأثر أمه فلازمت فراشها . اما اخته وصهره فلم يتمكنا من اجتياز البحار فيبصرا القتيل ويبكياه قبل الدفن

هو ، هو ، وحده تلقّى التعازي من اصدقاء عيلته الكثيرين ، فكانت كل مصافحة ، وكل كلمة اسف ، وكل تعزية تفتّت قلبه فتعصره خجلًا وارتياعاً من نفسه . فودّ لو سمحت له الحال ، ان يصيح بهم : الا كفّوا ايها القوم عن تعزيتي ، فانا خدّاع غدّار اسمعكم حانياً رأسي حزناً وخجلًا ، في حين ان ابي قتيل ، وانا قاتله ، انا ! . . .

لم يكن له من قوة على احتمال هذا العذاب طويلًا . ففي كل كلمة من كلمات امه ونظرة من نظراتها توبيخ له ، وقد ابى عليه جبنه ان يعاني هذا الالم المرّ تكفيراً لازماً ، فيظلّ بجانب أمه المرزوءة ، ولم يبقَ لها غيره في العالم ، يمسح دموعها ويسدّ فراغ قلبها . فلم تمضِ خمسة عشر يوماً على دفن ابيه حتى أخرجه حب

الذات من هذه الدائرة المؤلمة ، فقفل عائداً الى باريس

لم يلقَ هناك الاصدقاء الذين كان يرجو عطفهم عليه وتسليتهم له، فشارتير وعقيلته سافرا الى البيرنه مصطحبَين ليلى، وبول دانوان مستشفر في كورتاره ، وغاستون مشغول عنه بالسباقات . . .

كانت العطلة اذ ذاك في بدئها ، واشعّة شهر آب اللّهابة تلفح باريس فيهجرها معظم سكّانها فتمسي بلقعاً

« قتلتُ والدي ! » عبارة لم يبرح صداها يتجاوب في نفس هنري ، فيهيج هائج ضميره ويرشق قلبه بنباله الوخازة

ألمٌ ضاغط كان يحاول ان يتملّص من عبئه مهما كلّفه الامر . لقد طرق باب الراحة والسعادة بوسائل شتى من دوس عوائق وسحق قلوب وملاشاة حياة ، مؤالياً على نفسه ان يطّرد في سيره لا يحبس رجله حابس

كتبت اليه ليلى من بيارتس رسائل فتّانة، مما جاء فيها :

« متعاس انت يا هنري ، وانا سبب تعسك ! فقد أعنتُك طلباً ، لعن الله ذلك العقد ! فلو لم تسلب حلى أمك فتبيعها وتشتري لي عقداً ، لما حدث ما حدث . ان لك عليّ حقّ التعويض ! واني لمعوّضة . ففيمَ انتظارنا للزواج سنة بعد اخرى ؟ على ان فقرك كان حائلاً بيننا وبين رغبتنا ، فزال بموت ابيك ، فلا مانع ، اذا شئت يمنعنا من الزواج في هذا الشتاء . »

كان يعلّل نفسه بهذا الحلم ، فيتزوج بالمرأة التي يحب ، ويفتح بيتاً ويسّير قطار حياته الى بلاد السعادة ولا يبلّغه هذه الغاية ، الا ان يطالب بارثه من اموال ابيه وارزاقه ، فاستدعى غير متلكّىء

ولا متريث علماء الشريعة ليحصروا الارث ويقسموه . وانه لعمل دقيق ! فان اقدم عليه حطّ من مقام امّه ، وخلّف لها الف صعوبة ، وألزمها ان تقلل من نفقاتها وتعدّل معاشها وتبيع بيتها في المدينة ، ذلك البيت الذي دخلته عروساً ، فعاشت فيه امرأة سعيدة ، فكان مسقط رؤوس اولادها ومكان نشأتهم ومسرحاً لمأساة زوجها — وفي ذلك ما فيه من التضحية !

كانت الام تراسل ولدها فتتضرّع اليه : ان رويدك يا بنيّ ! فيغضب هنري ويتشبّث بمقاصده حتى بلغت به الصلابة الى الامساك عن مجاوبة امه ، فكتب الى المسجّلين الشرعيّين ان امضوا في العمل !

لم يكن يخافر عليه ان هذه الخطة القاسية تُحزن تلك المخلوقة التي غمرته بحنانها ومحبتها ، وتفرّق بينها تفريقاً ، ان لم يكن ابدياً ، فحائلاً دون لقائها . غير انه كان مجتازاً ساعاتٍ حافلاتٍ بضروب الجنون ، بل ازمة خانقة من الأنانية تذهب ببعض الناس الى استخدام كل ما يصادفون من آلات البناء يبنون بها صرح سعادتهم ، وإن على انقاض سعادة الغير

بيع المنزل الوالدي ، فمال هنري عن امه العجوز وتركها تقاسي مضض الفقر والوحدة ، فاطلقت حوذيها وباعت خيلها ، واثرت في ارض « السينات » تصحبها خادمة واحدة

حصر هنري فكره في صعوبات قضيّته ، فأفرغ في درسها آخر ما عنده من جهد ونشاط ، مختلفاً الى المكاتب ، متصفّحاً المخطوطات ، منحبساً في غرفته بين اوراقه وكتبه

كان فكره مطمئناً الى آمال مستقبله الباسم ، الى عشه الصغير العزيز يحلم ببنيانه في اول الشتاء تسيطر عليه ليلى وتبسم له . فانقضى على حلمه شهر آب وعقبه ايلول ، وليلى في نوم عميق !

تلبّد الضباب على هام الجبال فانتهى موسم السياحات فرجع سياحنا ذوو الجرأة الى «پو» واطالوا هناك سكناهم تغمرهم اللذات على اختلاف انواعها ، يصحبهم پول داڤوان . فكان غاستون مارجولي بهج القلب بسط الكف ، ينفق مما كسب من لعب الصيف الماضي بلا حساب ، وكان المثري الكبير ابراهيم ميلس قد لحق بالقوم منذ ستة اسابيع فبهرهم بكثرة نفقاته

تلك احاديث لم يكن لهنري علم بها ، وقد ألف جفاء ليلى وقطع رسائلها عنه ، فلم يكن ليعجب من صمتها الطويل ، بل كان يذوب رأفةً بها ، كلما خلا بكتابها اليه في شهر آب يراجع مقاطعه ، وقد قالت له فيها : انها لتجرحه اذا حضرت الاعياد وهو ملتفٌ بجداده . لذلك فهي تتجنبها مؤثرةً نزهة الجبال على مخالطة المقامرين ولاعبي التينس والراقصين واحاديثهم ، وتبسط له انها اخذت تبغض الحلى والجواهر بعد مأساة حلى امه ، ولم يبقَ بودّها ان تلبس سوى خاتم الخطبة . كان هنري يتذكر هذه الكلمات اللطيفة وهو منكبٌ على الدرس يناصب به ميله الى المقاهي ، وما يلقه من دواعي التشتت التي اعتادها

لم يكن يخطر له في بال ان ليلى تتبدّل بين ليلة وضحاها فتذهب عواطفها السطحية مع كل ريح ، وتتلاشى احلام سذاجتها وحكمتها الغابرة

اي حكم يحكم على خطيبته ، لو كان له ان يراها وهو في مكتبه جالساً الى مائدة انيقة تتفكه وتضحك ، وقد لبست الوان الزينة وزهاً في جيدها سمط من اللؤلؤ الكريم ، وفي شعرها قطيفة من الزهر ، ووقف الى يمينها رجل من اشرف ممثلي المستعمرة الانكليزية مفعماً النظر في لآلئها معجباً بوهجها اللطيف البرّاق الضارب الى السواد . وهي تجيب على نظراته بصوتها الهادئ الرنان : أمستجمل انت هذه اللآلئ ؟ تلك هدية من ابن عم لي . لقد فعل آخر ما يستطيع ان يفعل في سبيل اهدائها اليّ ، أليس ذلك لطفاً منه ؟

٨

لم يكن رجوع ليلى الى باريس الا في تشرين الثاني ، وكانت في القسم الاخير من عطلتها الطويلة تجتزئ في الجواب على رسائل هنري برقاع بريدية موجزة ، فاضطربت افكار الشاب ذاهبةً به كل مذهب . وما هي ان رجعت ، حتى اسرع الى منزلها في شارع فرنسوا الاول ، فوجد نوافذه مفتوحة بعد اغلاقها ثلاثة اشهر ، فلم يتمكن من الخلوّ باهل المنزل ، بسبب كثرة الزوار الذين كانوا يلازمون الفرادة وليلى ، ويسألونها عما فعلتاه وشاهدتاه وتأثرتا منه اكثر من سواه في عطلتها

كانتا تكثران الخروج في النهار شأن كل باريسية بانت عن باريس ثم عادت اليها ولم يبقَ لها ما تكتسي به من الملابس الجديدة . واذا كان المساء ولم يكن عندهما زوّار خرجتا الى اندية الموسيقى والمسارح ، فلا ترجعان الا اذا مال الليل ، وتطيلان النوم صباحاً

فزفر هنري زفرةً وقد قال : « ما ذلك الجفاء الا تعمداً منها . اني اراها تجانب الاجتماع بي وسأستوضحها الامر مكرهاً اياها على الاصغاء اليّ . » ولم يلبث ان دخل على الفرادة فجأةً قبل العشاء . وكانت ليلى في البهو جالسةً الى المعزف توقع عليه أغنيةً منذ ساعتين . فخفّ اليها هنري مجتازاً غرفة زينتها المحاذية للبهو وصاح : واخيراً ها نحن منفردان !

وكانت ليلى تنقّل اصابعها على السنة المعزف ، فلما رأت هنري يدنو منها على ذلك الشكل التفتت اليه مقطبة وهي تقول :

— ما شأنك ؟ لا مجال لي الى الحديث ... انني ادرس ... كما ترى ! ...

اجاب هنري بلهجة الآمر : ستدرسين فيما بعد . وجلس حذاء المعزف ، وليلى تلاعب السنته عابسة واجمة

اما هو فاخذ يعاتبها بصوت خافت مضطرب قائلاً : « وما معنى ذلك الصمت الطويل وتلك الرسائل المقتضبة ، وهذا اللقاء البارد بعد غياب طويل ؟ رسائل شهر آب اللطيفة علّلتني بالاماني الطيبة ! لكنني رأيت بعد ذلك نياتك تنقلب وتعملين على العدول عن مقصد كان ملأني فرحاً ولذة ؟ أيكون انكِ ارجأتِ الى سنةٍ اخرى سعادة اجتماعنا التي انتظرها . وهل يروعكِ ربط حريتكِ في القريب العاجل ؟ حسبي بهذه السنة تجربة ، على انني احوج من غيري الى فرح ينسيني تلك المأساة الرائعة ! أفي عزمك ان تؤجّلي بعدُ ذلك الفرح ، وكنت قد بعثت أشعته امام عيني حيناً ؟ ليلى ، ان في سلوكك هذا لقسوة وصلابة ، وما ذلك من صفات قلبك . . . »

فكرت ليلى قليلاً وقالت : قلبي ! آه ! لو كنت مصغية الى قلبي ! . . .

واعتمدت برفقها على السنة المعزف فأخرجت اصواتاً متنافرة ، وجعلت ذقنها بين يديها وعيناها حائرتان ، ثم استطردت كأنها تخاطب نفسها : « لم يبقَ في استطاعتنا ان نصغي الى القلب في عصرنا هذا ، ذلك ضعف يذيقنا الامرّين . فللعقل يجب ان نخضع . »

فتنهد هنري وقال : للعقل ! والى اية حجة يستند عقلك فتؤخري سعادتنا ؟ ان لنا من ثروة ابي . . . ما يمكننا من عيشة شريفة ؟ !

فهزتّ ليلى كتفيها وابتسمت ابتسامةً تدلّ على الاشفاق قائلةً : « ثروة ابيك ! . . . ثروة لنا في مقاطعتنا . . . اما هنا . . . فلا قبل لها باكثر من ان تصدَّ عنا نابَ الموت جوعاً ! . . . »

اما هو فسألها بصوت كئيب قائلاً : « ليلى ، أفي وفرة المال سعادة ؟ تذكري ما كنت تهمسين في اذنيَّ يوم نزهتنا في « باغاتل »

فمدت يدها الى دبوس طويل من عظم السمك فانتزعته من شعرها واعادته الى موضع آخر منه ، ثم تثنت بقدّها اللدن ورفعت ذراعيها ورمت بعطفها الى الوراء وسوّت جلستها وراجعت قوله بصوت المستهزئ : « في باغاتل ؟ ما كنت في ذلك الحين الا فتاة حمقاء ! ولا ريب في ان الربيع وزهره اسكرانني . تلك احاديث صبيانية ! لقد ذهب ما كنت اعتاده من الاكتساء بقمصان الصوف وعصب الرأس بغصن من زهر . . . أتدري كم كلفتني قبعتي الاخيرة يا هنري ، وهي من احطّ نوع لا يعلوها الا ثلاث ريش غبراء ؟ . . .

فحزن وقال : لا اصدّق انك لا تعرفين ان في استطاعة المرأة ان تكون على جانب من الجمال دون ان تجعل من نفسها عبدةً ذليلةً للازياء.

فاندفعت تقهقه وقالت : اجل ! انك تريد ان تقول لي ان القبعة التي كنت البسها في البيرنه كانت تبدو جميلةً على رأسي ، ومثلها خوذة السائق والمنديل الذي تلبسه النساء الكبيرات في السن . تريد ان تقول : لا شيء يقوى على تشويه جمالي الرائع ! ولكني قد بتّ افهم لغتك هذه الغزلية . . . وعبثاً تحاول ان تقنعني بها . كل الرجال يقولون قولك . اما اذا مرّوا بامرأة جميلة غير متأنقة ، فعليك ان تعرف ما يفكّرون وبماذا يتهامسون . ان المرأة الجميلة خير لها ان لا تكون ابداً من ان تكون على غير هندام ! اني لفاضحة مثل هذا الخبط من الرجال ! وما عدت انخدع بنظرياتهم ، وهم لا يقدرون ان ينسوها متى ارادوا الاحتفاظ بها في صناديقهم .

فصمت هنري ، وقد اعياه الجواب

وحرّكت ليلى انامليها على سلّم الالحان وارتكزت على كرسيها تجاه ابن عمتها قائلةً بصوتٍ هادئ : «وددت لو بدّلنا هذا الحديث . . . الذي لا فائدة منه . » لكن هنري بادرها بصوتٍ قاسٍ قال : «بلى ، ان في الحديث لفائدة لي ! . . . ظننتني مستغنياً بما احرزتُ من ارث ابي ، وانتِ تجدينني فقيراً ، تريدين الانتظار ريثما اتمكن من عمل يغنيني ، اما انا فلم يبقَ في وسعي الانتظار يا ليلى ؟ . . . »

ارتبكت ليلى قليلاً ، ثم تنهدت فقالت : «هل ادري ؟ انا سنعود الى الحديث عن تحديد الاجل والارقام مرةً اخرى . فما رأسي بمرتاح

الى ذلك في هذا المساء . »

فغضب هنري وقال : « لا اريد تحديد الاجل الا في هذا المساء، هذا المساء لا غداً »

فسألته الفتاة : « وان ابيتُ ؟ » ورفعت رأسها كبراً تستعد للكفاح

فنظر اليها هنري نظرة المتصلب قائلاً : « أريد اليوم منك تحديد الميعاد ، ولا مفرَّ لكِ من ذلك . »

قالت : « لا أبالي بما تأمر . لقد كنت أريد ان أبقي على البقية الباقية من املك في هذا المساء، تدفعني الى ذلك شفقة انثوية خرقاء . اما انت فقد ابيت الا ان اتكلم ، اذن فانا كاشفة لك الرغوة عن الصريح . تسألني الميعاد ؟ . . . أبودّك ان تعرف الميعاد ؟ لا ميعادَ لزواجنا يا هنري . وحجتي على ذلك انني عدلت عن الزواج بك ! . . . »

فانتصب كلاهما يتراشقان بالنظرات . . . اما ليلى فاندفعت تبوح بكل ما تضمر تتضع حداً لذلك الموقف المؤلم . فاستطردت قائلة : « وحياتي ما تزوجتك . . . ولعلك ملقبي بمسخ قل ما شئت ، اني اتنصل من هذا اللقب . انا فتاة عصرية ليست بالجميلة ولا بالقبيحة ، . . فتاة يهمني من شروط السعادة التجمّل قبلَ الحب . . . قلت لك وأعيد : ان فتاة القرن العشرين ، لا يسعها ان تصغي الى قلبها . ولو شئت الاصغاء الى قلبي لتزوجتك ، كانت رسائلي اليك في شهر آب صادقة ، وقد اقترحت عليك ان نتزوج في هذا الشتاء تخفيفاً لاتعاب كنت تقاسيها ، وانا شاعرة بها . . . كيف اقول لك

ذلك ؟ . . . صحبنا ابراهيم ميلس الى البيرنه . فافضت له في الحديث عنك ورجوت منه ان يشغلك في تحرير جريدته . وكان بودّي ان اقضي عطلتي المفرحة في ايجاد عمل لك . . . فعاكست الرياح سفينة آمالي، وقد اتاني ابراهيم ميلس ليلةً فافضى اليَّ بحبه لي، مصرحاً بان في نيته ان يتزوجني . قل ، ان شئت ، انني فتاة بدون قلب ، ولكن ما العمل ! ان ملايينه يهرتني ، وخيل اليَّ ان ارتباطي به سيكون اسطورة من اساطير الجنّ ، ولم يكن لي من الشجاعة نسمة انفخ بها على شعاع هذا الحلم البراق فالاشيه . فاجبته « بنعم » . ومتى انقاد لي مثل هذا الحظ فمن الجنون ان أفلته .»

— اجبته « بنعم » ، واجبتني « بنعم » ، ولكن جيوبي ، جيوبي الخاوية جعلتني رجلًا لا يُعبأ به ! ومتى ستتزوجين هذا السيد ؟

— هو يقول في اول كانون الثاني وفي ذلك عجلة على ما اظن!

— اجل ، لم يبقَ لكِ فرصة للجهاز سوى شهرَين . ان هذا ابراهيم ميلس الجُّ من سائر الشبان . . . وان له بالسيادة والامر لحقًّا . . . فاذا تسمين هذا الحق ؟ . . . حق الصناديق الحديدية الملأى ؟ . . .

قالت ، وقد بسطت له كلتا يديها : صفحاً يا هنري ، صفحاً عما سببته لك من عذاب ! . . ان لك ملء الحق في ان تحكم عليَّ حكماً قاسياً . على انني لم البِّ طلبه بعزم حاسم ، بل امعنت فيه تفكيراً . فجلا هذا التفكير بصيرتي . انني ساكون مفقودة السلوى ، يوم اتذكر ان الملايين لامست يديَّ فنبذتها وعشت

عيشة الخفاء والخمول . لو وضعت موضعي مَن شئت من النساء ، وفيها ميل الى البذخ والتجمّل ، لفعلت فعلي ، وربما عجزت امرأة سواي عن ان تقف منك موقف الصراحة الذي اقفه

— انا عارف انك صريحة ، بل ان صراحتك بالغة بك مبلغ الغلظة والفظاظة . وقد ظننتِ ، ولا شك ، ان من منتهى اللباقة بسط حقيقة نفسك امامي . ان نفسك ليست بجميلة ، وما من وجه للشبه بينها وبين وجهك . فشكرًا لك لانك جلوتها لبصيرتي ووداعاً !

قال هذا وخرج لا يلوي ، متظاهرًا برباطة الجأش ، غير عابئٍ بدموع ليلى تتدفق كيدًا

ركب القطار الكهربائي ووقف في نافذته يحدق الى الاشجار المعرّاة من اوراقها ، والى مجرى السين المتورّد تحت اشعة السماء الخريفية الجميلة ، والاشياء يتوالى تلونها امام عينيه بين ذهبية فقانئة فبنفسجيّة

دخل منزله في شارع بوسكه واقفل ابوابه ونوافذه ، وانزوى فيه يبكي بكاء البائس اليائس

تجلّد منذ هنيهة لليلى تجلّد المتكبّر الجبار . اما الآن فقد أيقن ان مصارحتها له بما في قلبها قد نسفت صرح احلامه نسفاً

لقد مُحي اسم ليلى من سفر حياته ! فهل لحياته معنًى بعد ؟ جاهد في سبيلها جهادًا صادقاً طويلًا اتى فيه ضروباً من الجنون وارتكب شتى الجرائم مثلًا عنقه بالديون ، واذا لم تكن ليلى العلّة الاولى لديونه ، فهي ولا ريب العلّة الثانية ، لانه فعل ما فعل

ليتمكّن من ان يعيش في البيئة التي جرّته اليها ، فيحرز فيها لمعةً وشهرة ، فانفق ثروته الضئيلة في سنوات وأمسى في تلك البيئة ، والكسل أليفه ، يتذوّق اللعب ، فيغشى المقاهي فأندية اللهو ، مسترسلاً الى اقبح اللذات وادناها . لاجل ليلى جفا والديه فهجرهما ، ويوم خطبته لليلى رفع عقبه عليها لانها انكراها عليه . وإرضاء لليلى واشباعاً لجشعها سرق ... وقتل ... ومن قتل ؟ والده ! ... حباً لليلى وليتسنى له الزواج بها ، طالبَ امه بحصّته من ارث ابيه واعنتها وطردها من منزلها المحبوب فافقرها وأوحشها . كم اجترم وهدّم وخرّب في سبيل امرأة ... في سبيل امرأة لم تلبث ان نبذته نبذ النواة ، وقطعت وصله الى الابد ، لان الاصفر البرّاق بهر عينيها ! ... اما الشابّ التاعس فقد جُنّ جنونه فاندفع يخطر في غرفته الصغيرة رائحاً غادياً على غير هدًى ان اله لشديد ، اما كرهه للحياة فأشدّ ، حياة لم يدع زاويةً من زواياها الا فتش فيها عن السعادة ، فلم يجد غير لذات زائفة ، ومرائر تعجز الواصف . ما اسعد ما يكون حظه لو فقد هذه الحياة ! ما اسعد ما يكون حظه لو قطع حبل وجوده قطعاً لحبل اوجاعه !

ضغط كابوس التجربة على نفسه : فعنّ له ان يهبط شارع «بوسكه» ، فيطير الى جسر «الألما» ، فيرمي نفسه في «السين» ... ستار اسود يُسدَلُ على مأساة حياةٍ سوداء !

ثاب اليه شعوره فقال : ما من تعزيةٍ لي بقتل نفسي . لا يُقدم على الانتحار انسانٌ يؤمن بالحياة الاخرى ... وانا مؤمن بها ! ..

ان تربيتي الاولى مرتكزة على اساس متين يتحطّم عليه طيشي ، ناحتةً مني مسيحياً مؤمناً بالله واليوم الآخر ، وقد حاولت ان انزع من دماغي عقيدةً رافقتني ثماني عشرة سنة فلم افلح . ان فكرة الموت تلازمني ملازمة ايماني بالله قاضياً عادلاً يناقشني الحساب ، وكلما وقفت على قبر فكّرت في القيامة ، وكلما دهتني داهية من دواهي العمر قلت : لعلّني مائت في هذه الدقيقة ، واذا بعذاب يجلد قلبي بسوط من فولاذ ، ويقبض على روحي بقبضة من حديد شائك ، لانني غير آنس من نفسي الاستعداد للموت . . . آه ! لو كان الموت نعاساً ! فارقد رقاداً طويلاً ، رقاداً ابدياً ، فما اعذب ذينك الرقاد والنسيان ! . . . فما عسى ان يكون لحياتي من معنى ، وقد فاتني كل شيء حتى ذراعا امي تضمّني بهما وتبكيني ! . . .

ثم عاودته تجربة الانتحار تناصب ارادته الضعيفة ، فجلس الى مكتبه فراراً منها وراح يفرغ درجه ، فكثرت امامه الاشياء التي ذكّرته بماضيه الجميل فكانت له درعاً متيناً تكسّرت عليه سهام المجرب

صور ابيه ، فأمه ، فاخته ، فشهد من مشاهد مدرسته القديمة ، فالسينات ، فصور تقوية ، فاشعار نظمها تلميذاً ، فرسائل اصدقائه ، فعلبة صغيرة صفراء فيها شريطته الزرقاء التي احترم بها يوم تناولة الاول . فطارت الذكرى بهنري الى يوم كان هو ولوسيان في الثانية عشرة من عمرهما ، لما شبعا من قراءة سير القديسين ، عنّ لهما ان يكتبا بدمهما على هذه الشريطة النقية كلمة تعبّر عن حلمهما بالامانة الابدية ليسوع ، فكتبا :

الى الابد !

عفت حروف تلك الكلمة وبقيت النقطة الحمراء ، وقد رسخ احد الولدَين في امانته لربّه وامه واصدقائه . فايهما كان اسعد ؟

فاخذ هنري يسائل نفسه : ترى ايسعد رفيقي لوسيان في كهنوته ؟ ايمكن ان يكون قلبه في سلام لانه قائم بواجبه، ولكن أيّة ايام سوداء مُضجرة تحمله ثقلها وراء جدران مدرسته الاكليريكية ! صلوات لا نهاية لها، درس مضنٍ ، صمت وتقشف ، تواضع فتدقيق في حفظ النظام ! ... أيمكننا ان نسمي هذه الحياة حياةً ؟

وما هو الا ان وضع يده على غلاف ثقيل ، فاستلّ منه صورة صديقه ، وكانت تمثّل لوسيان بثوبه الاسود يتدفق من تحته صحةً ونبلًا ينضحان على منظره حلاوة جذابة

جبين وسيم ، شعرٌ اشقر مفروق من قمة الرأس الى الجبهة ، يُكسب وجهه بهاء وعفافاً يزيدان في نضارة شبابه ، حدقتان صافيتان مصوّبتان الى الامام سويًا ، وفي جفونه جعدة لطيفة تزينها ابتسامة، ومن فمه تبدو مظاهر المهابة والرصانة

ما هذه الصورة بصورة ولد انهكت عقله وثقّلت قلبه حياة الجهاد

بقي في الغلاف بعض اوراق كُتبت بخط دقيق قد استودعها لوسيان صديقه ، بعد وسمه شاساً . يقول فيها : اذا كانت هذه الحفلة واقعة من نفسك هذا الوقع ، فاي تأثر ينتابك

لو كنت معانياً استعدادنا الطويل ، الذي يدرّجنا شيئاً فشيئاً الى قمة الكهنوت المقدس ؟

حياتنا الاكليريكية جميلة كل الجمال ، واننا لعاشقوها ! ولك من هذه الصفحات الوجيزة دليل على ذلك . لاجلك نسختها على مفكرتي هذه في اثناء رياضتي ، ويلوح لي ان لك فيها نفعاً

طوى هنري هذه الصفحات منذ تناولها من صديقه ولم يقرأها حتى الآن ، ظناً منه انها قليلة الجدوى مشحونة بعواطف دينية جافة ، او بموجز تأملات تافهة

اما في هذا المساء فقد اخرجها من خلوتها ، وانبرى يجيل النظر في سطورها تفتيشاً عن برهان لذينك الضجر والكآبة المخيمين في عينيه على جو سان سولپيس ، لعله باتباع افكار لوسيان يتملص الى حين من ذكر ليلى ، وينسى ان صرح حياته منهدم جانح الى التلاشي فالموت . وهذا ما كتبه لوسيان ليلة وسمه شماساً :

« شئت في هذا المساء ، بعد شرح الليتورجية ، ان اخرج الى البستان ، ثم صعدت في السلم المفضية الى « الكارنتان » ، حيث شارفت على باريس باجمعها ممتدةً تحت نظري ، فابصرت اولاً برج ايفل ، فدولاب المعرض الكبير ، فالانثاليد ، فالقصرين الكبيرَ والصغيرَ ، ففي منتهى الافق قبب مون مارتر ، تارةً بيضاء ناصعةً وطوراً يغطيها الغمام الى نصفها

فأخذت أفكر في هذه المدينة الواسعة ، هذه البحيرة البشرية الهياجة متسائلاً : اي دافع يدفع اهلها الى العمل ، والى اية غاية يرمون ؟ فخيّل اليّ ان كل صرح من صروح المدينة يجيبني برمزه .

معظم الناس يكتفون اما باللذات واما بالاعمال ، وغيرهم يكدّون ويكدحون في سبيل المجد العسكري ، او في سبيل فن من الفنون الجميلة ، ولكن ما اقلّ الذين يختصونك يا يسوع ! بالقسم الضئيل من حياتهم ما اكثر الذين فاتهم مرآك ، ففي وسط غمام قاتم يحجب عن ابصارهم جمالك المعبود من يبهر اعينهم بضياء العظمة تتدفق من وجهك ؟ من يردّد دعوتك على مسامعهم ؟ دعوتك اللطيفة الطافحة حبًا وحنانًا : «اليّ ايها المتألمون ! . . .» ؟ . على ان ذلك الوسيط بين الارض والسماء ، بين الجماعات وبينك ، هو انا ، انا اكون ذلك الوسيط ، اجل ، انا ! . . . انا الذي نلت حظوة في عينيك فاخترتني ! . . . فرح يُعجز الواصف ، فرح يعلو افراح الارض يغمر روحي . . . وقد أحسست من نفسي بغبطة في تلك الوقفة ، حسبتُ اني لم اقف وقفة ألذّ منها جميع ايام حياتي

تركت الكارنتان مكرهاً ونزلت الى « لورات » فحيّيت سيدة لورد ، فاستوقفتني مقبرة السولپسيين ، فقرأت الكتابة المحفورة على جدران سورها ، متأملًا مدائحها تردّدها الالسنة جيلًا بعد جيل

كان من طبع هؤلاء الموتى الصدق والاخلاص ، واحترام العدل ، والشدّة والالم في الجهاد ، اغنى الشرف القديم بعظمته وبساطته ، تلك امثلة الفضائل التي يجب على الشماس ان يدّخر بذورها

تركت المقبرة الى الناووس ، فركعت على قبر شهيدنا پول سينيور ، وقد بذل دمه لك قبل ان يصير شماساً ، وتذكرت ايضاً جيست دي برتينيلير ، وهو احد متخرّجي مدرسة إيسي ، وقد قرأنا

سيرته مستشهداً في كوره ، وهو القائل : « الموت عذبٌ ! طلبت من هؤلاء الاخوة الابطال ان يسخوا عليَّ بمنحةٍ من كرمهم تساعدني على هبة نفسي بجملتها لله . » ثم قفلت من هناك الى المعبد الذي تُرقّى فيه غداً الى الكهنوت ، وجثوت على البلاط مغمض العينين ، مكتوف اليدين ، وعكفت بنظرة على ماضيَّ فمرَّ في ذاكرتي بجميع دقائقه . فتذكرت نعم الله عليَّ منذ خمس وعشرين سنة ، في حياتي العيلية والمدرسية والاكليريكية . اجل كنت سعيداً مدللاً في المنزل الوالدي ، بجانب احسن الامهات واحكمهن واقدسهن ، سعيداً في المدرسة ، وقد قطعت فيها الاعوام بفرح النفس ، تنيرني تعاليم اساتذتي ، وتهديني مشوراتهم العالحة ، ناعماً بصداقة كثيرٍ من رفاقي . اما في الاكليريكية فان قلت اني لسعيد ، فالقول اعجز عن ان يفي بالمراد ! . . في بيتي العزيز إيسي تذوقت ما هو اطيب من السعادة . . . فيا عهد السلام والصلاة ، سألتك وسألت نفسي ، ما فعلت شدتك فيَّ ؟ لست بذاكر صعوبات ساعاتك واتعابها ، فكأنني لم اصطدم بصعوبة او تعب ، فلأنت دوحة اشواك جنت كفاي منها الورد وفرا . واذا عدت بالذكرى الى تلك الدوحة لم اتمثل اشواكها ، لانها لم تكن تبدو لناظريَّ بمنظرها الفتان ، الا مزهرةً يانعةً فواحةً ، تبهج العين وتثلج الروح

يا عهد الاكليريكية الطويل القصير معاً ! هل استفدت منك فاستعدّ للكهنوت ؟ غداً اخطو الخطوة الكبرى واني لخائف ، لانها خطوة هائلة وما انا الا ولد ضعيف

اعطيتني يا رب كل شيء. وما اعطيتك شيئاً ، آه ! لو كانت لي ثروة ضخمة لافرغها على قدميك ! اه لو كان لي اسم عظيم من عظماء الارض فاضعي به لك ! او كان لي نبوغ نادر فانحره على مذبح خدمتك ! او مجد باذخ فاطأطئه على رجليك ! ليس لي يا رب الا قلبي وحياتي ، وهما لك من عهد بعيد

هاك شبابي الحار الملتهب . أسامع انت هزيزه واغانيه ؟ ذلك لان الطرب مرقص هذا الشباب عند تفكيره في انه لك .. دعوتني فلبيك ! ها انني ناس بؤسي وذلي بين ذراعيك . فالى غد يا رب الى الغد !

اكمل هنري قراءة الاوراق فطواها ، وفي وجهه انكماش ، وشفتاه تردان همساً : « ها انني ناس بؤسي وذلي بين ذراعيك . فالى الغد يا رب الى الغد ! »

على ان ايمانه كان اقوى على نفسه من جبانة الانتحار ، فلا مناص له من الحياة . اذن فمن يحيا الا في ذلك الذي استطاع ان يقول : « انا الحياة . . . ! »

٩

امست باريس عبئاً ثقيلاً على منكبي هنري . فكان يخشى كلما خطا خطوة فيها ، ان يرى وجوهاً لم يبق له رغبة في مرآها . فخيل اليه ان الرحيل يطوي ذكرياته في زوايا النسيان . فارتحل الى الشواطئ اللازوردية ، يتمتع بشمس الجنوب ، ومنظر الصخور الملونة على البحر ، تطوق خلجان الشواطئ الهادئة ، ينشد هناك السكون والراحة في جمال الطبيعة . بيد ان المدن الطروبة لم

يكن لها ان تستعيد لنفسه السلام ، بل زادته شوقاً فهياجاً فاندفاعاً فطيراناً إثر اللذات يكرع جاماتها حتى الثالة . صوت متواصل يتصاعد من هذه الارض المكتظة بسكانها هاتفاً بهم الى الفرح : ففتح هنري مسمعيه لذلك النداء ولبّاه ، لان قلبه المتعطش الى السلام لم يهتدِ الى السلام الذي يبتغي . فصمّم على ان يلهيه بخوض عباب الاجتماعات العالمية وعماشاة الحركة الرياضية التي تجعل من فصلَي الشتاء والربيع في مدينة نيس عيداً دائماً . وكان له من المال ما يمكنه ، ومن الرفاق مَن يشجّعه

نجاح غاستون مارجولي في الصيف الماضي الصقه بنادي مونته كارلو فلم يبرحه . ولما عرف بقدوم ابن عمته ، رافقه فعرّفه باصحابه فذوّقه لذة « الرولات »

تغلغل هنري وغاستون بين تلك الجماعات الطروبة الطيّاشة يرافقانها تنقّلاً من نيس الى كانّ الى موناكو ، من ملهى الى ملهى ومن مرقص الى مرقص ، ومن لذة الى لذة ، حالة يفتقر فيها الانسان وهو يضحك

غلبت اقامتها في مونته كارلو ، تارةً متجاذبَين الاحاديث في البستان ، وطوراً تائهَين في شُعَبِ سيكلامنس التي شربت دماء كثيرين من اللاعبين اليائسين ، وقد انتحروا تخلّصاً من الفقر والعار ، وحيناً مدخّنَين لفائف التبغ فوق سطح يشرف على البحر ، يحدّقان الى الرائحين والغادين من الغرباء الوافدين من قارّات العالم الخمس ، صاعدين نازلين في السلّم الرخامية المتّصلة بندوة اللعب ، هادئَين مرة مضطرَبين أخرى . كم من ساعات مرة طوياها امام المائدة

الخضراء ، تهبط عليها اكوام الذهب وتطير ، فتطير في اثرها القلوب

لم يخطر في بال هنري ان يقضي اكثر من بضعة اسابيع في الجنوب ، اما وقد شاهد ما شاهدَ ، فوطّن النية على ان يصرف هناك الشتاء كلّه ، وهو لا يزال في اسبوع المرفع ، فانخرط في شبيبة طيّاشة تجعل من نيس ، في هذا القسم من السنة ، مدينةَ جنون

ازف الحين فصمّم على الرحيل ، فحبسه ربيع الشواطئ الساحر ، فمال عن السفر الى التمتّع برأى الازاهير الفوّاحة تتفتّق اكمامها في الحقول واستنشاق عبيرها . غير ان سوء البخت أبى على شهر نيسان الا ان يكون ماطرًا كئيباً . وكان هنري مصاباً بزكام لازمه منذ المرفع ، ولم يدار كه ولا عبأ به . فرجع من مونته كارلو على سيارة مكشوفة في اواخر الليل ، والليل عاصف ، فقرصه البرد . وما جاء الصباح حتى كان الداء يتغلغل في جسمه ، فاحتقنت رئتاه . وكان في غرفة من غرف المنزل وحده ، ولم يشأ ان يستدعي امه ، خشيةَ ان يُحزنها ويُؤلمها ، ولو فعل لاستعذبت ذلك الالم في سبيل وحيدها . فاتى براهبة تمرّضه : وجوت قافلةُ الايام بطيئة الخطى ، مثقّلة الهام بنعاس الموت الرهيب

عاد الطبيبُ عليلَه فادنى اذنه من صدره ، ثم رفعها وفي وجهه انقباض . وكانت ممرّضته الراهبة ، اذا فرغت من خدمته ، عمدت الى الصلاة لاجله ، وهي قلقة البال على نفس هذا الشاب أن ربما استأثر بها الله في مدينة اللذات ، التي لا يأتمها الناس الا نهباً لافراح الحياة

ولما كان مساء يوم احسّ هنري بعيّ وانحطاط فاختلطت عليه مذاهبه . ثم لملم شعوره وسأل الراهبة ، وقد رقصت احشاؤه جزعاً : أصدقيني الجواب يا أُختاه ... امالت شمسي ؟ ... فلكتها الحيرة وابت ان تبوح له بخطورة حاله . فقال :

من فيكِ اردت الحقيقة ، ولست بجازع منها ، فلا اخفيتِ عليَّ شيئاً ! ... اما انطفأ الرجاء ونفذ القضاء ؟ ! ...

قالت : لا تيأس من الشفاء ، فحالك لا تنبئ بيأس . ان كثيرين غيرك ابلوا من امراضهم وكانوا اقرب الى الموت منك

فبرقت عينا الشاب وقال : صلّي يا اختاه صلّي معي ، صلّي من اعماق قلبك ! ... أحبُّ ان اشفى ! بل يجب ان اشفى ، لاكفّر عن الشرّ الذي صنعت ، واتقرّب الى الذين اقصتهم عني غباوتي . يجب ان استمد من الله امهالاً ، ريثما اغسل ادران نفسي بدموع التوبة ودم الجهاد . اما الآن فقليلاً من الوقت يا ربّاه ، قليلاً ! ... ابيت ان اموت وضميري مثقل بالفواحش ويداي فارغتان . يروعني يا أُختاه ان اقع بين يدَي الواحد الجبار على هذه الحال ! ...

أبلّ من مرضه ، وقد عجّل شفاءه طيب هواء نيس ، فالتفت من زجاج غرفته ، فاذا هو بشمس ايار تفتح اكمام الازهار ، واشعتها تنطق بفرح الطبيعة وتجدّدها

اما هذه المرة ، فلم تعد احلام هنري تحوم الا على بعث آدابه من قبرها ، وقد لامسه جناح الموت ، تاركاً في اعماق روحه فزعاً خفيًّا ، فتبدّل كنه الدنيا في عينَيه ، واخذ ينظر الى هذه الحياة

واباطيلها وشهواتها واوجاعها بعينَي رجل ارتجفت اوصاله على اعتاب الحياة الاخرى

خسر ليلى ، وقد اصبحت ليلى حليلة ابراهيم ميلس . تلك الكارثة التي قتلته يأساً بالامس ، تبيّنها اليوم على نور الابدية ، فسكن مرجلها فيه وبرد . وقد ومض ذلك النور في عينَيه وهو على فراش النزع !

سواء أتزوج ليلى ام لم يتزوجها ، فذلك لا تأثير له في عظمة حياته او حطّتها موزونةً بميزان الديان الاكبر ! ولم يكن يحمله على لعن حياته الحزينة إلّا جنوحه عن السبيل السويّ المفضي به الى غايته ، وذهوله عن ضلاله ، واجحافه بابيه وامه ، وخور عزمه تجاه العمل ، وايغاله في الشرور والجرائم . وكان عالماً جدّ العلم انه لو مات ، لما رأف الله باوجاعه التي قاساها ، بل لناقشه حساباً صارماً على الدموع التي استنزفها من عينَي أمه العجوز ، وللمرائر التي جرّعها قلبَ ابيه . فماذا الذي كان اجداه حبُّه حبًّا حارًّا مجرّدًا ، وذهوله عن نفسه ذهولًا كاملًا ، وقد اهمل من واجباته لبابها : البرَّ بوالدَيه والاحترام لهما !

فخلا بالحديث الى نفسه وهو يرتجف خوفاً . لقد كان اسم ليلى بالامس يعصر قلبه عصرًا ، وقد عرف ان الفتاة كانت المحرّك الاكبر لدولاب مصائبه ، وانه ليدهشه وقوفه منها اليوم موقف المتجرّد المستخفّ ، فالمتبرّئ المستريح ، يقيناً منه انها منفصمة عنه انفصاماً ابديًّا ، فاضحى لا شيء يستطيع ان يقرّبه اليها او يقرّبها اليه بعد الآن

ما اغمض العواطف البشرية ، وما اغرب تقلّبها ! قد رسخ في ذهن الفتى ان نجم حياته آفلٌ يوم افلتت منه . وان هي الا بضعة اشهر حتى انعكس معتقده في عينيه ، فعلم ان في خسران ليلى بدء حياته . فالتهبت نفسه شوقاً الى العمل ، فانبرى يُعدّ عدّة الرجوع العاجل الى باريس وشفاؤه لم يكتمل بعد . وقد كتب الى لوسيان الرسالة الآتية :

« انا راجع اليك . ان رسائلك عضدتني وقوّتني وثبّتني في الخير هذه الايام حيث عرفت الالم المحمود . ستتمّ عملك فتشفق على صديقك . ان ضعفي يتطلّب عنايتك . واني راغب في العودة الى الطريق السوي وقد وطّدت نفسي على ذلك . ولكن اين الطريق ؟ لقد ضللته ! هات مصباحك واهدِ خطاي ، ومهّد امامي العقبات ! فانني بين ذراعيك ارتمي ! . . . »

١٠

عجّل رجوعه الى باريس بعد ان صرف الصيف على شواطئ البحر ، فلاقته ضفاف السين بالضباب والامطار ، وكان مسكنه في شارع بوسكه رطباً بارداً ، فعاوده السعال ، فلم يبالِ . وكان يختلف الى لوسيان بمدرسة اللاهوت ، في شارع المنظر ، ولوسيان ينصحه بالذهاب الى « السينات » ، تجديداً لقواه الطبيعية والادبية في هدأة الحقول وسكينة الضمير ، فيجيب : ابيت الّا التكفير ، والعمل اصدق كفّارة . فلن اعود الى امي الا حاملاً شهادة الملفنة ، غنماً لرضاها وعفوها . . .

— لقد غنمت ذلك الرضى يا هنري ، وقرأت أمك كتاب

ندامتك وعهودك ، ودموع الفرح تتساقط من عينيها ، والشوق يُلهب قلبها الى مرآك وتقبيلك

— ان كانت رضيت عني ، فما اعذب رضاها ! وان كان لا بدّ من نيل قبلتها ، فلا يحلو لي نيلها الاّ باستحقاقي

عاد الى هنري نشاطه الاول ومحبته الوثابة الى الخير ، التي كانت تُدهش اساتذته وتخلب لباب زملائه من قبل . فكان ينصبّ على الكتب يتصفّحها مغرقاً في الدرس ، ولا يفارقها الاّ زائراً احدى الكنائس ، فيركع امام تمثال مريم العذراء ، مستعطفاً هذه الام الرؤوم ، مستحلفاً اياها بكلمات بنويّة ان تردّ عليه ذوقه للإلهيات ، وتتعهد بالانماء تلك المحبة الضئيلة التي لها في قلبه . وفي ذات مساء دخل غرفته ، فاحسّ من جسمه بانحطاط ناهك . امسك القلم ليكتب فسقط من بين انامله . اخذ يوبّخ نفسه على الكسل ولكنه تحقق اخيراً ان ليس هناك كسل يُقعده ، بل جهدٌ وإعياء . استلقى على فراشه ، فلم يستطع الى الهجوع سبيلاً ، اذ اصابه خناق فسعالٌ كان يقطع شرايين صدره ، وظلّ ساهراً الليل طوله من مهبط العتمة الى مطلع الفجر . على انه قال في نفسه : هذا السعال وليدُ النزلة التي اصابتني في ايار الفائت ، ولكنه سيزول لي الايام الجميلة الآتية

اقبل الصيف بشمس محرقة ، وجوّ خانق ، وهو جافر يتقيّه عواصف . فلم يتماثل هنري للشفاء ، بل بات هزيلاً منجرداً ، واخذت قواه تنحط يوماً بعد يوم ، يُغشيه اقصر شوط ، وتنتابه حتى خفيفة كل مساء ، فخفّت شهوته للاكل ، وامسى يشكو

وخزاً اليماً في جنبه . على انه لم يعترف بانغلابه للعلّة، بل تصلّب للالم ولم يقعد عن العمل ، ليظهر للملإ قوته وصدقه وصدق رغباته الصالحة . وقد قلّت مقابلاته للوسيان، لانه وُسم رئيس شمامسة منذ عيد الميلاد ، ولازم الخلوة والصلاة استعداداً للكهنوت

الا ان الصديقَين كانا ، غالب الاحيان ، يتراسلان ، وكانت رسائلها من الرقة بحيث لا تدري ايها احقّ باعجابك ، انصائح وارشادات الفتى اللاوي ، ام ثقةُ الابن الشاطر وخضوعه ؟

كان كلا الصديقَين يترقّب اول تموز ، يومَ تعلو كتبة من الكهنة الفتيان مذبح الرب لاول مرة في كنيسة سان سولبيس . فما وضح جبين ذلك الصباح حتى سبقه هنري ، خيفة ان يتخلّف عن حضور الحفلة، فقام الى ثيابه يلبسها، فأحسّ بوهن جاهد اضطرّه الى نزعها ، فنزعها وانطرح على فراشه وبكى قواه المفقودة ، وقد تسرّب الى قلبه شك المريض اليائس من شفائه . وقد كان مساء البارح احسن منه اليوم ، فتشجع لذلك ، وعُني بنفسه لامتلاك حالٍ تمكنه من حضور قداس صديقه الاول

اما لوسيان ، فدُعي للاحتفال بقداسه الاول في كنيسة وراء المدرسة العسكرية ، قريبةٍ من شارع بوسكه ، وهي من اجمل كنائس باريس ، حيث كان منذ اشهر ، يلقّن التعليم المسيحي . فهبّ هنري قبل ان يحين الوقت ، فتمشى الى الكنيسة ، وكان اليوم يوم احد ، والشمس ترسل من بين افنان الاشجار على جانبي الطريق شعاعات من نورها

كانت الطرق الواسعة المسمّاة باسماء حربية ، تخليداً لذكر قواد

فرنسة العظام، خالية في تلك الساعة من الجلبة ، تنبعث منها روائح البارود والمعارك ، والعصافير تتداعب على اغصانها ، يخيم عليها السلام . والسيدات بافخر ملابسهن يقطعن الطريق متأبطات كتب الصلاة ووجهتهن الكنيسة . وكانت جماعة من الاولاد ، وعلى وجوههم رزانة وفي لباسهم نظافة ، يتقدمون هنري ، ملتفين حول عامل لا يتجاوز عمره السابع عشر ربيعاً ، يقص عليهم ، لا ريب ، قصة مفيدة ، فيتزاحمون على جانبيه ويتعلقون بيديه ، وقد نسوا اللعب وهرعوا الى سماع محدثهم . فجد هنري في اثرهم فأدركهم فسمع احدهم يقول :

« خورينا الجديد الفتى شاب انيق ، اتظنون انه يحتفل بقداسه الاول في كنيستنا ؟ » فاجابه آخر : « نعم اننا نحبه جميعنا لانه كان يحبنا جميعاً ، والى كنيستنا آثر ان يأتي . اتعرفون يا اصدقائي ان يوم القداس الاول هو اجمل الايام واحبها الى قلب الكاهن ؟ »

فاطرق احد الصغار مفكراً ثم قال : يوم القداس الاول عند الكاهن كيوم التناول الاول عندنا . وما كاد يكتمل كلامه حتى تناوله جاره بضربة على ظهره وقال : ساء ما زعمت . اما انا فعندي ان ذلك اليوم لدى الكاهن كيوم الزواج لدى العالمي

والتفت الى الاكبر فيهم وقال : ألم أصب يا لوديثيك ؟

فقال له لوديثيك : وانت ما رأيك ؟

قال : ارى ان كاهننا الاب ريثيار كأنه يعقد اليوم زواجاً ويتخذ الله سبحانه فيه عروساً

وصل القوم الى باب عُلقت على الجدار الى جانبيه اعلانات ،

فجمع لوديثيك الاولاد صفاً ضاماً اليهم المقبلين من الشوارع المجاورة ، ثم ادخل الكتيبة الصغيرة دار الاعانات

اما هنري فولج الكنيسة ، ولم يكن في صحنها الا مقاعد فارغة محفوظة لحوق الاولاد ، وكان مدعوّ لوسيان مصطفين جلوساً في صدر الكنيسة عن يمين المذبح بين الخورس والموهف

وصل هنري فجلس في مؤخرتهم على كرسيّ اعرج مستند الى الحائط ، فاستعان بطول قدّه على ان يشاهد المذبح يتلألأ زينةً حتى خيّل اليه انه في يوم عرس ، وخدمة المذبح في حركة مستمرة يضيئون الشموع ويهيئون الآنية

ثم التفت الى المقاعد فاذا هو بامرأة اشتعل رأسها شيباً . وقد جثت خاشعةً على مسجدها . تلك هي ام لوسيان . ثم تبين الى جانبها وجوه الاهل والاصدقاء . فمنهم من اقبل من اصقاع قاصية ، ومنهم من توطنوا باريس منذ عهدٍ بعيد . فكانت كل المقاطعة التي وُلد فيها ريفيار محتشدةً هناك تتهلل بشراً ، مباهيةً بمنتخبها الجديد ، تقدّمه لله ، وهو عما قليل عائد الى ارض مولده ومنشئه قياماً بواجبات الكهنوت

وبعد قليل دخل الكنيسة عشرة شبان ، وتقدموا لاخذ مجالسهم في الكنيسة ، فلم يبلغوها الا بشقّ النفس بسبب شدة الزحام . هؤلاء الشبان من زملاء لوسيان في مدرسة اوزانام . تلك اجمل طغمة من الشبان الكاثوليكيين ، فإنهم قُبلة فخارٍ لمدرستهم ، وفيهم اثنان تخرجا في مدرسة البوليتكنيك ، وواحد من مدرسة الحربية ، وآخران من معهد الحقوق الخ . . .

دنوا فمدوا ايديهم فرحين يصافحون رجلاً وخط الشيب رأسه، فابتسم لهم الرجل ابتسامة رصينة

فتمتم هنري : هو پول ڤيولي ! پول ڤيولي ، معلمنا في الصف الثاني ، قد جاء هو ايضاً . فمرّ على عينَيه فجأةً يومٌ من ايام ماضيه، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وپول ڤيولي يشرح لهم مأساة «پوليوكت» بغيرته الرسولية . فتمثل تلك الفترة بحركاتها وسكناتها فتركت في نفسه اثرًا عميقاً ، وخيل اليه انه ، الساعة ، سامع صوت معلّمه هاتفاً : « انتم على عتبة الرجولية ، أفتنوون ان تخوضوا ميدان الحياة فتظهروا ما انتم عليه من المقدرة ؟ »

ففكّر هنري وهو ينظر الى طغمة الشبان المكشوفي الرؤوس ، الساجدين على الحضيض منحنين امام بيت القربان الاقدس ، قال :

اي وربك ، لقد اظهروا ما هم عليه من مقدرة . فتخصص بعضهم بخدمة الوطن ، وآخرون بالعلم وعضد البشرية المتألمة ، وقد اقبلوا جميعاً في هذا الصباح ، يكرّمون اعظمهم مقاماً واشرفهم طريقاً ، واحسنهم نصيباً بتخصيص نفسه بالله . . .

اجل ان من الواجب ان يكون پول ڤيولي سعيدًا في هذا الصباح ، لقد خاض غمار التعب، ويقضي العدل ان يتسنّم الآن ذروة الشرف ! كان موقفه في تلك الساعة الذّ مواقف حياته ! وقف يجني ثمار اتعابه من حقل ماضيه ! محدقاً بعين البهجة الى دوحة من مواليد فكره ، وقد لُقّنوا تعاليمه وجارَوها ، فبلغوا من النجاح شأوًا لم يكن ليحلم به : فذخر بالفرح قلبه ، وشرقت بالدمع عيناه

ثم عاد هنري الى نفسه فقال : كنت انا ايضاً وليدَ فكره ،

ومن النشاط بمنزلة هؤلاء ، ولربما انشط منهم ، وكانت امانيّ كبيرة ... غاية في الكبر ... فايّ هدف بلغت ؟

خرج الكهنة من الموهف توًّا الى الخورس . وما كان اكثرهم ! ... وكان لهنري معرفة بعظمهم ! ... اليس صاحب هذه الدرع المنتفخة المجعّدة ، والرأس المدور الاصلع ، بالاب كلفت؟ وهذا الذي يتبعه متحفّظاً يقظاً ، اما هو الاب كزائيه ؟ اما الذي كان يتقدم الاب ريشيار فلا يفوت هنري معرفته ولو تغلغل بين المئات من الكهنة ، كيف لا ، وهو الاب روبارتي ، مدير مدرسة اوزانام

ثم اطل لوسيان ، واصفرار الفرح يعلو جبينه ، فانحنى تجاه المذبح ، فرتل ، قبل ان يعلو الدرج ، صلاة « هلم يا الله » فجاوبه جوق الاولاد من جميع زوايا الكنيسة دفعةً واحدة ، وهم ربيبو تعليمه المسيحي ، والآن يستنزلون الروح القدس على معلمهم ، مغتبطين بانهم يفون ، بصلواتهم بعض ما اسداهم من الخير ، ذلك الذي علّمهم ان يصلّوا

بُدئ القداس ، فانتصب الكاهن الجديد واخذ يتلو ، بصوت عالٍ تُرجفه نار القلب ، ذلك المزمور البديع الذي يجدّد كل يوم في قلب كل كاهن مائية الشباب وفرح النفس :

« ادخل الى مذبح الله ، إلهه فرحي وابتهاجي واعترف بالكفّارة لك يا الله الهي . »

وكان هنري يتتبع من بعيد حركات صديقه ، فيراه ينحني عند فعل الاعتراف ، ويسم نفسه باشارة الصليب عند الغفران ، صاعدًا

وئيداً الى المذبح، منحنياً على الانجيل ، تالياً صلاة البداية ، متمتماً : «كيرياليسون» فملحناً بالفرح : « المجد للآب . . . »

وكان الاولاد في صحن الكنيسة يرتلون لحناً ، فصمتوا بعد تلاوة الانجيل ، وقد شهدوا الكاهنَ الجديدَ يدير وجهه اليهم وشاء ان يكلمهم للمرة الاولى عن ذروة المذبح ، فوقف باديَ الاضطراب . ووقف اولئك الصغار ايضاً يحدقون اليه ، وفي وجوههم اصفرار وفي قلوبهم خفقان ، متسائلين : ماذا عساه ان يقول لنا في مثل هذه الدقيقة ؟

وقف منهم موقف الاخ البكر من اخوته الصغار يحدثهم عن فرحه ويحاول ان يكشف لهم نفسه . فاخبرهم كيف دعاه الله ولداً صغيراً ، وما بذل من جهد ، رعايةً لهذا الشرف الباذخ الذي أفرغه عليه القدير ، وكيف درس واستعدّ للكهنوت استعداده الطويل ، وما ذاق من غبطة في المدرسة الاكليريكية التي يصوّرها البعض للاولاد الصغار شبحاً اسود ، وما يترشف اليوم من اللذة والسعادة ، ولاسيما عندما يفكر في انه مدعوّ للاتحاد بالله اتحاداً أبدياً ، وواقفاً نفسه لخدمة المتألمين ، قال :

اولادي الصغار ، أتدرون الكاهن من هو ؟ قال خوري أرس القديس : « لولا سر الكهنوت لما كان يسوع المسيح بيننا . . . اذهبوا الى مريم العذراء او الى ملاك ايًا كان ، أفيعطيانكم جسد ربنا ودمه؟ كلا ! ان مريم العذراء لا تستطيع ان تنزل ابنها في الخبزة! آه ! ما اعظم الكاهن ، انه لو عرف مقامه لمات ، لا خوفاً بل حباً !

«ليس لوطننا التاعس الكفاف من الكهنة ! ان خلاص فرنسة

يقتضي كهنة كثيرين، ومَن منَ الفتيان يقف متأملاً هذه الفكرة: وددت لو اختارني الله كاهناً له! على انهم في سنّ تستفزّ فيها الحاجة الكريمة الى التضحية السمياء، واية تضحية اسمى من وقف النفس على العمل في كرم الرب، وزرع الآداب الصحيحة فيه، والرغبة عن لذات الارض الزائلة والشرف والمال، وانزال الله الى العالم، ورفع العالم الى الله، والنهوض بالبشرية من حضيض المذلة والقبح الى سماء النبالة والجمال، فيصلح الفاسد ويُثقّف المعوجّ ويُفضح الظلم وتُمسح دموع الحزانى!

« اولادي الاعزاء، أليس فيكم من يدعوه المسيح؟ أليس فيكم من يرى سعادته في ان يذهب اليه فيتخذه صديقه الاوحد، قائلاً له وهو في الزمن الممتدّ من الثانية عشرة الى السابعة عشرة من عمره: « لبيك يا ربّ! فان شئت حياتي الوضيعة، وكان لها ان تخدم ملكوتك، فخذها، انها لك! »

كان الاولاد مصغين اليه تزدحم الدموع في عيون البعض منهم. اولئك هم اولاد العامة في باريس، وكم أحاطت بهم العاهات من طبيعية وادبية؟! ولعل الشقاق والرذيلة ضاربان حولهم وفي بيوتهم اطناباً، ولعلهم عائشون تحت جوّ تثقلت هواءه رطوبة الفساد والزندقة... ففتح لهم الكاهن الجديد باباً يُشرف بهم على الخالق الازلي، فارتعش اطهرهم واحسنهم على عتبة هذا الباب، امام الافق الازرق الواسع... وما ادراك ان المسيح لم يطف حولهم في تلك الساعة مستأثراً منهم بقلوب توقف له سراً، مقتطفاً رغباتهم الكريمة، ووعودهم المضطربة، كما تُقتطف زهور

الربيع ؟ ...

اما هنري فكان في سكنة من الخشوع ، ورأسه بين يديه ونفسه تائهة في عالم الفكر يناجي ربه، قال: رباه ! ألم يفتِ الاوان على وقف نفسي لك ! ...

وكانت ام لوسيان قرب المذبح تفكر قائلة : لماذا لا يربى الكهنة على هذا الصدد ! يقال ان كثيرين من الوالدين ينقضون دعوة اولادهم . فواهاً لو امكنني ان أفهم الامهات جميعاً ما اتمتع به اليوم من الغبطة ! فاني منذ خصّصت ولدي لوسيان بالله ، لم القَ منه الا ما يُفرّح قلبي . فان الشاب الكاهن ، اذا حرم نفسه الحبَّ الدخيل ، أخلص لامّه العجوز حنان الولد الصغير !

اذا ماتت الامّ اقبل ابناؤها وبناتها المتزوجون ينتحبون على قبرها . لكنهم لا يعتّمون ان يسلوها وتغيب من مخيلاتهم رويداً رويداً ، تلهيهم عنها مهامُّ الحياة وتشغلهم محبتهم لعيلتهم الجديدة . اما الولد الكاهن ، فيذكر على المذبح كل يوم امه المتوفاة ، بل يغمرها بالذكر الجميل ويجعل لها من صلواته عضداً قويًّا . ما أعذب ان أفكر في انّ ابني مرافقي الى دار الابد بذكره الامين واعماله الصالحة !

قُرع الجرس إيذاناً « بالرفعة»، فسكت المعبد سكوتاً رهيباً، وغاص كل واحد في بحران عميق من السر العظيم الموشك ان يتمّ على المذبح . وقد طال الانتظار !

عقد الخوف لسان لوسيان ، فهو متلعثم بكلمات تُهبط بين يديه المسيح الحي ؟؟ قرع الجرس ثانيةً ، فتناول الكاهن الشاب

القربانة المقدسة باطراف انامله ، ورفعها رفعة الظافر فاعلاها على العيون والجباه المخفوضة كأنه يقول للناس : احسدوني ! ان اجمل نصيب هو نصيبي ، نصيبي هو الله ، واني لكاهنه ، كاهنه الى الابد ! . . .

جاء التناول فتمشت الرعشة في بدن لوسيان وهو يناول ربَّه امَّه فاقرباءه فاصدقاءه فاولاده ربيبيَّ تعليمه المسيحي

ولما انتهت تسبحة الشكر ، خرج الموكب ، فظلّ هنري ميرامون ساجداً يشكر ، وقد ذهل عن المكان الذي هو فيه ، وعن حركات الناس يخرجون . فتقدّم اليه ملميته تلميذ المدرسة الحربية فهز كتفيه وقال : ألا نهضت ؟ فان ريشيار يريد ان يقابلنا في غرفة التعليم المسيحي

قام هنري في أثر رفاقه . وقد التفَّ حول الكاهن حشد من الاولاد يلتمسون بركته فيبتسم للجميع ، انه ابٌ بينا لا يزال فتياً ! . . . ولعله مع ابتسامه لهؤلاء الصغار الباريسيين ، مبتسم لالوف الاولاد ، واقف مستقبله على تثقيفهم ، وعجن نفوسهم بخمير التقوى

وكانت امه بجانبه تتلقّى التهانئ من اصدقائها واصدقاء ابنها ، وكان الجميع ، وقد صافحوا الام ، يتقدمون الى الابن ملتمسين بركته ، واحداً بعد واحد . فهم جاثون اليوم امام رفيقهم بالامس ، وهو رافع يديه يستمطر عليهم نعم السماء ، ثم يباركهم فينصرفون . وما زالوا حتى اتت نوبة پول ڤيولي فدنا . ففتح لوسيان ذراعيه وهمّ يضم استاذه القديم الى صدره إشعاراً له بعرفانه لجميله .

غير ان هذا ابى المعانقة قبل البركة ، فجثا حاني الرأس خاشع القلب تحت يد تلميذه الشاب

ما انبل ذلك المشهد وابعد اثره في النفس ! وحسبك به دليلاً على العرش الذي تسنمه هذا الفتى ابن الخامسة والعشرين تنحني بين يدَيه الرجال كهولاً وشيوخاً

وانهم لكذلك ، واذا بولد يسابق الريح ، فهرع ومدَّ يديه وقال :

نوديت الى السفر ، يا ابي ، وانك لمسافر الساعة ، فليس لنا من لقاء بعد ؟ فما هذا الفراق بجميل ! وانّ في تركك اياانا رجوعاً الى وطنك ، لويلاً وشقاء لنا ! . . . فتدبروا شؤونكم يا مساكين باريس ! . . . غير انك ستكون هناك معاوناً لكاهن الرعية ، فكاهناً للرعية ، فرئيساً للكهنة ، فأسقفاً . . . ولا يُعييني ان اقول انك لست من الواقفين في الطريق ولكنك من الواصلين . . :

فابتسم له لوسيان وقال : شططت يا عزيزي الصغير ، اننا لم نقف نفوسنا لله تعليلاً لها بالمطامع والاباطيل ، فمن بلغ الكهنوت بلغ غاية الغايات !

اما هنري فتريّث حتى استفرد امَّ الكاهن الجديد فدنا منها . وكان من التغير والهزال بحيث التبست عليها هيأته . فما ان تبيّنته حتى دُهشت وصاحت : انت هنري ! يا لله كم تبدلت هيأتك ! . . . فانك لمريض يا بنى !

— مرضت في نيس ، ولا ازال مجهداً بعض الاجهاد ، وقد انهكني الحرُّ والعمل

— أو تجهل امك حالك هذه ؟ فالى امك ! الى امك ! فما من احد يقوم مقام الام في خدمة الابناء ! فتقضي في ظلها اياماً فتستعيد قواك . . . لقد رآك لوسيان ، فاذهب اليه ! فهو يمد لك ذراعيه . . .

والتفتت الى جماعة من الفتيان الدارسين وقالت : قد طال عهد الفراق بينكم وبين هنري . افما ترون في هيأته تغيّراً ؟

قال ملميسه : لم نره منذ الخريف . ان هيأته تخيفنا . . . وكأنا به على اهبة الوداع !

اجاب جرمان همساً : أبلّ من وعكته ولم يتمكّن من الشفاء ، اذ نقصته العناية فاخذت صحته تذبل ! ووجد السلّ في صدره تربة صالحة ، فرتع واستحكم . واني لخاش عليه موتاً عاجلاً ! . . . فعودي به يا سيدتي الى امه ، اذ كان عليه ان يجاور ظلها قبل اليوم !

فارتعشت ام لوسيان واصفرت ثم قالت : ماذا تقول ؟ أعلى يقين انت من قولك ، يا جرمان ؟

قال : في اعتقادي ، يا سيدتي ، ان القضاء نافذ فيه

١١

عاد هنري الى السپينات يرافقه لوسيان وعقيلة ريشيار ، وحالما التقى بامه اكبّ يقبّل يديها واكبّت هي عليه تعانقه ، فمن صدر الولد تتدفّق شهقات الحسرة والندامة ، ومن عينيه تفيض دموع الاستغفار ، ومن قلب الام تتصاعد زفرات الشوق والحنان ، ومن عينيها تتساقط دموع الصفح والغفران ! ويح الام تجد ولدها لتقرأ في جبينه انها عادمته عمّا قليل . ان الموت يزأر حول هذا الابن توّاقاً الى القبض على فريسته

لجأ هنري الى كنف البيت الوالدي ، تحوطه عناية الام في كل ساعة من ساعاته . اما النشاط الذي كان يسند قوته في باريس ، فقد تقوّضت دعائمه . فاذا به مريض مسكين مغلوب على قوته ، ان خطا بضع خطوات ناله العياء الشديد . ومن ثم اقام الساعات والايام في زاوية من زوايا البستان ممتدًّا على هزاز طويل من القش ، والحزن عاقد على وجهه سحابةً سوداء ، ونفسه تعذّبها الهواجس والذكريات

كان يرغب احياناً الى امه ان تتركه وعزلته ، فتفعل آسفة ، شاعرة بانه ، اذا التمس العزلة ، فلكي يبكي ، على غير سامع او شاهد ، مفقودَتيه الغاليتَين : القوة والصحة

بمَ تعزّيه امه ؟ اما الطبيب فكان يعوده كل يوم محاولاً نزع الداء المستعصي من صدره ولكنه كان يطلب محالاً . اما الام العجوز فلم يفتها ان جميع ادوية الاطباء عاجزة عن شفاء وحيدها . وحسبها على ظنّها دليلًا ان تتفرّس فيه فترى في وجهه قرصاً من الشمع الشفاف ، وفي قدّه انجراد العود

كانت زيارات المحبّين تفرّحه ، فكان جاره لاموت يعوده ، غالب الاحيان ، لا عيادة الطبيب ، بل عيادة صديق يسرد عليه اخبار البلاد ، فيحادثه ويصف له الاشياء ويقلّد الناس ، فيتلقّى هنري حديثه باللذّة والسرور ، ثم لا يلبث ان يله كللًا وعياء . وما في قوة المسلول التاعس ، ان يتحمّل من حركة الحياة ، ومخالب الموت تنسلها من بدنه خيطاً فخيطاً ! واذا تركه لاموت ، احس من نفسه عجزًا وتلاشياً

الا انـه كان يؤثر زيارة عقيلة ريشيـار على جميع زيارات اصدقائه . فكانت تعوده كل يوم يقينَ أنَّ في عيادتها نفعاً للابن والام معاً . فتجلس بجانب هنري ، فتبسط ادوات عملهـا وتباشر الشغل تارةً صامتة ، وطوراً محدثة اياه باللطف والسكينة عمّا ترى فيه تفريجاً لكربه

اما لوسيان فسافر وزملاء له من الكهنة الجدد الى روميـة ، قبل ان يتلقّى تعييناً يربطه برعية ، فزار قبر القديس بطرس وصلّى عليه قبل زيارة ايسي ، ثم ثنّى الزيارة لذلـك القبر قبيل ان يخوض معمعة الجهاد في سبيل النفوس

وكان هنري يلتمس من زائرته ان تحدثه عن لوسيـان ، وفي صوته انخفاض وبُحّة ، آملاً ان لا يطيل غيابه ، ومما كان يقول : أنا في حاجة اليه ، فاكتبي اليه ان لا يتأخر في العودة !

كانت الايام والاسابيع تتوالى ثقيلة بطيئة ، فينفرج العليـل آناً وتضغطه العلة حيناً . واذا أنس مرةً من طبيبه بسطة وجـهٍ ، تشجع وانتعش ، واخذ يحلم بالصحـة ، فيتخذ المقـاصد ويضع الخطط ، وامه مصغية اليه ، وعلى ثغرهـا ابتسامة تمازجهـا مرارة الاسى والتلهف

— ما تركتكِ ، بعد الآن ، يا اماه ، واننا لساكنان معاً مدى الحياة ... وساجهد النفس كل الاجهاد في احراز عفوك ورضاك .. ان من واجبي حبك واحاطتك باضعـاف ما تحيط بـه الولد البرّ امه ! ... ان رحلتُ رحلتِ معي ... اوَ تدرين الى اين يعنّ لي ان نرحل رحلة تطيب بها نفوسنا ؟ الى البرازيل ! فترى مادلين .

فانتِ لا تعرفين من احفادك الا البكر . وانا يحرقني الشوق الى ان الاعب زغاليل شقيقتي على ركبتيّ ... فما رأيك يا أميمة ، ألك رغبة في هذه الرحلة ؟ ومتى نتمكن منها ؟ فمن التسرع ان تكون في هذا الشتاء ، لانني لا ازال واهياً مسترخياً . اذن ففي الربيع المقبل ، في اواخر آذار ، ام في اوائل نيسان ؟ ...

فلجّت الدموع بالامّ ، فتجلّدت وامسكت وقالت في نفسها :

واحرّ قلباه ! قبيل الربيع ، يكون قد رحل رحلة ابديّة لا يُرجى له من بعدها مآب !

على ان وفرة الغذاء ، وطيب الهواء ، وعناية الامّ الحنون ، زادت في وزن هنري بعض الزيادة ، على ما كان قبل مجيئه الى السينات . غير انه لم يعد ان نفر عن الاكل كرهاً . فكان يشتهي الف اكلة عزيزة نادرة ، فتى حضرته نبا عنها ولم يمسها . فيقضي الليالي مجهداً محموماً يقطّع منه السعال النوم والانفاس ، فيعدمه القوة والصوت

فاجأته امه يوماً منتصباً امام المرآة يتفحّص وجهه الادكن المهزول ، وعيناه البرّاقتان غارقتان في وقبيها تحت شعره الطويل الاسود . فقال لها :

اوَ تحسبين ، يا أميمة ، اني اكون على فراش الموت اشد اصفراراً مني الآن ؟ يخيّل اليّ ان بين منكبيّ رأس جيفة ! فطفرت الدمعة من سويداء قلب الام الى عينيها ، فعضّت شفتيها تجلّداً وامساكاً . فراعه مرآها ، فتظاهر بالطمأنينة والثقة وقال :

انك تُعنين بي كل العناية ، وانني لمريض متعقّل كل التعقل ، ومستعيد قوتي ولوني . فأيقني ، يا أُميمة ، ان حالي على تحسن في هذا المساء . . .

يا للمهزلة المبكية ! هما يتكاتمان العذاب والاسى ، فيضحكان ويتحدثان بشؤون المستقبل الغامض ، وشبح الموت منهما على قاب قوسين ، كان العليل يلحّ بامه ، إشفاقاً عليها ، ان تخرج فتسري عنها ، فتأبى ولا تخرج ، واذا رأى منها هنري ذلك الاباء قال لها :

اذن ان في ابائك الخروج من عندي ساعةً واحدة تعودين خالي التاعس مارجولي ، الذي لم يبقَ له سواك ، لدليلاً على انني مدنف مودّع . . .

وكان السيد مارجولي كسيحاً منبوذاً في كنَّةٍ من جوار السينات موكولاً الى عناية خادمة فظّة رعناء ! فخرجت الام تعوده ارضاء لولدها حتى اذا عادت سألها هنري :

الم تأتِ ليلى لتعرّف زوجها الى ابيها ؟

اجابت : بالله عليك يا بُنيّ اترك التفكير بليلى !

فابتسم ابتسامةً كدراء وقال : أيدور في خلدك يا اماه ، ان ليلى لا تزال تشغل افكاري ؟ لا ثم لا . ان ذلك لأبعد عن مبلغ ظنك اما عدت في المأساة ممثلاً ، بل انا شاهدٌ يتتبع بصره المشهد بحكم العادة ، وعقله شاردٌ بعيداً ، وقلبه لا ينبض فيه عرق اسفٍ على الاشخاص ، اذا ما انتهت الرواية وأُسدل الستار

اما امه فكانت تنقل اليه حديث خاله مارجولي وامرته

لتكشح به ضباب الحزن عن قلبه . قالت : كانت ليلى وزوجها في الصيد في سان اواز ، وهما عازمان على الرجوع الى باريس في اواخر تشرين الثاني فيسكنا منزل ابراهيم ميلس وقد اصلحه واثثه اثاثاً فاخراً مُعدّاً للهو والطرب ... اما بيت ألفرادة فقد اججت فيه الخصومة بينها وبين زوجها جحيماً . فأمسيا وهما يتوقعان هجراً بل طلاقاً جاهرت به ألفرادة . اما غاستون فراح يتزلف الى ابراهيم ميلس ، وقد مُنيَ بخسارة فادحة ، وابى شارتير ان يسعفه على التخلص من ديونه . فابرمت ليلى وزوجها اتفاقاً على ان يشغلاه في قرية من اعمال سويسرة في شركة الكهرباء ، فرضي مسروراً

اما هنري فكان يتمتم ، واللاسى في صوته النحيل رنة جارحة : ما ابعد اهدافهم ! عصابة الجهل ، تسرح وتضحك ، تلهو وتبكي ! ... كذلك انا انخرطت في سلكها ! ... فنحرت حياتي على مذبحها المتكالب ! ...

فقالت له امه ، وقد حاولت ان تجعل لصوتها رنة تأكيد : ستستردُّ حياتك يا بني

قال : لم يبقَ لي من قوة على ذلك ! ثم ارخى يده باصابعها الطويلة المنجردة ، فمرق خاتمه الذهبي من اصبعه ، فتدحرج على رجليه ، فانقلب على التراب

فقال : هاك اصابعي يا أميمتاه ، فقد بلغ منها الهزال مبلغاً بحيث لم يبقَ لها ان تمسك الخاتم !

كذلك كان ينزل يوماً بعد يوم ، فاذا صعد الى غرفته ، ابى

عليه الضعف الا ان يتمسك بمشبك السلّم ، متنفساً بين الدرجة والدرجة حتى يتمكّن من الوصول . وكان السعال يتضاعف فيضيق عليه مجرى النفس ، والبُحّة تأخذه حيناً وترايله آخر ، حتى خنقت منه الصوت او كادت

وتمادى به الضعف ، فلم يُبق له قوة على خلع ثيابه مساء وارتدائها صباحاً . وكان على ذلك الضعف يناصب العلة فينسلخ عن فراشه انسلاخاً رغم الوهن الذي يستره عليه ، ويرجو ان يقهر الموت بتشبثه بالحياة . والامّ تصعّد بصرها في وحيدها وتصوّب ، والالم يعصر قلبها عصراً ، فتبصر في فتى الخامسة والعشرين ، شبحاً فاقع اللون يتلوّى في مشيه بضع خطوات تفصله عن كرسيه الطويل الممدود في البستان ، يمشي محدودب الظهر ، مترجرج الخطى ، وجسده المهزول يتخضخض في ثوبه الواسع ، وذوائبه ممدودة الى طوق ثوبه يجاورها عنق واذنان لا اثر فيها للدم ، كانها صيغت من الشمع ، يؤلم منظرها العين ، ويحزّ القلب

واذا حاول ان يتكلّم فيكلّم عينَي سامعه لا اذنَيه

وانها لكذلك ، اذ التفتَ الى امّه وقال بصوت خافت خفي : ما أصفى هذا الجوّ ، يا أُميمة ! اما ألطف هذه الشمس تساقط لي من أشعّتها خيراً وعافية ! وما أجمل هذه الازهار المعبقة حوالينا شذاها ! متى تحسّنت حالي ، ذهبنا في شوطنا حتى حُجر الارانب . آه ! مَن لي بضمة من زهر النفل ! . . .

لما كانت عشية يوم من ايام ايلول تمشّى الى مأواه ، وفي عزمه خوَر وفي خطوه ثِقل ، فلمح زهرة جميلة على حافة ممرّ من ممرّات

البستان ، فعنّ له ان يقطفها فانحنى عليها ، وقد أخذه دوار شديد افقده التوازن ، فاستلقى فوق الرمل على طول قامته

فهرعت اليه امّه والخادمة وأنهضتاه ، فاعتمد على المنكب الوالدي واندفع يشهق : حتام التكتّم ، ومتى يُرخى الستار على مهزلة الرجاء ، وقد خبا من الرجاء كلّ بارق ! ولم يبقَ مضرب عينَيه الا ذلك الزائر الثقيل الظل ، شبحُ الموت الهائل يوسعُ خطوه اليه . فما عليه الآن إلّا ان يجابهه ثبت الجنان

اما الام فلم يبقَ فيها عرق الا ارتعش . فاخذت تلاطفه بكلمات تتقطّر من قلبها : هنري ، بُنيّ العزيز ، ما هذه الدموع ؟ أجبني يا بُنيّ ... يا روح امّك أجبني ! ...

اما هو فأغرق في شهيقه ثم قال :

أُميمتاه ... أُميمتاه التاعسة ، قليلًا فلا يكون لك « بُنيٌّ عزيز ... » عزيزك راحل ! ...

١٢

لازم هنري فراشه في الاسبوع الثاني من ايلول وهو يقول : اخطأت في النهوض من فراشي . حاولت ان اتجلّد للمرض الى آخر نفس ، فانهدت قواي ، وكان مني ما كان ... انني في هذا الفراش كانني في فردوس ... فما أجمل الراحة واطيبها ! اما انا فما اهزلني وأوهاني ! لم يبقَ لي من هذا الجسد التاعس الا هيكل نخر اجوف ...

فقالت له امه : متى استرحت استراحةً كاملة عاودتك القوة ، يا بُنيّ

قال : هذا الذي انا صانع ! فان لوسيان راجعٌ يومَ السبت . واودّ ان اقابله ناهضاً فساترك الفراش زمناً يوم الخميس، وازيد عليه بضع ساعات يوم الجمعة ، ومدى النهار يوم السبت

ولم يعد يفكر ، مذ ذاك ، الا في ذلك السبت المسعود ، وفي الفرح بلقاء لوسيان ريشيار . بيدَ انه لم يستطع نهوضاً ، لا الخميس ولا الجمعة ولا السبت . فلما وصل صديقه ، حاول ان ينهض رغم عجزه وتوسلات امه ، فوقع مغشياً عليه بضع دقائق . فدُعي الطبيب على الاثر . فنفض منه يده

وقد وصل لوسيان عند هبوط العتمة تحت دوافق الامطار وقوارس برد الخريف . وما دخل السينات في مثل هذا الحين وذلك الفصل الا هذه المرّة . فلم تكن السينات باعثة في قلبه الا ذكريات عطلتها وبهجتها ، ومناظر اعيادها وغبطتها

ثم سار تتقدمه الخادمة الى مخدع العليل ، في ممرّ رحب ترجع قبته صدى خطواتها ، وفي يدها شمعة يترجرج نورها ، قالت : اجل يا ابتِ ، هو في فراشه . وقد حاول جهده ان ينهض ليلاقيك ، فلم يستطع الى ذلك سبيلاً ! وما هو بناهض الى الابد ! . . .

فخطا الكاهن خطوة ، وقد انقبض قلبه ؛ فولج غرفة ذات شباكين يمتدّ فيها فراش العليل . وفي موقدها جمر تنبعث منه ومضات حمراء . وروائح الاكسير منتشرة في قلبها يخالطها شذا الكينا

وكانت مظلة القنديل موطأةً تحجب النور عن بصر هنري وقايةً له من الكلل ، فتجمعه على السرير ذي الكلة البيضاء منحسرة عن طيفٍ بشريّ تكاد العين تنكره . وهناك وسادة

ممدودة بين خليط من نور وظلام يتوسدها رأس يروع مرآه الناظر، راسُ مدنفٍ تختلج روحه على لهاته، ووجهٌ اشدّ بياضاً من دثارات الكتان الملتفّة عليه، وجهٌ فاقع نتأ منه قوسُ الحاجبين، وامتدّت عليه من شعر الرأس خصلٌ طويلة سوداء، ونبت فيه شاربان سمراوان، ولحية احاطت بفكيه المتنفخين وخدّيه المقوّرين بهالةٍ كثةٍ لم تعلها الموسى منذ خمسة عشر يوماً

فأرسل العليل من عينيه ومضة عرف بها لوسيان . فتزحزح وتعصّر وتجاهد حتى قعد في الفراش بالنصف الاعلى من جسده المهزول، ففتح ذراعي هيكلٍ من عظام ومدّهما للقادم وقال : « صديقي لوسيان، هذه حالي ! »

وغلبته الدمعة فبكى وارخى يديه النحيلتين على اللحاف تتمشى فيهما برودة الموت . فبكى لوسيان ايضاً، ولم يقوَ على امتلاك شعوره تجاه الفناء يعيث في جسم صديقه

حسبُ العلة ثلاثة اشهر فتجعل من فتى الخامسة والعشرين، من تلك الكتلة الترابية التاعسة، فريسةً باردة للقبر

ثمّ قال هنري بصوت مختنق : اخطأتُ في أن بكيت فابكيتك . والذي ابكاني انما هو مرآك وتفكيري في انني لن اراك طويلاً . . . فاعذرني !

ولما خلا لهما الجوّ بخروج الامّ عطف وقال : لست بمرتاع من الموت . وقد لازمني ذكره اياماً واسابيع فألفته واستأنست به . اجل كنت أعبدُ الحياة واتوقع افراحها ! فيشقّ عليّ ان اتركها . . وعليّ تكفيرٌ لآثام كثيرة يا لوسيان ! أفلا يكون

رضاي التضحية بهذه الحياة أجمل كفارة ؟ ... ولست ارضى الرضوخ للقضاء فحسبُ ، بل اريد ان اتخطّاه الى ميتة مقدسة . أفصعبٌ عليّ ذلك ؟ ... على انني لهذا الغرض ترقبت رجوعك . فاليك واكلٌ ساعتي الرهيبة ...

ولما كان بعد الغد ، استيقظ على تحسن في حاله . فزال الخوف العاجل ، ورجا الطبيب توقيف الموت اسبوعاً او اسبوعين . افهل انعشه الابتهاج برأى صديقه ؟

اما هو ، وقد امتثل لحكم الله ، فامسى ولا همّ له بحاله . فلا تسترعيه تقلبات الحرارة ولا زيارة الطبيب ، بل قصر همه على ان يكون لطيفاً ، عذباً ، محبّاً للغيف المحيط به ، مقرّاً بالجميل تجاه اقلّ خدمة

وكلما دخلت امه غرفته او خرجت منها لشأن من شؤونها ، اومأ اليها ان تدنو منه . فتدنو وتقوّم وسائده قائلة : أفي حاجة انت الى شيء ؟ وما يلزمك يا عزيزي ؟

— لا يعوزني شيء ، يا أميمتاه ، لا يعوزني الا قُبلة ...

فتنحني الام عليه ، فتنفلت القُبلة من شفتيه في الفضاء ، قبل ان يُلامس خدّها فاه

— أيضغطك الألم يا حبيبي ؟

— كلّا ! لا يؤلمني شيء ... فانا في هذا السرير على أحسن حال راحةً وسكينة ! ... فان الجميع يحبونني ويدللوني محيطين بي ، فلو كان المريض ابن امبراطور ، لما بُذلت له هذه العناية ، ولا عيدَ هذه العيادة . فما صنعت الى الناس ليلاطفونني

كل هذه الملاطفة ؟

— حسبك تكلماً يا بُنيَّ . فالتكلم يجهدك

— تيقني ، يا أُميمة انني لستُ بعيان ولا مجهود ، ولا ينقصني شيء مما اشتهي . واني على حال لا اكون على احسن منها في الفردوس . . . ثم مدَّ لها ذراعيه وعطف وقال : وما ادراك انني اكون حتى في الفردوس على ما انا عليه الآن ؟ ولا أُمَّ لي هناك . . .

كان يُقدَّم له من الزهور اشكالٌ والوان . ومن الفواكه والحلويات ما لذَّ طعمه وغلا ثمنه . فيأمر بالعلب الى جانبه فتُفتحُ له ، فيولج اصابعه المنجردة في اوراق التقادم الشفافة البرّاقة فيتناول محتوياتها الملّاقة الجذّابة ، مسروراً بها سرور الولد الصغير

— ما برحت اقول لكِ يا أُميمة ، انني أُخدَم كما يُخدَم الملوك ؟

وكان ان واحداً من شركاء السينات قضى نصف ليله على شاطىء النهر يصطاد شيئاً للفتى المريض ، وقد عاودته شهوة الاكل ، فأقبل الى السيدة عقيلة ميرامون يلتمس مواجهتها وحبل الصيد في يده . فاحبَّ هنري ان يراه فيشكر له صنيعته ، فدخل الصياد فمدَّ هنري يده له وقال :

أجل يا عزيزي لونارد ، ما سررت بهديّةٍ قط سروري بهديتك ، فاريد ان آكل شيئاً من هذه السمكة . ولم يفعل الا ان اداناها من شفتَيه ، وبقي لحمها اللذيذ في الصحن شأن غيرها من اصناف الطيّبات من قبل . ولكنَّ يقظة هذا القرويّ بعثت

فيه الحنان

لما كان المساء ، دخل عليه لوسيان فقال له : لاطفتُ هذا القروي يا لوسيان مرة في حياتي لخمس سنوات خلت ، وقد أرسلني اليه المرحوم والدي في امرٍ أبلّغه اياه . وكان جنب النار يصطلي وفي رجله بثور ... فآسيته وقدمت له علبة تبغي ، فهاكه اليومَ يبادلني الصنيعة ! آه ! لو وطّأنا الجناح للصغار من قبل ، لاستأثرنا بقلوبهم ! ... ولكننا كنا نحسبُ ان وقتنا لا يتسع لتلك المبرّة ، او اننا نستنكف منها ، وقافلة الحياة لا تقف ! ...

ثم مرت على وجهه سحابة سوداء ، وقد فكّر في الالم يستحوذ على قلب امه من بعده . فقال لام لوسيان : ما آلم واوجع ما تكون الايام المقبلة على قلب امي ! ويؤلمني ان تبقى وحدها ! فهلّا كتبت يا سيدتي ، الى شقيقتي مادلين ان تعود الى السكنى قريبةً منها ؟ ...

اما عقيلةُ ريشيار فلم يفتها حرج الموقف ، فسبقت سؤاله بالكتابة . فكان جواب مادلين ان السفر الطويل محظور عليها وهي على وشك ان تضع ولدها الخامس ، وزوجها يمنعها

فتنهد هنري وقال : ما اتعس امي ! وما اقسى وامرّ ماتكون شيخوختها ! لها بنت ، وكانها لم تلد بنتاً ... انها تأبى المجيء اليها ، وسيكون لهذه الامّ من قبر زوجها وقبر وحيدها سميرين في هذه البقعة ... ترى اية وحشة ، اذ ذاك ، تغمر قلبها ؟ ...

ثم مدّ يده الى صديقته القديمة وقال : ليست امي مثلك ، يا سيدتي ، ان لوسيان سيكون بجانب سريرك ، يغمض عينيك ،

ولسوف تعيشين واياه عمراً يتدفق غبطةً وسلاماً ، وتقضين بجانبه ساعاتٍ عذبة تفاخرين به يتوقل في معارج القوة والفضيلة ، عاملةً به ومعه على الخير والبرّ ... كان صفوُ صبائك معكّراً ، ولم تذوقي من الفرح ، حتى الآن ، الا نزراً يسيراً . فكنت تفكرين في ان تضحي لله بكل شيء حتى بابنك . فما اعظم ما كان يدّخر لك الله من المكافأة على تجرّدك النبيل ! ان ولدك لن يفارقك ، فتحيين ، ما حييت ، بجانبه منغمسةً في نعيم من الحب قلّما جاور قلبَ غيرك من الامهات ... وها ان براعم حياتك تتفتح لك عن اجمل طورٍ من اطوارها ! ...

سيدتي ، ان في قلبك لرقة وحناناً ، فرجائي منك ان لا تتركي امي التاعسة ووحشتها ! ... بل ان تحوطيها بعطفك وتعزياتك

كان سلطان السكينة والسلام باسطاً هيبته على سرير هذا المائت ، وقلوب العوّاد من حوله خفّاقة اعجاباً بايمانه وثقته بالله ، ورباطة جأشه تجاه الموت . فلم يتمالك رفيقه فلورزاك ، وقد ملكته سورة الاعجاب . ان قال للوسيان : ان تسليم هنري هذا التسليم لا وقع في نفسي من وعظ افصح الواعظين . فأعيدت هذه الكلمة على مسمعَي هنري فطرب لها وقال :

ما كان اتعسني لو رحلت عن هذه الدنيا ويداي صفرتان ! ... وما احنَّ ما يكونُ قلبُ الله تعالى عليَّ لو افسح لي ان اصنع خيراً الى بعض النفوس في اواخر ايامي

فكانت لرغبته حرمة ، وتفتحت ابواب غرفته لكل عائدٍ مفتقد . وكان العائدون يُستقبلون في البهو ضنًّا براحة المريض .

فكان يلقي على كل واحد كلمة تبعث في اعماق نفسه تلك الشعلة الكريمة ،وقد خبت او كادت تحت رماد الجبانة والانانية. فما كان الشبان يرجعون من عنده الا ذارفين الدموع ، وقد اهتدى الى مداخل قلوبهم ، ومما كان يقوله لهم :

— انا مثلكم ، في الخامسة والعشرين ، ومثلكم كنت اخطر تياهاً ببردتي قوتي وشبابي . الى ان لازمني المرض ثلاثة اشهر فسلبني كل شيء . وما أورثتني هذه الحياة القصيرة الا نخس الضمير ! . . . فحذار من تبذير كنز حياتكم مثلي ! وان تقولوا هو الشباب من لوازمه اللهو والطرب . فقد قلت ذلك من قبلكم . . وها انكم ترون مرأى العين ما خلف لي هذا الشباب من لهوه وطربه . لا تحسبوا انكم تشبعون قلوبكم بكرع اللذات ، وغشيان المنكرات . فان كؤوسها تسكركم الى زمان يعقبه الاشمئزاز والحسرات . والسعداء السعداء انما هم السالكون الى سعادتهم سبيلاً سويّا . انهم وحدهم يفقهون كنه المحبة وحرية الضمير ، وفرح العمل . آه ! لو قدّر لي ان اعود الى بدء حياتي ! . . .

— امن المتعب المفزع مجابهة الموت بالشجاعة التي انت مجابهه بها ؟

— ما أهون الموت ، ان كان الله بجانبنا . يُظنّ ان في المقدرة الاستغناء عن الله في الحياة . ولكن ، اذا طاف شبح الموت فالى من نفزع وقد خانتنا الدنيا ؟

اما ذوو قربانا فسيكونون اول من يخفّ الى مواراتنا التراب .

اذن فالى من المفزع ان لم يكن الى الله مفزعنا ؟ . . .

— كان يحسن ان يردَّ الله عليك العافية، ولو فعل لاستعضت من ماضيك بحياة جديدة مقدسة ، ونصبت مثـالاً صالحا . فلماذا لا يُطيل الله بقاءك ؟

— لانه كريم جوّاد عالم ضعفي . وهبني ناهضاً معافى ، فأنا من الارادة والحزم بحيث استمكن من القيـام بعهودي ؟ على ان عاداتي السيئة غلّابة قهّارة . ولعلَّ شفائي راجع بي الى اهانة الله تعالى ، او الى خدمته خدمة فاترة . فآثر ان يقبضني الى رحمتـه ، فورَ توبتي اليه ، وتلك نعمة منه عظيمة ! . . .

كان المدنف يكهربه حضور عائديه ، فلما خرجوا هوى على وسائده متضعضعاً . فتنهدت الام التـاعسة وقالت : ان هـذه الاحاديث لتقتلك يا بنيَّ

فقال لها : اي أُمي ، اذا لم يكن لي مناص من الموت ، فلم يبقَ من معنىً لهذه الزيادة البخسة في الحياة . فـلا حرمتني عذوبة الاعتقاد أنني فاعل بعض الخير قبل موتي ! ثم صارح لوسيان وقال : « ما أشهى ان تقرّب النفوس الى الله ، وتهيّج عواطفهـا ، ونبعث فيها صدًى بعيدًا . فما من مهنة أشهى وأعلى من تلك المهنة ، وانا لم اخلق الا لها ! . . .

لما كان مساء يوم من اواخر ايلول أقبـل لوسيان الى هنري فبشّره بانه دُعي الى الكاتدرائية فعُيّن معاوناً لرئيس كهنتها

فقال له هنري : ما أسعدك ، يا لوسيان ! في هذه الكاتدرائية ! فكم من اولاد ستثقف ، وعيالٍ ستعينُ وتعزّي وتهدي . . . اني

لحاسدك على فعل الخير هذا . . .

فحنى الكاهن الشاب رأسه على وسادة المدنف وقال : أيودّك ، يا هنري ، ان تشاطرني هذا الخير واتعابـه ؟ انت الآن على ابواب الابدية . فمتى دخلتها ظافرًا سالمًا ، فاطلّ عليَّ من فوق وامطرني من صلواتك مددًا . فانا لا ازال فتيًا تنقصني الخبرة والشجاعة . أأستطيع ان اذكي القلوب ؟ . . . آه ! لو شئت ! فصلاتك تنوّلني هذه النعمة ، ذلك المدد من دونه كلُّ مسعىً وكل قول حابط لا محالة . . .

فالتهب هنري وقال : سافعل ، وحياة لوسيان سافعل ! ان لم اكن كاهنًا على الارض ، فمن السماء افتح عين رعايتي على كاهن . اي لوسيان ، رجائي ان تفعل الخيرَ باسمك وباسمي . . . فعاهدني! على انك ما برحت خير صديق لي منذ امتزجت بـك ، بل خيرَ اخ . فكل الشكر لك على انالتك اياي هذه التعزية الاخيرة . . .

لما كان الاحد الاول من تشرين الاول ، دخـل لوسيان على هنري حاملًا اليه وردة مباركة ، كاشفًا له عن ابتهاجه باول يوم من ايام جهاده . فابتسم هنري ، وتكلم ، فاقلَّ . ثم اخـذ صوته يخفت ويتراجـع ، فلم يكن المساء حتى استغرق في بحران عميق بعث الهولَ في القلوب فخيّل الى الحضور انه راحل . ومـا هو الا ان افاق فقـال : كنت راحلًا . . . شاعرًا بانني راحـل . . . فاوقفتموني . . .

ما كان اهول ذلك الليل . ان صدى السعال انقطع او كاد . ولم يبقَ في العليل من قوة على الجلوس فيسعل ، او يتنـاول كأس

ماء ، فالحمّى تشويه شيًا . وعيناه مغمضتان ورأسه جامد غارق في حنيّة الوسادة . ولولا النفسُ يشق شفتَيه ويغلقهما ، لأيقنت امه انها ساهرة على جثة باردة

طلع الفجر ، فدخلت الخادمة غرفة المنازع وفي يدها زهور وشموع . . فزينت الام المكلومة مذبح الغرفة الصغير تعاونها الخادمة ، استعدادًا لاستقبال الله ، وعينا المحتضر ترافقان حركاتها وسكناتها راحتَين غاديتَين . فحانت من الخادمة نظرة اليه واذا به يوجّه اليها كلمتَين متقطعتَين ، قال : لكِ . . . الشكر ! . . . فقد تبلّلتِ . . . لانها جنتِ الزهور تحت الامطار . ثم عطف : لا تركتِ أمي . . . ففيمك لا تخدمها . . . خدمتك . . .

وما هو الا ان صرّت دواليب عجلة في فناء الدار . فدخل لوسيان في درع وبطرشيل ، حاملًا الى صديقه زاد رحلته الابدية . . .

وفيما كان يتبع سياق الصلوات ، طنّت في اذنيه كلمة : « ارحمني » فرفع يده يتسم بسمة الصليب . فلما دانى القربان المقدس فمه تلهبه الحمّى ، أشرق وجهه . فأطبق جفونه واستغرق في الشكر . فاذا خطا الآن تلك الخطوة الرهيبة كان رفيقه الآخذ بيمينه الهًا قديرًا . . .

يا سر الافخارستيا ! يا معجزة المعجزات ! ياخبز الجياع ! ياسلوى الانسان الاخيرة ! . . .

دنا لوسيان من صديقه يشجّعه ، وامه الثكلى واقفة عند اقدام السرير تحدّق فيه غير باكية ولا نادبة . . . ثم فتح المغرغر عينَيه ،

فتناول يدَي الكاهن الشاب فادناهما من شفتَيه باحترام عظيم ونحت من الضعف قوة وقال : يدَيك ... واختنق صوته ... وظلّت نظراته ذاهبة في الحديث : يديك ، يديك ايها الكاهن ! فما اسماهما واقدسهما ! فهما تمحوان الخطايا وتفجران ينابيع الحياة الالهية في النفوس ، بعون ربّ الحياة . هما تحملان الله للبشر وتناولانهم اياه مع النور والسلام والفرح . يدَيك ! أريد ان اقبّل يدَيك ! ...

وانعكست عينا المحشرج على يدَيه الطويلتَين المنجردتَين كانهما يدا هيكل من عظام . وفكر بضع ثوانٍ ، ثم قبض الالم جبينه بقبضة حديدية فتكمش وتجمّد وهطلت دموعه على وجنتَيه المسلوبتين فرفع رأسه عن الوسادة ، معالجاً سكرات الموت لاماً آخر ذرّةٍ من قواه ، وصرخ صرخة اسفٍ ولوعة :

امّاه ! امّاه ! ويداي التاعستان ايضاً ... كان لهما ان تناولا القربان ! ...

طوى لوسيان ليله ساهراً بجانب السرير الممتدة عليه جثة هنري . ولما انتصف الليل حمل الام الثكلى على الانسحاب الى الغرفة المحاذية ، انتجاعاً لبعض الراحة . فتبعت امّ لوسيان الام المحزونة وقد ابت ان تدعها واوجاعها . اما الشريك ليونارد ، والخادمة فرنسواز فقد ناما على مقعدين في الجانب الآخر من غرفة الميت . ولم يبرح لوسيان واقفاً بجانب السرير ضاماً ذراعيه الى صدره يتأمل جثة هذا الشاب وذلك الوجه المحبوب ، كأن سكون الموتِ وجلاله معيدٌ اليه جماله القديم . فقال في نفسه :

هذه باكورة كهنوتي . واول نفس سُستُها ساعة الموت هي نفس صديقي . فكم من نفوس تحمل يدي وتناول وتهيء للسفرة الابدية ، مدى حياتي الكهنوتية ؟ . . . الشكر لك يا ربّ ، على انك قد جعلتني كاهناً ! الـواد الاعظم من الناس يتخذون حياتهم — حياتهم القصيرة ! — آلة لجمع تزر من الذهب ، او العلم الباطل ، او المجد الفارغ !

اما هدفنا نحن ، هدفنا الجميل ، فنحت النفوس وصبها في قالب جودك وجمالك يا الله

اما انت يا هنري ، فتذكر العهد الذي ابرمناه منذ هنيهة ، استمدّ لي من الله تعالى نعمةً تجعلني كاهناً قديساً ، خليقاً بهذه الرسالة النبيلة . شاطرني العمل في كرم الرب ، فعلى صلواتك وامدادك توكلت ! وانحنى على الجثة فاستبدل صليبه بالصليب الذي كان بين يدي هنري الرخاميتين . فما اوقع ذلك الفكر في النفس ! صليب الاكليريكي الذي شهد بالامس عواطفه السامية ، وسمع صدى احلامه الكريمة وعهوده الخالدة ، يغيّبُ اليوم في ظلمة التابوت ، لامعاً بين انامل تزيله الجامدة الى الابد . . .

وصليب هنري الذي تلقاه يوم مناولته الاولى ، ونبذه وسلاه طويلاً ، ثم غمره بدموعه وقبلاته ساعة النزع الاليمة ، يعانق اليوم صدر الكاهن الجديد ، شاهداً معاركه واعماله ، تقبله بين يديه شفاه المحتضرين . . . ثم انتصب لوسيان على ركبتيه ، وعيناه محدقتان الى المصلوب الفضي ، قال :

أي صديقي الالهي ، صديقي الاوحد ، انني لك ! فهيا بي الى

المثل الاعلى أهدي بك الناس واعزيهم ! لقد ماع قلبي فرحاً بما قسمته لي من حظ ...

كاهن ! ... كاهن انا ! واي عظيم على الارض يعلو الكاهن؟

وكانت اضواء الشموع تنعكس على وجه الميت الشاب ، فبدا كأنه منتعش مفيق باسم ، فخيَّل الى لوسيان انه سامع من شفتيه المسلوبة اللون ، هذه الكلمات تعرّفه ضعفه وذله فتلهبُ غيرته وحبه وايمانه :

هو الكاهن مسيح آخر !

وما من عظيم على الارض يعلو الكاهن !

تصحيحات

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٩	١٦	الله أن أعيش	الله منه ما اعطاك فاعيش
١١	١٠	سمعت الولد مرات	سمعت مرات ان الولد الذي
٢٥	٢٠	حا منبأ جياً	حباً مناجياً
٣٢	١٦	مَن يعيبها	منهم يعيبها
٥٤	١٦	كما يتفرغ فيها	موضعها في اول السطر السابق
١٢٥	٤	جداره	جواره
١٢٧	٢	فوق عقيلة ريشيار	فرأى عقيلة ريشيار بوجهها
١٣٤	٥	بعدها	بعده

غانم، باسيل
خطيئتها
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032171

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

[redacted]

General Library